طه حسين

من بعيد

EGYPTIENNE
TIAN LIB

obeikandl.com

المطبعة الرحمانية بمصر

حقوق الطبع محفوظة

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه فصول متفرقة لا يكاد يجمع بينها إلا أنها كتبت من بعيد . كتبت من بعيد فى المكان وكتبت من بعيد فى الزمان أيضا . فأكثرها كتب من باريس وبعضها كتب من أقصى الغرب الفرنسى ، وبعضها كتب من ڤينا وقليل جدا منها كتب فى القاهرة .

وأقدم هذه الفصول عهدا كتب سنة ١٩٢٣ ، وأحدثها عهدا كتب سنة ١٩٣٠ فهى كما ترى جاءت من بعيد فى المكان والزمان جميعاً .

وقد يظهر للنظرة الأولى أن بعد المكان لا يؤثر فى كتابة الكاتب ولكنك إذا قرأت هذه الفصول وما يشبهها فستتبين فى غير شك أن النأى عن الدار والتنقل فى أقطار الغربة يثيران فى نفس الكاتب من العواطف والخواطر ما لا تثيره الاقامة والاستقرار . ومما يهيئان الكاتب تهيئة خاصة للشعور والحس ، وللتفكير والتعبير ، لا تستقيم له

حين يكون مقيما مستقرا فى داره بين أهله ومواطنيه يرى فى كل يوم مثل ما كان يراه من قبل لا تكاد تختلف الظروف التى تحيط به إلا اختلافا يسيرا بطيئا ، لا يكاد يحس .

فليس من شك إذن فى أن لبعد المكان أثرا فى إعداد الكاتب للكتابة ، أثرا فنيا خاصا . غير هذا الأثر الظاهر الذى يراه الناس حين يقرءون ما يكتبه المسافر عما يرى ويشهد ، من الأقطار .

ومن أجل هذا جمعت هذه الفصول التى كتبت من بعيد فى سفر واحد ، وقد يظهر للنظرة الأولى أيضا أن بعد الزمان بفصل من الفصول ، أو كتاب من الكتب لا أثر له فى ذلك الفصل أو هذا الكتاب ، ولكن قليلا من التفكير أيضا يدل على أن من الخير أن نعود بين حين وحين ، إلى ما كنا نكتبه فى الأعوام التى مضت ، وبعد بها العهد لنرى كيف كنا نكتب ، وكيف كنا نحس ونشعر ونفكر ، وكيف أصبحنا نحس ونشعر ونفكر ، وكيف أصبحنا نرى الناس والأشياء . لنتبين فى جملة موجزة

مقدار ما أدركنا من تطور الحس والشعور والتفكير والتعبير أيضا . ولست أخفى عليك أنى قد قرأت هذه الفصول التى كتبت كلها أثناء ثمانية أعوام ومضى بينى وبين آخرها أكثر من خمسة أعوام فى شىء من الحنان إلى تلك العهود التى كنا نشكو فيها المشقة والجهد ونضيق فيها بالحياة والاحياء ، ثم أصبحنا الآن نود لو تعود إلينا أو لو نعود إليها لا ليعود إلينا معها الشباب بل لتعود إلينا معها حياة هى من غير شك خير من الحياة التى نحياها الآن .

كنا فى تلك العهود أحرارا نفكر ونقول ، كما نريد أن نفكر ونقول . كنا نلقى ألوانا من المقاومة فلا تزيدنا إلا طموحا إلى الحرية وإمعانا فيها . وكنا ننظر إلى الجهاد فى سبيل الرأى وحرية الرأى على أنه حاجة من حاجات الحياة وضرورة من ضرورات الوجود الحر . فأين نحن من هذا الآن ؟

كنا نشكو أحيانا ظلم الحكومات وجنوحها إلى الاستبداد ونصرها للجمود ، ولكنا كنا نجد الشعب دائما

مواتيا لنا يمنحنا نصره، ووده، وعطفه، وتأييده. أما الآن فقد اشتد عنف السلطان وأسرف فى الشدة حتى اضطر الكتاب والخطباء إلى أن يفكروا ويقدروا، ويطيلوا التفكير والتقدير قبل أن يكتبوا أو يقولوا. وقد وجد الاستبداد الرسمى المتصل لنفسه أنصارا وأعوانا من طبقات الشعب لم يكن ليظفر بهم من قبل. فوجدت أحزاب مهما تكن ضئيلة قليلة الخطر فهى أحزاب منظمة تناصر الجور والاستبداد وتدعو إلى التأخر والرجوع إلى وراء. وليس فى هذا شىء من الغرابة فقد كثر الاضطراب فى نظمنا السياسية وطال عهد البلاد بحكومات لم تكن تقدر الحق ولا العدل ولا القانون، ولم تكن تقصر فى التماس الأعوان ولا الأنصار، بألوان الترغيب والترهيب. فليس الغريب أن توجد الأحزاب التى تكره النظر إلى أمام وتحب النظر إلى وراء، وإنما الغريب ألا توجد، والغريب أيضا أن تكون من الضعف والضآلة وقلة الخطر بحيث هى الآن.

obeikandi.com

وكثير من الذين سيقع فى أيديهم هذا السفر قد قرءوه حين نشر فصولا مفرقة ولكن كثيرا جدا من الذين سيقع فى أيديهم هذا السفر لم يقرءوه ، ولم يعرفوا من فصوله شيئا . لأنهم كانوا أطفالا يدرجون وصبية يختلفون إلى المدارس الابتدائية حين نشرت كثرة هذه الفصول ، ثم هم الآن شباب يتمون درسهم الثانوى أو يأخذون فى درسهم الجامعى فمن حقهم أن يروا كيف كنا نجاهد الحياة حين كانوا هم يستقبلون الحياة باسمين . فالى هؤلاء القراء الناشئين أهدى هذه الفصول سعيدا راضيا ، لأنهم سيرون حين يقرءونها أنى كنت أتحدث إلى الذين سبقوهم بنفس الآراء التى أتحدث بها إليهم الآن ، وأنى كنت أدعو الذين سبقوهم إلى نفس المثل العليا التى ادعوهم إليها الآن . ولست أدرى إلى أى حد أتيح لى التوفيق مع الذين سبقوهم ولكن أرجو أن يكون توفيقى معهم أعظم وأقوى وأبقى أثرا .

يونيو سنة ١٩٣٥ — طه حسين

obeikandl.com

القسم الاول

obeikandl.com

من باريس

١

فى السفينة

تحية طيبة زكية إليك أيها القارىء الكريم من كاتب حرم التحدث إليك حينا . وكثيراً ما نازعته نفسه إلى هذا التحدث فلم يجد إليه سبيلا.

مرضت أسبوعا ، وسافرت أسبوعا ، فلم أستطع أن أتحدث إليك . ولقد كنت إلى ذلك مشوقا . ولم تكن تنقصنى الخواطر التى تصلح موضوعا للأحاديث ، فان المرض والسفر كليهما ممتلئان بهذه الخواطر التى تصلح موضوعا للنجوى بين الكاتب وقارئه ، ولكنى كنت عاجزاً العجز كله عن أن أملى الخواطر أو أسطرها ، وأحسب أنى لا أزال عاجزا عن إملاء هذه الخواطر أو تسطيرها ، لأن بعضها قد ذهب مع المرض والسفر ، فلست أذكر منه قليلا ولا كثيرا . ولأن بعضها الآخر قد بقى فى نفسى ، ولن يذهب ولن يجد النسيان إليه سبيلا ، ولكن ليس من سبيل إلى إملائه وتسطيره لأن الوفاء بحقه ليس بالشىء اليسير .

وكيف أستطيع مثلا أن أفى هؤلاء الأصدقاء الكرام البررة

الذين عادونى فأحسنوا العيادة ، وودعونى فأحسنوا التوديع ، بما أنا مدين لهم به من شكر وثناء . كيف أفى لهم بذلك وهو أجل من أن يفى به كاتب ، وأدق من أن يصل إليه واصف . ولا تظن أنى أغلو أو أسرف كما جرت بذلك عادة الكتاب إذا أرادوا شكراً أو ثناء . فأنا أبعد الناس عن الغلو ، وأشدهم بغضاً للاسراف ، ويكفينى إذا أردت شيئاً أن أسميه باسمه ، أو أدل عليه باللفظ الذى وضع له ؛ ولكنى كنت أريد أن أحدثك عما بعثت فى نفسى عيادة العائدين ، وتوديع المودعين ، من عواطف مختلفة ، وألوان من الشعور متباينة ، تختلف باختلاف العائدين والمودعين ، وما هم فى نفسى من منزلة ، وما لى فى قلوبهم من مكانة ، ففى ذلك شىء من النفع ، وفيه بنوع خاص شىء من اللذة . ولكن محاولة ذلك شاقة ، لأن هناك عواطف قد لا تجد لها أسماء ، وضروبا من الشعور قد لا تجد لها عبارات تؤديها وتفى بما لها من حق . فليس الناس جميعاً سواء فى حبهم لك ، وعطفهم عليك . وليس الناس جميعاً سواء فيما تضمر لهم من حب ، وما تدخر لهم من مودة . وإذن فتأثرك بعيادتهم وتوديعهم يختلف باختلاف منزلتك فى نفوسهم ومكانتهم من قلبك . ولكن هل تستطيع أن تصف ذلك حق الوصف ؟ أم هل تستطيع أن تجهر منه بالشىء الكثير ؟ أما أنا فأعتقد أن ذلك على نفعه ولذته محال ، لأن الحياة الاجتماعية

وما تواضع الناس عليه فى صلاتهم وعلاقاتهم ، تحول بيننا و بين ذلك وتأباه كل الآباء . فلأ كتف إذن بما كان ينبغى أن أ كتفى به منذ بدأت هذه الكلمة ، و بما يكتفى الناس به من تسجيل الشكر والثناء للعائدين جميعاً والمودعين جميعاً ، دون أن أفرق بينهم فى اللفظ ، وإن اضطررت واضطر غيرى من الناس إلى التفرقة بينهم فى نجوى النفس وحديث الضمير . ولنحتمل إذن ، راضين أو كارهين ، هذا الظلم البين الذى تضطرنا إليه حياة الاجتماع ، فليس هو أثقل ما تضطرنا إليه الحياة الاجتماعية من ضروب الظلم والتقصير . ولو أننا ذهبنا نحلل هذه الحياة وما فيها من ظلم و بغى ، ومن إفراط وتفريط ، لما انتهينا إلى حد ، ولما فرغنا من القول .

ومهما يكن من شىء فإن هناك شعوراً لذيذاً لا يستطيع أن يتقيه إنسان حساس . يحدث فى نفسك أثناء المرض وأوقات السفر حين ترى من حولك ناساً يعطفون عليك ، و يرقون لك ، و يؤثرونك بالمودة واللطف . لذيذ جداً هذا الشعور الذى ينبعث فى نفسك حينئذ ، فيشعرك بأنك لست وحيداً فى الحياة ، و بأن هناك قلوباً قد تخفق مع قلبك ، ونفوساً قد تشاركك فى الألم وتشاركك فى اللذة . ولست أعرف شعوراً يفوق هذا الشعور لذة وحسن موقع فى النفس . والحق أن حظى من هذا الشعور عظيم ، وأن اغتباطى به واستعذابى

إياه قد رافقاني من القاهرة إلى باريس ، فحمدت مرافقتهما ، وأنست إليهما فى أوقات الوحشة .

نعم : فى أوقات الوحشة ! فأنت إذا سافرت إلى مكان بعيد فعبرت البحر وقطعت الفجاج تحس شيئا من الوحشة غير قليل، مهما تكن لذة السفر، ومهما يكن اغتباطك بما ستلقى إذا استقر بك المقام، ومهما يكن رفاقك فى هذا السفر الطويل اللذيذ . ولقد كان يرافقنى فى هذا السفر أحب الناس إلى ، وأعزهم على ، وأرأفهم بى وأشدهم مشاركة لى فى لذات الحياة وآلامها . كانت ترافقنى زوج برة كريمة ، وطفلان هما كل ما آمل فى الحياة . ومع هذا فقد وجدت شيئاً من الوحشة تسليت عنه بهذا الشعور اللذيذ الذى كان يرافقنى ، بذكرى أولئك الأصدقاء العائدين والمودعين، بألفاظهم الحلوة، وعباراتهم التى كانت تمتلىء رفقاً وودا و إيثاراً .

أعبرت البحر ؟ أأحسست فى السفينة ما أجد من ضروب الحس ، وما أشعر به من مختلف الشعور ؟ يتحدث الناس بأن الأمد بين مصر وأوربا قصير ، و بأن عبور البحر لذيذ ، و بأنه أمن لاخطر فيه ، أو لايكاد يوجد فيه شىء من الخطر ، و بأن المسافر ليس عليه إلا أن يركب السفينة و يستسلم لما فيها من راحة ولذة وتسلية ، حتى ينقضى السفر، ولا سيما إذا كان مثلى لا يخشى الدوار ولا يتعرض

لشره . بذلك يتحدث الناس ، ولعلهم محقون ، بل لا أشك فى أنهم محقون . ولكنى أعترف بأنى لم أشعر بذلك ولم أحس هذا الأمن وهذه الدعة يوما من الأيام منذ ألفت عبور البحر ، وإنما وجدت ويظهر أنى سأجد دائما إلى جانب هذه اللذة التى يحسها من يعبر البحر شعوراً خفياجدا . لا أقول إنه الخوف ، ولا أقول إنه يشبه الخوف ، وإنما أقول إنه يظهر الانسان على قيمته الحقيقية ، وعلى مكانته الصحيحة من هذا الوجود . نعم ليس هذا الشعور خوفا ، وليس شيئا يشبه الخوف ، ولكنه شىء ينبىء الانسان بأنه ضئيل ، ضئيل جداً لا يكاد يذكر ، وبأن حياته شىء أوهن من نسج العنكبوت ، لا قدرة له على الثبات ولا على مقاومة الأحداث . وإذا أحس الانسان أنه ضئيل إلى هذا الحد ، وأن أسباب حياته واهية واهنة إلى هـذا الحد ، ملكه شىء من البؤس والاشفاق أحسب أن وصفه عسير .

اضطرب البحر ذات ليلة اضطرابا شديداً ، واصطخبت أمواجه وعصفت الريح ، فكنت لا تسمع إلا هدير البحر ، وعصف الريح ، وصوتا لاخشاب السفينة يشبه الشكوى . وكان السفر نياما . فكنت لا تسمع صوت إنسان . وكان هذا المزاج المؤتلف من هذه الأصوات الثلاثة التى ذكرتها لك وحده يملك عليك سمعك ونفسك ، ويضطرك إلى أن تحاله وتفكر فيه ، وإلى أن تفكر فى نفسك وتقيسها إلى هذا

الروع الذى يكتنفك ، والهول الذى يحيط بك . ولم يكن فى نفسى شىء من الخوف ولا من الاشفاق ، لأنى أعلم أن ذلك شىء مألوف ، وأنك تعبر البحر كما تقطع شارعا من الشوارع ، ومع ذلك فقد شعرت حقا فى هذه الليلة بأن الانسان ليس شيئا مذكورا ، كما أنه لم يكن شيئا مذكورا ، وكما أنه لن يكون شيئا مذكورا مادامت الطبيعة على ما هى عليه من القوة والجلال .

فى مثل هذا الوقت يذكر المؤمن ربه ويلجأ إليه ، ويتقرب إليه بضروب العبادة وفنون التقوى . وفى هـذا الوقت يؤمن الملحد إن كان ضعيفا ، ويزداد عتوا إن كان ممعنا فى الالحاد ، فيسخر من الحياة كما يسخر من الموت ، يهزأ بما اشتملت عليه هذه ، ويزدرى ما عسى أن يخفيه هذا . وأعترف بأنى فى هذا الوقت أحسست شيئاً قد ينكره على المؤمنون والملحدون جميعا ، أحسست أن إيمان المؤمن وإلحاد الملحد ضرب من الكبرياء وغلو الانسان فى تقدير نفسه وإكبار منزلتها . فان هذا المؤمن الذى يعتقد أن خالق الكون ومدبره ، خالق هذا الكون العظيم الذى لاتشعر بعظمته وأنت مستقر فى دارك ، أو لاه بالتحدث إلى رفاقك ، أو القراءة فى كتابك ، وإنما تشعر بعظمته حين لا تسمع إلا هدير البحر ، وعصف الريح ، وشكوى السفينة . وحين تشعر شعورا واضحا جدا بأن أسباب الحياة ضعيفة واهية ،

و بأن أقل شيء يستطيع أن يحطم هذه السفينة التى تقلك ، وأن يقطع كل ما بينك و بين النجاة من سبب فتصبح نسيا منسيا ، كأنك لم تكن قط ، وكأنك لم تعرف أحدا ، وكأن أحدا لم يعرفك . أقول إن المؤمن الذى يعتقد أن خالق هذا الكون العظيم ومدبره يختصه بالبر والرحمة ، فيعنى به و يحوطه و يحفظه من الطوارئ ، و يعصمه من الأحداث ، و يرعاه فى كل لحظة ، بل فى كل جزء من أجزاء اللحظة ، متكبر يرى نفسه شيئا مذكورا يستحق هذه العناية المقدسة العظمى مع أن فى هذا الكون ما لا يقاس الانسان إليه عظمة وجلالا .

وهذا الملحد الذى يستشعر الالحاد و يتخذه مذهبا وعقيدة ، فيعاند و ينازع و يدفع عن إلحاده كما يدفع المؤمن عن إيمانه ، و ينكر الله كما يثبته المؤمن ، و يعتقد أن العقل كل شيء ، وأن آثار العقل وحدها خليقة بالاجلال والاكبار ، وأن نجاة الانسان فى عبادة العلم والاذعان له ، لا فى إكبار الدين والخضوع لأوامره ونواهيه . هذا الملحد الذى يمعن فى الغرور بقوة العقل والعلم وآثارهما ، و بأنه قد سخر لنفسه الطبيعة فذلل الماء والهواء والبخار ، واتخذ الطبيعة لنفسه عبدا يأمر فتطيع و ينهى فتنتهى ، مغرور متكبر . لأن عقله وعلمه وقوته وذكاءه مهما تبلغ من العظمة والسلطان ، فلن تستطيع أن تعصمه من الأحداث ، ولا أن تجعله بمأمن من أقل هذه الاحداث

خطرا وأحطها مكانة . بهذا شعرت وفى هذا فكرت . وأعترف بأنى لم ألم المؤمن على إيمانه ، ولا الملحد على إلحاده . وإنما أحسست شيئا من الاشفاق على هذا وذاك . وتمنيت لو أتيح للانسان أن يكون مؤمنا وعالما دون أن يغلو فى التعصب للدين أو للعلم . تمنيت للانسان لو استطاع أن يجمع بين هاتين القوتين اللتين ليس له عنهما غنى ولا منصرف . فإن قوة الدين تعصمه من اليأس والهلع وتفتح أمامه أبوابا من الأمل الذى ليس له حد ، وتمكنه أن يلقى الخطوب ويتجشم الأخطار راضيا مطمئنا راجيا مستبشرا . وقوة العلم تمكنه من الحياة . ولكن أيستطيع الانسان حقا أن يجمع فى نفسه بين هاتين القوتين ، وأن يطمئن إلى كلتيهما اطمئنانا بريئا من التناقض والاضطراب ، يطمئن إلى الدين دون أن ينكر العقل ويطمئن إلى العقل دون أن يجحد الدين ؟

يتحدثون أن كثيرا من العلماء قد وفقوا إلى هذا ، وأن « باستور » على جلال خطره وبعد أثره فى العلم كان أشد الناس تدينا وأكثرهم إيمانا . فمتى يكثر فى الناس أمثال « باستور » ؟

على أن هذا الشعور وما استتبع فى نفسى من تفكير أو هذيان

لم يكن كل شيء أحسسته في السفينة فقد كانت هناك أشياء أخرى لا تخلو من نفع ، كان أكثر رفاقنا في السفينة من الانجليز ، وكنت أجهل الانجليز ، وما زلت أجهلهم ، ولكنى كنت أتصورهم قوما أميل إلى الجد منهم إلى الهزل ، وأميل إلى القطوب منهم إلى الابتهاج وأميل إلى السكون والتؤدة منهم إلى الحركة والنزق ، ولعلهم كذلك ، ولكنهم لم يكونوا كذلك في السفينة ، فلم أر جماعة أميل إلى الفرح وأشد تعلقا بأسبابه ولا أكثر إمعانا في الضحك وهذه اللذة البريئة من هذه الجماعات الانجليزية التي كانت تملأ السفينة والتي كانت تقضى يومها وجزءاً من ليلها في فرح ومرح ونشاط عظيم ، وحسبك أن غرفة المائدة لم يكن يملؤها أثناء الطعام إلا قهقهة عالية جدا متصلة جدا لا تعرف الهدوء ولا الانقطاع ، تمتزج فيها أصوات الرجال والنساء امتزاجا لا يخلو من لذة ولا يعجز عن أن يحملك على الضحك وإن كنت أشد الناس جدا وأكثرهم عبوسا

شيء آخر وجدته في السفينة فأذكرني أول يوم قضيته في فرنسا بل أول ساعة قضيتها في باريس سنة ١٩١٤ ، هذا الشيء أو بعبارة أصح هذا الشخص هو حلاق السفينة ، اضطررت إلى غرفة هذا الحلاق ، واضطررت طبعا أيضا إلى أن أسمع لحديث هذا الحلاق ،

وأحاديث الحلاقين مشهورة من قديم الزمان وفى جميع البيئات ، فى بغداد والقاهرة ، فى آسيا وأوروبا ، فى العصر القديم والعصر الحديث بالثقل والسخف ، وبأنها مصدر الملل والأذى ، ولكنى أؤكد لك أن حديث حلاق « الاسفنكس » لم يكن ثقيلا ولا سخيفاً ولا مملا ، بل أؤكد لك أن حديثه كان لذيذاً ممتعاً ، بل أوصيك بأن تتحدث إلى حلاق « الاسفنكس » إذا ركبت « الاسفنكس »

تحدث إلىّ حلاق « الاسفنكس » فى سياسة فرنسا وفى سياسة فرنسا من جميع وجوهها : مع ألمانيا ومع انجلترا ، فى سوريا وفى الجزائر ، وقارن لى حلاق « الاسفنكس » بين المذهبين الانجليزى والفرنسى فى الاستعمار ، وألمّ لى حلاق « الاسفنكس » بطرف من سياسة الأحزاب البرلمانية فى بلده ، وكان حلاق « الاسفنكس » اشتراكياً من الوجهة النظرية ، ولكنه يائس من مذهبه الاشتراكى ، فهو كغيره من الناس فى الحياة العملية . وأؤكد لك أنى وجدت لذة جديدة عظيمة فى الاستماع إلى حلاق « الاسفنكس » وذكرت أول خادم فرنسية لقيتها فى مرسيليا سنة ١٩١٤ فتحدثت إلىّ بما يشبه هذا الحديث، وتمنيت لو كنا جميعاً فى مصر كحلاق « الاسفنكس » ! وأحسب أنا سننقطع زمناً طويلا جداً قبل أن تصل كثرتنا المطلقة

openkandi.com

من التعليم والتهذيب إلى حيث وصل حلاق « الاسفنكس » .

قرأت في السفينة قصة تمثيلية صغيرة عنوانها « الملك » وضعها الكاتبان الفرنسيان « روبير دى فلير » « وكيافيه » فضحكت لها كثيراً وأعجبت بها كثيراً ، ودعوت بالحياة للحرية كثيراً ، وكنت أحب أن أحدثك عن هذه القصة ، ولكن أخلاقنا السياسية والاجتماعية لا تسمح بذلك . ومع هذا فليس في القصة شيء غريب وإنما يصف الكاتبان زيارة ملك خيالى لمدينة باريس ، ويتخذان هذا الوصف سبيلا إلى تناول النظم السياسية والاجتماعية كلها بأشد النقد شناعة وأكثره مرارة ، يذمان نظام الملكية ، ويذمان نظام الجمهورية ، ويسخران من الديمقراطية كما يسخران من الأرستقراطية ، وكما يسخران من الاشتراكية : القصة هجاء شنيع للجماعة الانسانية في كل مكان وفي كل زمان ، وقد اختار الكاتبان باريس موضعاً لهذه القصة لأن باريس تكاد تختصر العالم الانسانى على اختلاف أزمنته وأمكنته

لا أستطيع أن أحدثك عن هذه القصة ولكني أستطيع أن أوصيك بقراءتها . فستجد فيها نفعاً وستجد فيها لذة . ثم وصلت إلى باريس ، صباح أمس ، فاذا الناس جميعا يلهجون بشيء واحد ، تنطق به أفواههم ، وتكتب فيه صحفهم ، لا يلقى أحدهم الآخر

إلا سأله عنه وتحدث إليه فيه أسفاً مرة أشد الأسف ، معجبا مرة أخرى أشد الاعجاب ، جامعاً فى أكثر الأحيان بين ذلك الأسف وهـذا الاعجاب ، وهو موت الممثلة الفرنسية « ساره برنار » ولـكننى قـد أطلت ، فسأحدثك عن « ساره برنار » فى غير هـذا المقال

باريس فى ٢٨ مارس سنة ١٩٢٣

opeikandi.com

٢

ساره برنار

تركت القاهرة يوم الأربعاء ووصلت إلى باريس يوم الثلاثاء ، فاذا الناس يتحدثون بموت « ساره برنار » أولا يتحدثون إلا بموت « ساره برنار » ، وإذا كثير منهم لا يكتفى بالحزن الصامت ، أو الاعجاب المقتصد . بل يتحدث ويشرح ويفصل ، ويروى ما سمع وما رأى ، ويصف ما أحس وما شعر به حين شهد « ساره برنار » تلعب فى « ذات الكاميليا » أو فى « النسر » أو فى « المجد » أو فى غيرها من القصص ، وربما تحدث عما رأى وسمع من أبهة « ساره برنار » ومجدها وافتتان الناس بها وافتتانها هى بالناس ، وعما كانت تكسب من مال لا يحصى فتنفقه وتستدين ، ثم تكسب فتؤدى الدين ثم تستدين من جديد . وعما كان بينها وبين كبار الناس وزعمائهم فى العالمين من صلات قوية أو ضعيفة ، متينة أو رثة ، وعما قدم إليها الملوك من تجلة ، وأهدى اليها العظماء من تكرمة ، وعن جمالها الباهر ، وصوتها الساحر ، وأعاجيبها وألاعيبها وافتنانها فى كل شىء : فى الهزل والجد ، فى التمثيل والتصوير والنقش والكتابة

والعبث ، وعن هذا الضعف الشديد الذى كان يلازم جسمها فيجعل حياتها فى أكثر الأحيان معلقة بين اليأس والرجاء ، أقرب إلى اليأس منها إلى الرجاء ، وهذه القوة المدهشة التى كانت تلازم نفسها فى كل وقت من أوقاتها ، وفى كل طور من أطوار حياتها فتجشمها الأهوال وتكلفها الأعاجيب ؛ وتثب بها من أوربا إلى أمريكا وإلى استراليا ثم إلى مصر ، ثم إلى فرنسا ؛ ثم إلى السويد والنرويج وغيرها من بلاد الله . وتقف الناس منها موقف الحائرين المدهشين الذين يعجبون ويعجبون إلى غير حد وهم لا يدرون بم يعجبون ؟ بالذكاء النادر ؟ بالجمال الباهر ؟ بالصوت الساحر ؟ بالقوة التى لا حد لها ؟ بالأمل الذى لا يخشى اليأس ولا يحسب له حسابا ؟ بالنفس التى ليس لها مثيل . . ؟ بهذا كله كان الناس يعجبون سواء منهم من أحبها ، وسواء منهم من أبغضها . كل بها معجب ، وكل لها مكبر فى كل وقت وفى كل طور .

بهذا كله كان الناس يتحدثون يوم نعيت إليهم « ساره برنار » ، ومن قبل ذلك أنبأتهم الصحف بأن « ساره برنار » مشرفة على الموت فجزعوا وهلعوا وأسرعت جماعاتهم المختلفة إلى بيت المريضة فازدحمت حوله وامتلأ بها الشارع ، وكان من هـذه الجماعات من يتاح له الدخول إلى بيت المريضة فيسأل ويستعلم ويكتب اسمه ثم

ينصرف ، وكان من هـذه الجماعات من لا يتاح له هذا الحظ فيرابط في الشارع يتنسم الأنباء ويتصيد الأخبار ، يرى الصحفي فيسأله ، ويلمح الطبيب فيستنبئه ، كذلك قضى جمهور ضخم من أهل باريس يوم احتضار « ساره برنار » ، فلما كان الموت لم يخل الشارع ولا البيت من هـذا الجمهور ، وإنما ازدادا به امتلاء وازدحاما ، وما هي إلا أن جهزت الميتة بجهازها الأخير حتى أذن للناس فأقبلوا على البيت أفواجا ، وأخذوا يمرون أمام هـذه الجثة الهامدة التي طالما بعثت فيهم الحياة يوما كاملا ثم تشييع الجنازة ، فتقول الصحف إن ٦٠٠ ألف من أهل باريس اشتركوا فيه ، وإن ألفين من الشرطة اشتركوا في حفظ النظام ، وإن أرصفة الشوارع التي مرت بها الجثة كانت مكتظة بالناس على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم وأسنانهم ، وإن الزهر كان ينثر على التابوت من أولئك الذين ثقلت بهم سطوح الدور والحوانيت وامتلأت بهم نوافذها ، ولم يكن الشعب وحده المحتفل بتشييع هذه الممثلة وإنما احتفلت به الجمهورية وبلدية باريس ، وتنافستا أيهما تقوم بنفقات الجنازة ، ولم تكن فرنسا وحدها المحتفلة بتشييع هذه الممثلة ، وإنما اشتركت فيه أوروبا وأمريكا ومن الملوك والملكات من أرسل إلى أسرة الممثلة يعزيها ويعطف عليها

كان هـذا كله في الأسبوع الماضي ، وكنت في باريس أسمع

الناس يتحدثون به. وأقرأ ما كانت الصحف وما لاتزال تكتب فيه فكنت أسأل نفسى إلى أى حد يبلغ إعجاب الناس بالنبوغ وإكبارهم للنابغين إذا كان هؤلاء الناس من الرقى العلمى والخلقى بحيث يفهمون النبوغ والنابغين . . . وكنت أذكر مصر فى هذا كله وكيف يستطيع مصرى ألا يذكر مصر وأهل مصر كلما رأى أو سمع ما يبهره ويسحره . كنت أذكر مصر وأسأل نفسى : متى يتاح لمصر نابغة « كساره برنار » أو على أقل تقدير متى يبلغ أهل مصر من الرقى العلمى والخلقى ما يمكنهم من أن يقدروا نابغة « كساره برنار » ؟ لم تنبغ فى السياسة ، ولا فى الدين ، ولا فى العلم ، وإنما نبغت فى الفن ، وفى فن هو سىء الحظ جداً عند المصريين : نبغت فى التمثيل الذى يزدريه أكثر المصريين ، ويفهمه قليل من المصريين على غير وجهه ، ولا يفهمه حقاً بين المصريين إلا نفر يكادون يحصون

لم أسمع « ساره برنار » ولم يتح لى على طول ما أقمت فى باريس أن أحضرها فى ملعب من ملاعب التمثيل ، فلست أستطيع أن أحدثك برأيى فيها ، ولست أستطيع أن أكون لى فيها رأياً ، ولكنى أستطيع أن أحدثك برأى الناس فيها ، وبرأى الناس الذين لا يتهمون ولا تستطيع أنت ولا أنا أن نضع آراءهم وأحكامهم

موضع الشك ، ولكن من « ساره برنار » ؟ لا يعرف أبوها ، وإنما يقولون إنها ولدت سنة ١٨٤٤ فى باريس أو فى برلين ، ولا يتفق الذين يقولون إنها ولدت فى باريس على موضع ميلادها ، بل إن « ساره برنار » نفسها ذكرت لهذا الميلاد موضعين مختلفين، وتحدثت أن تذكرة ميلادها قد مزقت أو ضاعت ، ويقول الناس إن أباها كان هولانديا إسرائيليا تنصر ، ويقول آخرون إن أباها كان فرنسياً عظيما مشتغلا بالسياسة الدولية ، ويتفقون جميعاً على أن أمها « جولى برنار » لم تكن تنتسب إلى أسرة مستقرة وإنما كانت من هؤلاء الناس الرحل الذين ينتقلون من مكان إلى مكان لا يستقرون فى وطن ولا يطمئنون إلى دار ، كانت أمها يهودية وكان أبوها مسيحيا أو يهوديا تنصر ، وكان اسمها الأول « روزين برنار » ويقال إن أباها النصرانى أو المتنصر ألح فى أن تكون تربيتها دينية فنشأت فى الدير وتأثرت بحياته تأثراً شديدا حتى أظهرت الرغبة فى أن تكون راهبة ولكنها اشتركت فى تمثيل قصة دينية مدرسية فأعجب بها أحد من رآها « الدوق دى مورنى » ونصح بأن تتخصص للتمثيل ، وشملها منذ ذلك الوقت بحمايته فذهبت إلى الكونسرفتوار Conservatoire (مدرسة التمثيل) ونالت فيه إعجاب أساتذتها ولكن فوزها فى المسابقة لم يكن باهرا ولا متصلا ، ثم اتصلت

بملاعب كثيرة مختلفة فلم تنل من الفوز ما كانت ترجو ، فيئست أوكادت تيأس من التمثيل ومن فرنسا

وليس فى هذا شىء من العجب ، فأكثر النابغين عرف سوء الحظ قبل أن يعرف المجد ونباهة الذكر ، وربما كان من أهم الأسباب التى حالت بين الممثلة وبين الفوز الباهر نفس نبوغها ، فقد كانت لها طرائق مختلفة ومذاهب غريبة لم يألفها الجمهور ولم يطمئن إليها ، فلم يكن غريبا ألا يشتد إعجابه بها وتهالكه عليها . على أن « ساره برنار » لم تكد تبلغ الثلاثين حتى كانت عضوا شريكا فى أكبر دار من دور التمثيل فى « بيت موليير » ، وكانت تلعب القصص المختلفة على تباين عصورها ومذاهبها ، وكانت تبلغ فى هذه القصص فوزا عظيما فى كثير من الأوقات حتى كتب إليها «فكتور هوجو» سنة ١٨٧٧ يقول : « لقد كنت عظيمة خلابة . لقد أثرت فى أنا المجاهد الشيخ . ولقد كان الجمهور فى وقت من الأوقات سعيدا يملؤه الحنان فيصفق ، أما أنا فكنت أبكى »

ربما كان من الحق أن توازن بين « ساره برنار » وبين « السيبياد » الأتينى المشهور ، كلاهما كان فتنة المدينة التى نشأ فيها وكلاهما كان يحب إعجاب الناس به وتحدثهم عنه ، ويتكلف لذلك الأعاجيب ، ويفعل فى سبيله مالا تبيحه العادة ولا تسمح به

الأوضاع المألوفة . يقال إن « السيبياد » كان له كلب فتن الأتينيين فتحدثوا عنه دهراً ، فلما انتهى إعجابهم به كفوا عن الحديث فيه فقطع « السيبياد » ذنب الكلب ليعود الأتينيون فيذكروه . وكانت أعاجيب « السيبياد » ونفقاته أكثر من أن تحصى ، وكان لا يتكلف هذه النفقات وتلك الأعاجيب إلا ليفتن الناس ويحملهم على إطالة الاعجاب به والتفكير فيه ، كان سيء السيرة وكان له زوج برة شريفة جزعت لسوء سيرته فذهبت إلى « الأركون » تطلب الطلاق وبلغ ذلك « السيبياد » فأسرع إلى مجلس « الأركون » فلما رأى زوجه بين يديه انهال عليها لثماً وتقبيلا وملاطفة وحملها بين ذراعيه وعاد بها إلى بيته ، والأتينيون من حوله يصفقون له ويهتفون باسمه وامرأته بين ذراعيه قد رضيت عنه واطمأنت إليه ، كذلك كان « السيبياد » ، وكذلك كانت « ساره برنار » ، كانت فتنة باريس وكانت تحرص على أن تظل فتنة باريس ، فكانت تفعل كل شيء يجعلها حديثاً لأهل باريس .

كانت تملأ غرفتها بالهيا كل العظيمة وتنام بمنظر من الناس فى تابوت مبطن بالحرير الأبيض وتستأنس كثيراً من الحيوان الوحشى ، كانت تدهش الناس بأزيائها المختلفة الغريبة ، تتخذ زى الرجال حينا ، وبدعاً من أزياء النساء حيناً آخر ، كانت تدهش الناس

بأحاديثها ومقالاتهـا وصورها ، وكانت على اختلاف متصـل عنيف مع مدير « بيت موليير » حتى كان يسميها هـذا المدير « الآنسة ثورة » (١)

فلما كانت سنة ١٨٨٠ ضاقت « ساره برنار » بالحياة في باريس وأحست أن هـذه المدينة لا تسعها ، بل أن فرنسا كلها لا تسعها فاستردت حريتها وخرجت من « بيت موليير » خروجاً عنيفاً وقفها أمام القضاء الذى قضى عليها بغرامة ، وسافرت إلى لندره ثم إلى السويد والنرويج ثم إلى أمريكا . وكان سفرها إلى أمريكا فخما ضخما كثر حوله الضجيج والعجيج . وقال كثير من مؤرخيها إن كثيراً من الملـكات لم تظفر بما ظفرت به هـذه الممثلة من الفوز والاكبار فى هذه السياحة . ولم تقف أسفارها إلى هذا الحد ، بل زارت أكثر أقطار الأرض المتحضرة ونالت فيها فوزاً باهراً لم يكن مقصوراً عليها بل كان يتناول فرنسا معها ، ولقد ذهبت فى بلاد المجر مرة فرفعت الأعلام الفرنسية فى كل مكان ذهبت إليه رغم الأوامر التى صدرت من فينا بحظر ذلك .

ولهذا فتن الممثلون بهذه الممثلة التى كانت أحسن سفير نشر الدعوة الفرنسية فى أقطار الأرض وأحسن تمثيل العقل الفرنسى

(١) أنظر مجلة « الألستراسيون » عدد ٣١ مارس سنة ١٩٢٣

والفن الفرنسى والأدب الفرنسى ، حتى قرنها كثير من الكتاب إلى نابليون ، ولست أدرى إلى أى حد تصح هذه المقارنة ، ولكنى لا أشك فى أن « ساره برنار » خدمت فرنسا ورفعت ذكرها إلى حد لم يبلغه كثير من قوادها الفاتحين

أما نبوغها الفني فلست أستطيع أن أحدثك عنه ، وإنما أترك ذلك للناقد الفرنسى « جول ليمتر » الذى كان بها مفتونا والذى يحدثنا بأن مصدر نبوغها وافتتان الناس بها ثلاثة أشياء : صوتها الذى سماه فكتور هوجو ومن بعده الفرنسيون جميعاً : « الصوت الذهبى » يقال إنها كانت تتغنى فى تمثيلها بالنثر والشعر جميعا ؛ وكانت ماهرة فى تصوير صوتها صوراً مختلفة ملائمة ملاءمة غريبة لموضوع الحديث الذى كانت تتناوله ، فكان صوتها مرة يشبه الغدير المنساب . وأخرى يتلوى ويتهدج ، ومرة يرتفع ، وأخرى ينخفض حتى كان الجمهور معلقا بهذا الصوت الضئيل القوى الشفاف .

الثانى حركاتها فى الملعب فقد يحدثنا « جول ليمتر » بأنها أحدثت فى التمثيل ما لم يحدثه أحد قبلها ، فكانت تلعب بجسمها كله أى أنها كانت تحقق ما تمثله ، فلم تكن تخيل إلى الناس أنها تلثم أو أنها تعانق . وإنما كانت تلثم وتعانق بالفعل ، وكانت تفعل ما هو أبلغ فى الدهشة من اللثم والمعانقة .

الثالث ذكاؤها ، فقد كانت أقدر الممثلين على فهم الفصول التى كانت تلعبها ، كانت تفهم هذه الفصول كما فهمها المؤلف ، وربما فهمتها خيراً مما فهمها المؤلف ، ومن هنا خلقت « ساره برنار » كثيراً من القصص ، وكثيراً من المؤلفين ، ولن يستطيع « فرنسوا كوبيه » ولا « ادمون روستان » أن يستأثرا بما أدركا من فوز فى ملاعب التمثيل وإنما « لسار برنار » الحظ الموفور من هذا الفوز

وانظر إلى هذا الوصف الذى نشرته « الألستراسيون » وكتبه « ادمون روستان » فهو وحده يعطيك منها صورة خليقة بها :

« تقف عربة أمام باب ، فتسرع بالنزول منها امرأة قد التفت فى الفرو الكثير ، تشق الجماعات التى اجتمعت حين سمعت جرس عربتها تاركة لهذه الجماعات إحدى بسماتها ثم تصعد فى خفة سلما ملتوية ، وتغير على « لوج » مزدهر شديد الدفء ، فتلقى فى ناحية حقيبتها ذات الشرائط التى تحتوى على كل شىء ، وفى ناحية أخرى قلنسوتها ، تزينها أجنحة العصافير ، وإذا هى قد نحفت فجأة حين خرجت من فروها فما هى إلا غمد من الحرير الأبيض ، ثم تقذف بنفسها على ملعب مظلم ، فلا تكاد تصل حتى تبعث الحياة فى جماعة ممتقعة تتثاءب فى الظلام ، تذهب ، تجىء ، تبعث الحمية فى كل ما تمس ، تأخذ مجلسها فى المخبأ ، تنظم المنظر ، تشير إلى ما ينبغى من الحركات

ونبرات الصوت ، تقف ، تطلب ، الاعادة ، تزأر غضبا ، تجلس ، تبسم ، تشرب الشاى ، تبدأ هى فى الاعادة ، فتملأ بالدمع أعين شيوخ الممثلين ، قد أطلت رءوسهم من جوانب الملعب ، ثم تعود إلى « لوجها » حيث ينتظرها المهيئون فتلغى بالمقص ماهيئوا ليستأنفوا تهيئته ، ثم هى متعبة تمسح جبينها ، توشك أن يغمى عليها ، تثب فجأة إلى الطبقة الخامسة من الملعب وتظهر لصاحب الأزياء مضطربة ، وتبحث فى خزائن « الأقمشة » وتؤلف الأزياء ، تنظم ، ترتب ، تهبط إلى « لوجها » لتعلم النساء اللاتى يظهرن فى الملعب كيف ينبغى أن يرجلن شعورهن ، ثم تعيد منسقة طاقات الزهر ، ثم تسمع مائة رسالة وترق لبعض الاستعطافات تفتح غالبا حقيبتها الرنانة التى تحوى من كل شىء ، تفاوض حلاقا إنجليزيا ، تعود إلى المسرح لتنظم إضاءة منظر من المناظر ، تسب أدوات الاضاءة ، تقف عامل الضوء على إساءته ، يمر بها أحد العمال فتذكر غلطة اقترفها أمس فتصعقه بسخطها ، تعود إلى لوجها لتتعشى . تجلس إلى المائدة ممتقعة فى جلال مهيئة ما ستعمل ، تأكل فى ضحك غريب ، ليس لديها الوقت لتتم عشاءها ، تلبس ثيابها للتمثيل بينما يحدثها المدير من وراء ستار ألوانا من الأحاديث ، تمثل متهالكة ، تدبر ألف شىء بين الفصول ، ينتهى التمثيل فتبقى فى الملعب لتدبر أمرها إلى الساعة الثالثة

صباحاً ، ولا تعتزم السفر إلا حين ترى الناس جميعاً من حولها ينامون وقوفاً احتراماً لها ، تصعد إلى عربتها ، تتمطى فى فروها مفكرة فيما ستجد من لذة حين تستلقى فى السرير ، ثم تقهقه لأنها ذكرت أن هناك من ينتظرها فى البيت ليقرأ عليها قصة ذات خمسة فصول ، تعود إلى البيت : تسمع القصة ، تفتن بها ، تبكى ، تقبلها ، لاتستطيع النوم ، فتنتهز الفرصة لتدرس دوراً من أدوار التمثيل... »

كذلك وصفها « ادمون روستان » أما أنا فلست أدرى أأعجب بالواصف أم بالموصوف ؟! ولكنى أعتقد أنى بهذه الترجمة السقيمة قد أعطيتك أحسن صورة لهذه الممثلة النابغة ، ولست أريد أن أختم أنا هذا المقال ، وإنما أريد أن يختمه « جول ليمتر » بهذه الكلمة الحلوة التى كتبها يودع بها « ساره برنار » وقد اعتزمت أحد أسفارها إلى أمريكا

« نتمنى لك ياسيدتى سفراً سعيداً ، آسفين أشد الأسف لأنك ستفارقيننا زمناً طويلا ، ستظهرين نفسك هناك لقوم حظهم من الفن والأدب قليل ، يسيئون فهمك وينظرون إليك كما ينظرون إلى عجل ذى قوائم خمس ، ويرون فيك الشخص الغريب الصاخب لا الفنانة الخلابة إلى غير حد . قوم لن يقدروا نبوغك إلا لأنهم

دفعوا ثمناً باهظاً ليستمعوا اليك ، اجتهدى فى أن تحتفظى بظرفك وأن تعيديه إلينا كاملا ، فانى آمل أن تعودى وإن كانت أمريكا بعيدة الشقة ، وإن كنت قد تحملت من الخطوب وتجشمت من الأخطار مالم تتحمل ولم تتجشم أبطال الأساطير ، إذن عودى إلى « بيت موليير » واستريحى إلى الاعجاب والحب اللذين يدخرهما لك هذا الشعب الباريسى طيب القلب الذى يعفو لك عن كل شىء لأنه مدين لك بكثير من لذائه الكبرى ، ثم فى مساء لذيذ موتى فجأة على مسرح التمثيل فى صيحة هائلة من صيحات الجزع فان الشيخوخة أثقل من أن تحتمليها ، وإذا كان لديك من الوقت ما يمكنك من التفكير قبل أن تنغمسى فى الليل الأبدى فاحمدى كما يفعل مسيو « رينان » العلة الأولى الخفية ، لعلك لم تكونى من أشد النساء فى هذا العصر حكمة واعتدالا ، ولكنك عشت أكثر مما عاشت جماعات ضخمة وكنت من أجمل مظاهر الظرف التى أطافت بالناس فأحسنت عزاءهم فى هذا العالم المتغير ، عالم الظواهر الطبيعية . . . .

باريس فى أول ابريل سنة ١٩٢٣

٣

بينيلوب

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم

ولكنه لم يكن طيف هند ولا عبده ، لم يكن طيف عربية ولا مصرية ولا أوربية ، وإنما كان طيف امرأة بقى اسمها فى ذاكرة الانسانية ، وذهبت بشخصيتها الغير والاحداث ، ولعلها لم توجد قط ، ولعل التاريخ لم يعرف من أمرها قليلا ولا كثيرا ، ومع ذلك فقد قضيت الليل أفكر فيها بل أسمع الى حديثها ومناجاتها ، هادئة مرة ثائرة مرة أخرى ، يملؤها الحنان حينا ، وتملكها الوحشية حينا آخر ، قضيت الليل أفكر فيها وأسمع لاحاديثها ونجواها حين كانت تتحدث إلى خدمها ، وحين كانت تتحدث الى عشاقها ، وحين كانت تتحدث الى مرضع زوجها ، وحين كانت تناجى الآلهة متلطفة آنا ومحنقة آنا آخر ، ثم حين كانت تناجى خيال زوجها الغائب وتتحدث الى زوجها وقد آب بعد غياب طويل . قضيت الليل أفكر فيها واستمع لحديثها ، وأعجب بقدرة الفن — لا أقول على إحياء من مات وتجديد

obeikandi.com

ما اندثر — بل على خلق مالم يوجد والتخييل إليك أنه قد وجد وأثر فى الحياة آثارا أبقى من أن ينالها الفناء ، لم يكن هـذا الطيف طيف عربية ولا مصرية ولا أوروبية ، وانما كان طيف يونانية ، كان طيف « بينيلوب » زوج « اوليس » (Ulysse) بطل « الاودسا »

سمعتها أمس فى دار من دور الموسيقى ، « فى الاوبرا كوميك » (Opéra - Comique) تتغنى عشقها ولوعتها وحزنها لبعد من أحبت وجزعها لقرب من كرهت ، ففتنت بها ولم أفارق صوتها ولا عواطفها طوال الليل وجزءاً غير قليل من النهار

لست أدرى أقرأت « الاودسا » أم لم تقرأ ، وأنا أسمح لنفسى بهذا الشك لانى أعلم علم يقين وتجربة أن الأدب اليونانى سىء الحظ فى مصر ، وأن سوء حظه قد بلغ من الشدة الى حيث لانستطيع تقديره أو تقدير عواقبه السيئة ، نجهل الأدب اليونانى — لا أقول جهلا تاما — بل أقول جهلا فاحشا مخزيا لا يليق بقوم يحبون الحياة أو يطمعون فيها ، نجهل هذا الادب جهلا فاحشا بحيث نستطيع أن نحصى المصريين الذين يعلمون ما « الاودسا » وما « الالياذة » ومن « أوليس » ومن « بينيلوب » ، ومع ذلك فقد كانت « الاودسا » « والالياذة » وما زالتا وستظلان دائما ينبوع الحياة للأدب والفن :

للشعر والنثر والنحت والتصوير والتمثيل والموسيقى ، بليت القرون ولم تبل « الالياذة » « والادسا » فنيت الأمة اليونانية وفنيت الأمة الرومانية واختلفت العصور والظروف على أوربا ، فى العصر المتوسط وفى العصر الحديث ، وستفنى أمم وتختلف عصور وظروف ، وتظل آيات « الالياذة » « والاودسا » جديدة خالدة محتفظة بقوتها وبهائها ورونقها على وجه الدهر وتعاقب الاحداث ، ولا نكاد نحن نفترض وجود « الالياذة » « والاودسا » فاذا افترضنا وجودهما فلا نكاد نعلم بشىء مما فيهما .

إلى هذا الحد وصلنا من الجهل بمصدر الحياة للأدب والفن ، ويظهر أنا إذا لم نستطع أن نمعن النظر فى هذا الجهل أكثر مما أمعنا فليس وراء هذا الحد مطمع لمن يحب الجهل ويرغب فيه ، أقول اذا لم نستطع أن نمعن فى هذا الجهل أكثر مما أمعنا فيظهر أنا لا نريد ولا نحاول أن نخلص منه قليلا أو كثيراً ، يظهر انا سنظل على ما نحن فيه من جهل الأدب اليونانى والفن اليونانى ، لانا نرى كل شئ يتغير فى مصر ، ونرى الرقى تناول كل شئ الا التعليم ، فهو بحمد الله باق حيث كان ، لأن المشرفين عليه لا يفكرون فى تغييره ، ولعلهم غير قادرين على أن يفكروا فى تغييره ، سيظل تلاميذنا يخلطون بين أتينا وصقلية كما يخلطون بين الاسكندر وهانيبال

obeikandl.com

ولكنى بعدت عن هذا الطيف الذى أرقت له آخر الليل بعد أن طربت له أول الليل . . . قلت إن « الأودسا » و « الالياذة » كانتا ومستظلان ينبوعاً للحياة الأدبية والفنية ، فقد ألهمتا شعراء اليونان على اختلاف فنونهم وأساليبهم ، وألهمتا الفنيين من اليونان بل ألهمتا فلاسفة اليونان وكذلك صدر عنهما شعراء الرومان ، وكذلك صدر عنهما وما يزال يصدر عنهما شعراء الأفرنج منذ القرن السابع عشر إلى ما شاء الله . ولقد كانت القصة الموسيقية التى شهدتها أمس أثرا من آثار « الأودسا » اجتمع فيه جمال الشعر وجمال الموسيقى وجمال الغناء وجمال الفن الآلى فى التمثيل ، فكنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين تسمع أصوات الآلات الموسيقية وألحانها واختلاف نغمها الذى كان يرق حتى لا يكاد يسمع وكان يغلظ حتى يكاد يصم السامعين ، وكنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين تسمع هذه الأصوات الانسانية العذبة الرخيمة تمازج نغم الموسيقى متغنية بهذا الشعر الجميل الرقيق الذى يمثل أرق العواطف الانسانية وأصدقها وأدناها من الوفاء والحب والاخلاص ، وكنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين تسمع هذا كله وتنظر إلى مسرح التمثيل فترى هذه الجزيرة اليونانية القديمة كما وصفتها « الأودسا » فى جمالها القديم الرائع الذى يزيده بهجة وسحراً ما اتخذ الممثلون من أزياء وما اصطنعوا

openkandil.com

من انية ومتاع . كنت تجد لذة لا تعدلها لذة حين كنت تسمع ماتسمع وترى ماترى ، ولم يكن ينغص عليك هذه اللذة إلا أنها كغيرها من جميع لذات الحياة قصيرة محدودة المدى لن تتجاوز ساعة أو ساعتين . ذلك فيما أعتقد أخص ماتمتاز به اللذة الحقيقية التي تملك عليك نفسك وعواطفك وتسحرك السحر كله .

تمتاز هذه اللذة بأنك تشعر ـ حين تشعر بها ـ بشيء من الحزن يصاحبها ، لأنها ستنقضى بعد حين طويل أو قصير ، وأنت تحب ألا تنقضى وأنت تود لو كانت خالدة ، أو لو انقضت بانقضائها الحياة .

اشترك فى هـذه القصة الموسيقى الفرنسى « جبرئيل فوريه » Gabriel Fauré والشاعر الفرنسى « رينيه فوشو » Renée Fauchois ومثلت منذ عشرسنين فأعجب بها الجمهور ، وابتهج لها الناقدون ، ولـكنهم لم يجرءوا على أن يحكموا لها أو عليها ، ذلك لأن فيها شيئاً من الغرابة كثيراً . فهى لاتمثل الحياة فى عصر نفهمه فهماً يسيراً سهلا . وإنما تمثل الحياة فى عصر بعيد منا كل البعد ، بل لعل هـذا العصر لم يعرفه التاريخ . وإذن فليس من اليسير أن يصدق تمثيلها للحياة وليس من اليسير أن نحسها نحن كما نحس الحياة التى نحياها بحيث تتأثر لها نفوسنا ، وتهتاج لها عواطفنا ، فتبعث فينا ضروب الاحساس والشعور التي تبعثها فينا الحياة الواقعة

تردد الناس فى الحكم لهذه القصة أو عليها ، ولكن كانت الحرب العظمى فهزت النفوس والعواطف ، وسهلت على الناس فهم هـذا الشعر القصصى القديم الذى مثل ما أصاب الانسان من محن فاحسن تمثيله ، وصور ما اختلف على حياة الأفراد والجماعات من أحداث فأجاد التصوير . فلما استؤنف تمثيل هـذه القصة لم يتردد أحد ، ولم يشك إنسان ، وإنما ظهر الاعجاب صريحاً قوياً لايعدله إعجاب ، فأجمع الناقدون على أن هذه القصة آية من آيات الموسيقى الفرنسية ، وكان يكفى أن ترى الجمهور أمس لتعلم أن الناقدين لم يخطئوا ولم يسرفوا .

عزيز على أن أجهل الموسيقى ، وأن يضطرنى هذا الجهل إلى ألا أتحدث إليك بجمال هذه القصة من الوجهة الموسيقية . ولكنى إذا جهلت الموسيقى وعجزت عن الحديث فيها ، فانى أحسها وأشعر بهـا وأستطيع أن أعلم أنى سمعت شيئاً طربت له ، أو سمعت شيئاً نفرت منه ، وأشهد أني لم أنفر أمس بل أنى لم أطرب أمس وإنمـا سحرت سحراً ليس فوقه سحر . . . أشهد أنى لم أكن أشك حين كنت أسمع هذه الموسيقى أنى فى جزيرة « إيتاك » وأنى بمحضر من أولئك الابطال القدماء ، بل أشهد أنى حين كنت أسمع هـذه الموسيقي لم أكن فى حاجة شديدة إلى أن يصف لى واصف ما يمثله المنظر من

هذه الجزيرة المشرفة على البحر التى يغمرها هواء رقيق ناعم شفاف ، والتى تزدان بكثبانها وتلالها الصغيرة تهبط إلى البحر متدرجة قليلا قليلا ، نعم لم أكن فى حاجة شديدة إلى أن يوصف لى المنظر ، لأن الموسيقى كانت تغنينى عن هذا الوصف ، فكنت أحس فى الموسيقى القرب من البحر ، وكنت أسمع فى الموسيقى أمواج البحر تضطرب وتصطخب رقيقة حيناً كأنها حديث العاشقين ، غليظة حيناً آخر كأنها قصف الرعد ، وكنت أجد فى الموسيقى رقة الهواء ونعومته ، وكنت أسمع هذه الموسيقى فلا أشك فى أن الجو كان صافياً رائقاً أو أنه كان كدراً يهيىء للعاصفة ، كنت لا أشك في شيء من هذا ، وكنت لا أشك فى شىء آخر هو أجل من هذا خطراً وأعظم شأناً ، كنت لا أشك فى أن هذه القطعة الموسيقية تمثل مايحدث فى نفسى الآن من اضطراب العواطف واصطخابها وما يقع بينها من تنازع ومشادة ، وكنت لا أشك فى أن هذه القطعة الأخرى تمثل الضعف الذى ليس بعده ضعف ، تمثل هذا الضعف الذى يسلبك كل قوة على المقاومة ويجعلك غير قادر إلا على أن تفتح جفنيك لتسقط منهما قطرات الدمع متتابعة منهمرة ! وكنت لا أشك فى أن هذه القطعة الأخرى تمثل الغيظ والحنق ، هذا الغيظ الذى تنقبض له أعصابك ، فاذا جبينك مقطب ، وإذا الدم يغلى فى رأسك ، وإذا أنت قد أطبقت

يديك ، وإذا أنت تقاوم هذا الميل الشديد الذي يدفعك إلى أن تثب وتهجم على فريستك ، لم أكن أشك في شيء من هذا لأني كنت أحسه وأتنقل فيه من طور إلى طور ، بل هناك ما هو خير من هذا ، هناك هذه القطع الموسيقية التي تبعث في نفسك شيئاً من الحنان والرحمة ومن الطمأنينة والدعة لا أستطيع أن أصفه ، ولا يستطيع إنسان أن يصفه لأن وصفه لم يتح الجمل والألفاظ ، وإنما أتيح للأنغام والألحان وحدها ، ولكني عاجز كما قلت عن أن أصف جمال هذه القصة من الوجهة الموسيقية .

أفتريد أن أصف جمالها من الوجهة الأدبية ؟ لقد كنت أحب ذلك وأرغب فيه ، ولكن أليس خيراً من هذا الوصف الذي لا يمكن إلا أن يكون موجزاً مختصراً أن ترجع إلى هذا الجمال في أصله ، وأن تستقيه من ينبوعه ، فتقرأ النشيد الرابع والعشرين من « الأودسا » تجد في هذا النشيد قصر الملك « أوليس » قد غاب عنه صاحبه منذ عشر سنين لأنه ذهب إلى «ترواده» وانتصر فيها ، فلما أراد العودة الى بلده عبث به وباسطوله « بوزيدون » اله البحر فأضله الطريق ، وأخضعه لطائفة من المحن ، وبينما كان الملك وأصحابه يخضعون لعبث « بوزيدون » وغيره من الآلهة ، كانت الملكة « بينيلوب » تنتظر زوجها في لوعة وحسرة ، وفي حب ووفاء ، وكانت طائفة من زعماء

اليونان قد احتلت قصر الملك وأخذت تعبث بما فيه ومن فيه فتأ كل شاء الملك وثيرته ، كما تقول القصة ، وتشرب خمره ، وتعبث برقيقه وتلح على الملكة فى أن تختار من بينها رجلا يكون لها زوجاً فيخلف « أوليس » على ملك « ايتاك »

كانت هذه الطائفة تلح وكانت الملكة تقاوم ، فلما أعيتها المقاومة أخذت تراوغ فأعلنت إلى هؤلاء الزعماء أنها ستختار من بينهم زوجاً إذا فرغت من نسج كفن ، أخذت نفسها بنسجه لابى زوجها ، وقبل الزعماء منها ذلك ، فأخذت تنسج الكفن يومها حتى إذا كان الليل نقضت ما أبرمت ثم تستأنف النسج إذا أصبحت ، والنقض اذا أمست ، والزعماء ينتظرون و يعبثون بالقصر وما فيه ومن فيه

فاذا كان الفصل الأول من القصة ظهر خادمات القصر يغزلن و يتحدثن فيما بينهن ، وحديثهن لذيذ ، فهن يتغنين ماهن فيه من ألم وحرمان ، وهن يتغزلن بجمال الزعماء وترغب كل واحدة منهن فى واحد منهم ، وهن يرثين للملكة و ينكرن عليها غلوها فى الوفاء ، وإنهن لفى ذلك إذ يقبل الزعماء يريدون أن يتحدثوا إلى الملكة ، وتأبى الخادمات إنباء الملكة بمكانهم ، لأنهن لايستطعن أن يدخلن عليها إلا إذا دعين ، و بينما الزعماء فى حوار مع الخادمات تقبل مرضع الملك فتمانعهم ، و يكون بينها وبينهم حوار ومسابة ، ثم تقبل الملكة

فيشتد الخلاف بينها و بين الزعماء ، تهينهم وتنعى عليهم وهم يتملقونها و يتلاطفون بها ، تمانعهم وتأبى عليهم ما يريدون وهم يلحون عليها فى أن تسرع فتختار من بينهم زوجاً ، ثم يقدم شيخ رث فان يطلب الصدقة والمأوى ، فينبذه الزعماء وتؤويه الملكة ، وهذا الشيخ هو « أوليس » قد وصل إلى جزيرته وأمرته الالهة « أتينا » أن يتنكر و يحتال فى طرد الغاصبين والانتقام منهم ، لا تعرفه الملكة ولكن المرضع تعرفه وتعاهده على أن تخفى أمره ، ينصرف الزعماء و ينصرف الشيخ إلى طعامه ، وتبقى الملكة وحدها فتنقض مانسجت ، ولكن الزعماء كانوا قد رصدوا لها فاستكشفوا حيلتها فيغيظهم ذلك و يعلنون إلى الملكة أن الغد لن ينقضى حتى تكون قد اختارت لها زوجا ، ثم ينصرفون وتخرج الملكة ومرضع الملك ، لتذهبا إلى شاطىء البحر كما اعتادتا منذ سنين ترقبان سفينة ما لعلها تقبل وعلى ظهرها الملك ويتبعهما الشيخ . فاذا كان الفصل الثانى رأيت رعاة الملك يتحدثون فيما بينهم ، و يتمنى بعضهم لبعض ليلا سعيداً ، و يتغنون جمال الطبيعة وسحرها ، ثم تقبل الملكة ومن معها فيكون بينها و بين الشيخ حديث بديع يظهر فيه ما يضمر الزوجان من حب ووفاء ، ومن لهفة ولوعة ، ولكن الملك يخفى نفسه ، فاذا سئل عن أمره أخبر بغير الحق واتخذ هذا الأخبار وسيلة إلى التعزل بزوجه من طرف خفى ، ولكن فى جمال

ورقة وحسن مدخل ، ثم تجزع الملكة إشفاقاً من غد فيقترح عليها الشيخ أن تعلن إلى الزعماء أنها ستختار من بينهم من يستطيع أن يشد قوس « أوليس » ، ثم تنصرف الملكة ويتعرف الملك بعد ذلك إلى رعاته ويأمرهم أن يكونوا فى القصر غداً وأن يتخذوا السلاح ليعينوه على الانتقام ، فاذا كان الفصل الثالث رأيت الملك وحده يتغنى غضبه وسخطه وحرصه الشديد على الانتقام ، ثم يكون بينه وبين مرضعه ورعاته أحاديث قصيرة ثم يقبل الزعماء وقد تهيؤا للقصف واللهو ، فيسخرون من الشيخ ويريدون طرده ، ثم يبدو لهم فيتخذونه سخرية يسقونه ويضحكون منه ، ويظهر الشيخ أنه سكران ، وتقبل الملكة فتعلن اليهم أن من شد قوس « أوليس » ورمى عنها فهو زوجها ، فيعجزون جميعاً ويتقدم الشيخ الفانى إلى القوس فيشدها ويرمى عنها ولكن فى صدر أحد الزعماء ، هنا يظهر الملك نفسه وينتقم لشرفه وثروته وملكه ، يعينه الرعاة على هذا ، ثم تنتهى القصة بمظهر الحب والغبطة بينه وبين الملكة من جهة ، وبينه وبين الشعب من جهة أخرى

فأنت ترى أن ليس فى القصة شىء غريب وأنها من السذاجة والسهولة بحيث تلائم القرن التاسع أو العاشر قبل المسيح أيام أنشئت « الالياذة » و « الأودسا » ولكنى أضمن لك لذة عظيمة اذا قرأت

openkandil.com

هذه القصة ، ولذة لا حد لها إذا قرأتها فى « الاودسا » فأما إذا شهدت القصة الموسيقية فى « الاوپرا كوميك » فلست أدرى ماذا أضمن لك ، وإنما أحدثك صادقاً بأنى قضيت ليلة سعيدة كنت أحسبنى أثناءها فى عالم آخر ، ولم أتنبه إلى أنى فى الأرض إلا حين سمعت ابنتى تتغنى وتصيح ورأيت ابنى يعبث بما حوله وسمعت أمه تزجره وتنهاه

باريس في ٤ مايو سنة ١٩٢٣

obeikandl.com

٤

شك ويقين

قوم يشكون فيغلون في الشك ، وقوم يوقنون فيسرفون في اليقين ، وأولئك وهؤلاء معرضون للخطأ الشديد ، ومخاصمون للعلم الصحيح ، الشاكون مخطئون ومخاصمون للعلم لأنهم ينكرون أنفسهم وينكرون العلم ، والموقنون مخطئون ومخاصمون للعلم لأنهم ينكرون التطور الذى هو قوام الحياة ، ولكن أولئك وهؤلاء معذورون لأنهم لا يختارون الشك ولا يختارون اليقين ، وأحسب أنهم إنما يشكون أو يوقنون لأن أمزجتهم قد ألفت بحيث تستتبع الشك أو اليقين ، بل أحسب أن لما نأكل وما نشرب وما نحس ، بل وللهواء الذى نتنسمه ، والجو الذى نعيش فيه ، والكتاب الذى نقرؤه ، والخطبة التى نسمعها ، أثرا فيما يعرض لنا من شك أو يقين .

زعم بعض الكتاب أن أبا العلاء إنما شك لأنه أسرف فى أكل العدس والزيت ، فساء هضمه ، وتبع ذلك سوء رأيه فى الحياة ، قد يكون هذا حقا ، وقد يكون هذا باطلا ، ولكنى لا أشك فى أننا

مدينون بأطوارنا العقلية لهذه المؤثرات الكثيرة المختلفة التى تكتنفنا سواء منها المادى والمعنوى

حدثتك فى مقال مضى بهذه المحاورة التى شهدتها فى المؤتمر حول وجود سقراط والشك فيه ، ولقد قرأت اليوم شيئا أغرب وأدعى الى العجب من الشك فى سقراط

قرأت أن هناك عالما فرنسيا من علماء الفلك المعروفين قد كتب فى هذه الايام الاخيرة كتابا سماه « مملكة السموات » وفى هذا الكتاب الذى يقال إنه ممتع جداً فصل يبحث فيه المؤلف عن حركة الارض ، ويثبت فيه أن من المستحيل أن تثبت بطريقة علمية قاطعة أن الارض تدور . . . اذن فنحن لا ندرى من شأن الأرض شيئا ، أدائرة هى أم ساكنة ، وكل هذه الادلة الكثيرة المختلفة التى جمعها العلماء منذ حوكم « جاليله (Galilée) الى الآن ليثبتوا بها أن الارض تدور ، كل هذه الادلة فاسدة أو غير منتجة ؛ بل يذهب الاستاذ « نورمان » (Nordmann) صاحب الكتاب المذكور ، الى أبعد من هذا جداً ، فيزعم أن دوران الارض شىء ليس الى إثباته أو نفيه من سبيل ، وإذن فقد قضى علينا أن صحت آراء الاستاذ « نورمان » أن نجهل أبداً شأن الارض فلا نعلم أساكنة هى أم دائرة ، سنقول وأى شىء يصيبنا إن علمنا

بأن الأرض دائرة أو ساكنة أو جهلنا دورانها وسكونها ؟ ربما لم يصبنا شيء ، فسنأكل ونشرب وننام ونستمتع باللذات ونتجرع مرارة الآلام سواء أكانت الأرض ساكنة أم دائرة ، ولكن ماذا تقول فى أولئك العلماء الذين يبحثون عن العلم للعلم ، لا تعنيهم نتائجه العملية والذين يموت أحدهم غماً إذا ظهر خطؤه فى رأى من الآراء أو نظرية من النظريات .

كنت أقرأ فى أعداد « السياسة » الاخيرة محاضرة صاحب الفضيلة أستاذنا الجليل الشيخ محمد بخيت فى الرد على « رينان » ، فرأيته يبذل كل ما يستطيع من قوة وجهد وينفق علمه الواسع العميق ليثبت أن الاسلام دين العلم ، بل ليثبت شيئاً آخر غير هذا وهو أن القرآن الكريم لا يناقض بلفظه ولا بمعناه أصلا من أصول العلم الحديث ، بل هو فوق هذا يشتمل على أصول العلم الحديث ، ورأيت الاستاذ يستنبط من القرآن الكريم كروية الارض وحركتها حول الشمس وحول نفسها واختلاف الفصول واختلاف الليل والنهار فأعجبت بهذا الجهد العنيف الذى لامصدر له إلا البر والتقوى .

ومن قبل ذلك قرأت أشياء كثيرة للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله حاول فيه مثل ماحاول الأستاذ الشيخ محمد بخيت . والناس

فى مصر وفى الشرق يعجبون بمثل هذه المحاولة ، لأنها تظهرهم فى منزلة من الحضارة ليست أقل ولا أدنى من منزلة الأوربيين الذين اخترعوا العلم الحديث . وإن كنت أنا لا أحب هذه المحاولة ولا أتكلفها وربما كرهتها ونفرت منها ، لأنها تفسد النصوص وتحمل على الغلو فى التأويل . كنت إذن أقرأ محاضرة الأستاذ الشيخ بخيت وأعجب بها ، فلما قرأت ما قرأت اليوم تحدثت إلى نفسى بما يأتى :

لو صح ماذهب اليه الأستاذ « نورمان » وأقره العلماء وأصبح الاجماع منعقداً على أن الأرض لاتدور كما كان منعقداً على ذلك منذ قرون وحين أنزل القرآن الكريم ، فأين يذهب هذا الجهد العنيف الذى بذله الأستاذ الشيخ بخيت والأستاذ الشيخ محمد عبده ليثبتا أن القرآن يدل على أن الأرض تدور ؟ وهل يبذل الأستاذ الشيخ محمد بخيت وخلفاء الأستاذ الشيخ محمد عبده جهداً عنيفاً ليثبتوا أن القرآن يدل على أن الأرض لاتدور ؟ وإذن فكيف نستطيع أن نفهم دلالة القرآن على أن الأرض تدور وعلى أن الأرض لاتدور ؟

ليس هناك من شك فى أن المسلمين فى العصور الأولى كانوا يعتقدون أن الأرض لاتدور ، وأن القرآن يدل على أنها لاتدور ، لأن الاجماع كان منعقداً يومئذ على أنها لاتدور ، ثم جاء علماء

أوربا وشياطينهم فزعموا أن الأرض تدور ، وكانت حرب بينهم وبين عامة الناس وزعماء الديانات ، ثم انعقد الاجماع على أن الأرض تدور ، وجاء قسيس من دعائم « الفاتيكان » الذى حكم على « جاليله » فجمع أدلة لاتحصى على أن الأرض تدور ، ثم جاء الأستاذ « نورمان » وشيطانه فزعما لنا أن الأرض قد لا تدور ، وربما جاء العلماء وشياطينهم فأقروا صاحبنا وشيطانه على أن الأرض لا تدور أو على أنه من المستحيل أن نجزم بأنها تدور أو بأنها لاتدور ، وإذن ! وإذن فما قيمة الشك وما قيمة اليقين وما قيمة العلم وما قيمة النص وما قيمة التأويل ؟ أليس من الخير ألا نغلو فى الشك ولا نغلو فى اليقين ؟ أليس من الخير أن نكتفى بالترجيح ؟ ثم أليس من الخير ألا نحمل نصوص القرآن وغير القرآن من الكتب الدينية أوزار الشك وأوزار اليقين وهذه النتائج الكثيرة المختلفة المضطربة المتناقضة التى تنشأ عن أمزجتنا المختلفة المضطربة المتناقضة والتى تنشأ عما نأكل وما نشرب وما نرى وما نسمع وما نحس ؟ أليس من الخير أن نجعل القرآن الكريم وغيره من الكتب الدينية فى حصن مقدس منيع لاتصل اليه أبخرة العدس والفول والزيت والطعمية وغير ذلك مما نأكل لنهضمه مرة ولا نهضمه أخرى ، وينشأ عن سهولة الهضم وعسره حسن تفكيرنا أو سوءه . اللهم

obeikandl.com

إنى أعتقد أن الأرض قد تدور وقد لاتدور ، وأنها قد تكون كرة أو سطحاً أو كمثرى ، وأن الزمان قد يوجد وقد لا يوجد ، وأن المكان قد يوجد وقد لا يوجد ، وان « نيوتن » (Newton) قد يصيب وقد يخطىء ، وأن « انستين » (Enstein) قد يحق وقد يبطل . كل هذا ممكن ولكن هناك شيئاً لا أحب أن يحتمل أوزار هذا الامكان وهذا التناقض وهذا التردد ، وهو القرآن وغير القرآن من الكتب الدينية ، إنا لنحسن الاحسان كله إذا رفعنا الدين ونصوصه عن اضطراب العلم وتناقضه ، فماذا يرى العلماء ؟

باريس فى ٢٧ ابريل سنة ١٩٢٣

obeikandl.com

٥

العلم والثروة

فى مصر أغنياء كثيرون ولكن معظمهم أشد بؤساً من الفقراء المعوزين ، لأنهم لايفقهون الثروة ولايقدرونها ، ولايفهمون ماينبغى أن توجد هذه الثروة من صلة بينهم وبين مواطنيهم وهم أغنياء ، وكل حظهم من ثروتهم أن يأكلوا كثيراً ويستمتعوا بلذات مادية لا تتجاوز الحس إلى القلب أو إلى العقل . ثروتهم مقصورة على أجسامهم فان وصلت إلى نفوسهم فهى لا تمس منها إلا موضع الضعف والغرور ، تمس الفخر والتيه ، تمس العجب والخيلاء ، لكنها لا تمس الذكاء ولاتمس عاطفة الرحمة بالبائس ، ولاتمس عاطفةالاعانة على الخير .

فى مصر أغنياء كثيرون ولكنهم أشد بؤساً من الفقراء المعوزين . لا ينتفعون بثروتهم أحياءاً ولا ينتفع الناس بثروتهم بعد موتهم . هم لا يملكون الثروة وإنما يحملونها على ظهورهم لينقلوهامن جيل إلى جيل . يحملون الثروة عن آبائهم لينقلوها الى أبنائهم ليعبروا بها النهر وكثيراً ما تنوء بهم هذه الثروة فتغرق ويغرقون معها ، ولا يظفر أبناؤهم منها إلا بالتعس والبؤس وسوء الحال .

في مصر أغنياء كثيرون ولكنهم في الحق فقراء معوزون !

وفي أوربا أغنياء ولكنهم أبعد الناس عن الفقر. وأدناهم إلى الغنى حقاً لأنهم يفهمون الثروة ويحسنون الانتفاع بها في حياتهم الخاصة وفي حياة أممهم ومدنهم وقراهم وأسرهم . فهم يتمتعون بالثروة حقاً ، يجنون منها لذة الجسم، ولذة القلب، ولذة العقل . بل يجنون منها اللذة الصحيحة في الحياة وتخليد الاسم بعد الموت . ينفعون وينتفعون ليسوا عالة على قومهم ، وليس قومهم ، عليهم عالة . إنما هم يفهمون أن الثروة أداة من أدوات المنفعة العامة المشتركة التي ينبغي أن يستمتع بها الناس جميعاً ، كل على القدر الذي يتاح له . هم يملكون الثروة ويحسنون التصرف فيها لا يشترون بها الطعام والشراب واللباس فحسب ، وإنما يشترون بها أيضا الحب والعطف والاجلال وحسن الاحدوثة في الحياة وبعد الموت . ليسوا أنعاما ينقلون أثقال الثروة من جيل إلى جيل وإنما هم ناس يملكون الثروة ويستثمرونها فيفيدون ويستفيدون. ليسوا عبيداً للمادة ، وإنما هم سادتها يملكونها ويسخرونها لحياة الانسان والترفيه عليه .

اقرأ في جريدة « الطان » أن رجلا أهدى إلى جامعة باريس عشرة ملايين لاقامة حي خاص يسكنه الطلبة الذين يدرسون في هذه الجامعة بحيث يتاح لهؤلاء الطلبة أن يعيشوا في منازل صحية

يجدون فيها ما يمكنهم من الدرس النافع بين ضروب الراحة والنعيم .
واقرأ فى جريدة « الطان » أن امرأة أوصت بثروتها كلها لجامعة باريس وثروتها تكاد تبلغ الخمسة عشر مليونا . واقرأ فى جريدة « الطان » أن هذه المرأة قبل أن تموت أهدت إلى كثير من الجامعات مقادير مختلفة من المال وأنها أهدت مرة إلى جامعة باريس مقداراً من المال تنفقه فى طبع الرسائل التى يقدمها الطلبة الفقراء لنيل الدكتوراه . وأهدت مرة أخرى إلى جامعة باريس ما يمكنها من انشاء درس لأدب القرن الثامن عشر وتاريخه . وأن امرأة أخرى أهدت إلى جامعة باريس ثروة تغل عليها (٣٥ ر ٠٠٠) فرنك في السنة لترقية البحث عن « الراد يوم » فى الطب . وأن رجلا ترك لها نصف مليون . وأن أستاذا فى مدرسة ثانوية ترك ثروته التى تبلغ (٧٦ ر ٤٠٨) فرنكا لاعانة طلبة التاريخ الحديث ، وأن امرأة تركت مليونا لاعانة المؤرخين على بحثهم التاريخي . واقرأ فى الصحف المختلفة أن دور التمثيل والموسيقى ومنازل اللهو واللعب قد خصصت جزءاً من دخلها فى يوم من الأيام لاعانة العلماء على تأسيس المعامل العلمية المختلفة . بل اقرأ ما هو أغرب من هذا . اقرأ تعاون الفقراء والمعوزين وافتنانهم فى جمع المقادير المختلفة من المال لاعانة العلماء على تأسيس المعامل وتكميلها . واقرأ فى الوقت نفسه مقالات طويلة مرة

ملؤها السخط والغضب والغيظ ، لأن العلماء يشكون فقر المعامل ونقصها ويستعينون الجمهور فلا يعينهم ولا يمنحهم من المال ما ينبغى أن يمنحهم . هذا الجود وهذا البذل اللذان أشرت اليهما فى أول هذه الكلمة لا يرضيان ولا يقنعان ومع ذلك ففقر العلم فى فرنسا اضافى جداً لأن الدولة والأفراد والجماعات يخصونه بعناية عظمى ، وآية ذلك ما وصلت اليه فرنسا من الرقى العلمى الذي لا يزال مطمح أمم كثيرة فى أوربا بعد .

كتبت فى غير هذا المقال منذ أشهر أن العلم مهما اشتد غناه وعظمت ثروته فهو فقير محتاج إلى المعونة لأنه يحيى ، وحاجة من عاش لا تنقضى ، فسيظل العلماء يشكون وسيظل الناس يبذلون . هذا فى فرنسا ، أما فى مصر فالثروة كثيرة ضخمة تنوء بالأغنياء ، ولسنا نستطيع أن نذكر فقر العلم أو حاجته إلى المعونة لأنا لا نستطيع أن نذكر العلم فى مصر ، فليس لمصر علم وإنما هى فى علمها عالة على أوربا وأمريكا تستعير منها كل شيء ، وهى لا تحسن الاستعارة ولا تستطيع أن تستعير منهما ما هى فى حاجة اليه أو جزءاً موفوراً مما هى فى حاجة اليه ، لأنها لا تجد من المال ما يمكنها من أن تستعير هذا المقدار العلمى الذى هي محتاجة اليه لتعيش ، أما إذا احتاجت إلى السيارات والدراجات والحلى وفاخر اللباس وبديع الأداة والآنية ، فما

أكثر المال وما أيسر البذل ، هنا تظهر ثروة الأغنياء ويظهر سخاؤهم فتكثر فى مصر هذه الأدوات المختلفة التى يفيد قليلها ويضر كثيرها . نعم ، نحن أغنياء أجواد إذا احتجنا إلى متاع الدنيا ، فأما اذا احتجنا إلى غذاء العقل والقلب ففقرنا لا يعدله فقر . هنالك علوم مزهرة فى أوروبا وأمريكا ونحن لا نسمع بها فى مصر ، إما لأننا لا نحاول أن نسمع بها ، وإما لأننا نضع أصابعنا فى آذاننا حتى لا نسمع بها فنحتاج إلى أن ننفق المال فى جلبها إلى بلادنا . ولكنى واثق بان لونا من ألوان البدع فى الحلى أو الملابس أو السيارات أو الأزرار لا يكاد يظهر فى باريس أو فى نيويورك حتى نسمع به ، ونرغب فيه ، ونتهالك عليه . والنتيجة أننا فى حياتنا الظاهرة كأرقى الشعوب مدنية وحضارة ، وربما كنا أفخر لباسا وزينة من أغنياء باريس ونيويورك ولندرا فاذا رآنا الأوربي خيل اليه أننا ناس مثله نلبس كما يلبس بل خيرا مما يلبس ، ونزدان كما يزدان بل خيرا مما يزدان ، ونتصرف فى فنون الحياة المادية كما يتصرف بل خيرا مما يتصرف : يحسبنا مثله إذا رآنا ولكنه لا يكاد يمتحننا ويخبرنا حتى يشعر بان وراء هذه الزينة وهذه المظاهر الفناء أو شيئا يشبه الفناء ، وماذا تريد من قوم يجلبون من أوربا كل ما ييسر عليهم الحياة المادية ويمكنهم من الاستمتاع بلذاتها المادية ، فاذا ذكر العلم والادب والفن هزوا الرؤوس والاكتاف ، بل هم

يفعلون شرا من هذا ، فالعلم فى بلادهم ولكنهم يعمون أو يتعامون عنه ، لا يرونه ولا يشعرون به ، ويحسه الاوربيون والامريكيون على بعد الشقة فيسعون اليه ويحملونه الى بلادهم، حتى اذا نبه منا نابه فاحس كما يحس الناس ، واشتاق إلى ما يشتاق إليه الناس، وأراد أن يكون مصريا يعرف مصر كما يعرف الفرنسي فرنسا ، اضطر إلى أن يبحث عن مصر فى باريس أو لندرا أو برلين ، ياللخزي ! بل قد يحتاج إلى أن يبحث عن مصر فى أثينا !!!

لقد قلنا هذه الأشياء وقلناها وسنقولها ونقولها ، فلم يحفل بنا أحد ولن يحفل بنا أحد ، اللهم إلا جماعة الراغبين اليائسين وهم قليلون ، فأما القادرون على أن ينفعوا ، فأما القادرون على أن يفيدوا بلادهم فهم عن النفع والفائدة فى شغل . وما أنت والعلم تحدثهم به وتثقل عليهم فيه وهم أرغب فى هذا المتاع الباطل الذي يبهر العين ويخلب النظر ويحمل فلاناً على أن يقول : لقد رأيت سيارة فلان فأعجبتي ولأشترين مثلها ، رأيت ثوب فلان فراقنى ولأصطنعن مثله ، فأما أن يقول الناس : لقد رأينا عالماً مصرياً أو أديباً مصرياً أو فنياً مصرياً يروقنا أن يكون لدينا مثله ، فذلك شيء لا يخطر لأغنيائنا على بال ، ولقد أكتب هذه الكلمة وأنا أثق الثقة كلها بأن كثيراً من أغنيائنا سيقرءونها وينالون كاتبها بالسخط والنعي لأنه يحدثهم بما لا خير فيه

لدينا جامعة أنشئت منذ خمس عشرة سنة ، ولولا لطف الله بها لماتت ، على أنها ليست بعيدة من الموت ، ولقد أظهر أغنياؤنا ميلا شديداً إلى تأييد هذه الجامعة و إعانتها ، لأن ذلك كان بدعا يومئذ وكان فيه فخر للباذلين ، فلما انقضى البدع هبطت الرغبة ، وفتر الميل ، وحبس الذين بذلوا المال أموالهم فلم يعطوا ولم يفوا بما وعدوا أن يعطوا . لاتذكرالحرب فان الحرب لم تسىء إلى مصر ، ولم تنزل الفقر بأهلها ، ولقد أساءت الحرب إلى فرنسا فزعزعت ثروتها وخربت جزءاً عظيما منها ، بل زعزعت نظامها الاجتماعي فلم يزدها ذلك إلا حبا للعلم وتشجيعاً للعلم وإعانة للعلماء ، ولم يضع عليها من ذلك شيء فقد أتاح لها العلم أن تنتصر ، أما أغنياؤنا فقد ضاعف الله عليهم ثروتهم أضعافاً مضاعفة ، فلم يزدهم ذلك إلا ضناً وحبساً للمال عن وجوه الخير ، وتهالكا على اللذات المادية ، والحكومة والأفراد فى ذلك سواء فلست أنسى الوزارة النسيمية الأولى وما أنفقت من المال لاصلاح سيارات الحكومة فقد كان ذلك يكاد يبلغ نصف المليون من الجنيهات ، أما الجامعة فكانت الحكومة تعينها بألفى جنيه قبل أن تبلغ ميزانيتها عشرين مليوناً ، فبلغت هذه الميزانية أربعين مليوناً ولم تزد إعانة الجامعة وإنما أنذرت الجامعة مرات بقطع هذه الاعانة ! وكانت وزارة الأوقاف تمنحها معونة قدرها خمسة آلاف جنيه أيام

النظام القديم فلما أقبل النظام الجديد نقصت هذه الاعانة حتى بلغت ١٨٠٠ جنيه . ولست أدرى أفتقرت وزارة الأوقاف ولعل افتقارها كافتقار الحكومة المصرية ؟ ثم نحن نطلب الاستقلال نزعم أن ليس بيننا و بين أهل أور با فرق ، وأن من حقنا أن نستمتع بنظام الحياة الذى يستمتعون به ، وقد يكون هذا حقاً ولكن يجب أن نعترف بأن أهل أوربا وأمريكا لم يصلوا إلى حياتهم الراقية الحرة بالتهالك على السيارات والحلى وملابس الحرير وما يشبهها ، وإنما وصلوا اليها بالتهالك على العلم والرغبة فيه ، يجب أن نحمد الله على أن الدستور قد صدر فلئن يئسنا من الحكومة ومن الأفراد فلن نيأس من الأمة ممثلة فى البرلمان ، ويقيننا أن هذا البرلمان لن يغفر فى المستقبل لوزارة المعارف مثل هذه الأغلاط المنكرة : لن يغفر لوزارة المعارف ماوصلت اليه حال التعليم فى مصر من ضعف وفساد ، ولن يغفر لوزارة المعارف أن تظل مصر من الجهل والضعف بحيث توجد علوم لاتسمع بها مصر ولا يأخذ المصريون منها بنصيب .

باريس فى ١١ مايو سنة ١٩٢٣

القسم الثانى

obeikandl.com

أسبوع فى بلجيكا

١

مؤتمر العلوم التاريخية

كنا الفا أو نزيد على الألف ، كلنا يعني بالتاريخ أو بعلم أو فن من هذه العلوم والفنون التي يحتاج اليها التاريخ ، وقد اجتمعنا من أطراف الارض على اختلاف أوطاننا ، وأدياننا ، ولغاتنا ، ومناهجنا فى الحياة ، لا يجمع بيننا الا شىء واحد ، هو أننا نشتغل بالتاريخ أو بفن يتصل بالتاريخ .

كنا الفا أو نزيد على الالف ، وكنا مختلفين مؤتلفين ، مفترقين متفقين ، ولقد أريد أن أحدثك عن هذا المؤتمر ، ولقد أريد أن أحدثك عن هذا الاسبوع الذى قضيته فى بلجيكا ، ولكنى لا أدري كيف أحدثك ، لأني لا أدرى كيف ابدأ الحديث .

فى نفسى أشياء كثيرة ، كثيرة جداً ، أريد أن أتحدث بها إليك ، ولكنى أشعر بشىء من الاضطراب فى تنظيم هذه الأشياء الكثيرة وترتيبها وتقديم بعضها على بعض ، كل هذه الاشياء خليقة

أن تقال ، وكل هذه الاشياء جليلة الخطر . فلا تحدث اليك كما تلهمني المصادفة على غير نظام وفى غير ترتيب .

أشعر بأن كثيراً من المصريين سيسخرون من التاريخ والمؤرخين ، ومن المؤتمر والمؤتمرين ، لان التاريخ ليس من هذه العلوم التى تظهر فائدتها فى الحياة العملية اليومية ، وليس من العلوم التى تعين صاحبها على أن يفلسف كما يقتضى العصر الذى نعيش فيه ، وانما هو علم متواضع يزيد فى تواضعه أنه قد نزل فى هذا العصر الحديث عن ميزة قديمة كانت ترفع شأنه وتعلى مكانته ، ذلك أن الناس كانوا يتخذون الماضى وسيلة الى فهم المستقبل ، أو بعبارة أوضح وسيلة الى الاستعداد للمستقبل ، وكانوا يتخذونه وسيلة الى فهم الانسانية وتفسير ما فى حياتها من غموض ، فكان التاريخ يختلط بالفلسفة أو كان التاريخ فنا من فنون الفلسفة ، وكان الناس يعتقدون أن له فائدة عملية لأنه يعين علي حسن الاستعداد للحياة ، وكانوا يعتقدون أن له فائدة عقلية لانه يعين على فهم الحياة ، فكانوا يكلفون بالتاريخ ويتهالكون عليه ، وكانت للتاريخ مكانة عليا بين العلوم ، وكانت للمؤرخين مكانة عليا بين العلماء .

ولكن التاريخ تواضع ونزل عن هاتين الميزتين ، وأصبح لايزعم لنفسه الفضل فى حسن الاستعداد للمستقبل ولا يزعم لنفسه

القدرة على حل ألغاز الحياة ، بل أصبح التـاريخ يحذر الناس من تلك الأساليب القديمة التي كانت تقيس غداً الى أمس وتفسر اليوم بما وقع منذ قرون ، أصبح التاريخ يحذر الناس من هذه الأساليب القديمة و يسخر من أولئك الذين يبحثون عن الثورة الفرنسية وما أحدثت من نظم فى السياسة والاجتماع فى تاريخ اليونان والرومان ، ثم يرثى لاولئك الفرنسيين الذين خدعتهم هذه الأساليب فى أواخر القرن الثامن عشر فظنوا أنهم يحيون بثورتهم الديمقراطية اليونانية أو نظم السياسة الرومانية ، واتخذوا لهذه النظم أسماء اقتبسوها من تاريخ آتينا وتاريخ روما . أصبح التاريخ ينكر هذه الأساليب و يحذر الناس منها و يسخر من المستمسكين بها ، بل أصبح التاريخ ينكر فلسفة التاريخ و يقنع بشيء واحد متواضع، ولكنه جليل الخطر، وهو الوصول الى استكشاف الحقائق التي وقعت فى الماضى استكشافا علميا صحيحا معتمداً على البحث لا على الفلسفة .

فهو كالكيمياء لا يزعم لنفسه القـدرة على تحويل المعادن وإيجاد الذهب ، وإنما يزعم لنفسه البحث عن الحقائق من حيث هي حقائق لا أكثر ولا أقل .

إلى هذه المنزلة وصل التاريخ ، فما أسرع ما زهد فيه الناس ورغبوا عنه ، ولا سيما فى مصر . ولقد أذكر حديثاً طويلا جرى

بيني وبين أحد المصريين الأذكياء ، كان ينكر فيه قيمة التاريخ وكانت حجته في هذا الانكار أن التاريخ لا يفيد فائدة عملية ولا يمكن الناس من أن يكسبوا حياتهم أو يرفهوا هذه الحياة . أذكر هذا الحديث وأحاديث أخرى فأشعر بأن ناساً كثيرين في مصر سيسخرون من التاريخ ، ومن مؤتمر التاريخ . ولكني أؤكد لك أيها القارىء أني لا أسخر من هذا ولا ذاك ، وإنما أكلف بالتاريخ وأعجب بمؤتمر التاريخ . وأرجو أن يكلف كثيرون بالتاريخ ، ولكننا قد نصل إلى هذه المنزلة يوم نشعر بأن العلم يجب أن يطلب لأنه علم لا لأنه يمكنك من أن تعيش أو من أن تعيش عيشة مترفة .

لا أسخر من التاريخ ، وفي الأرض ناس كثيرون لا يسخرون من التاريخ . فقد حدثتك في أول هذا المقال بأننا كنا ألفاً أو نزيد على الألف ، وكنا من جميع أقطار الأرض . ولم يكن منا من يسخر من التاريخ . ولقد كان الذين نظموا المؤتمر ودعوا إليه في دهش وحيرة لا حد لها . كانوا لا يطمعون في أن يبلغ عدد المؤتمرين خمسمائة فاذا عدد المؤتمرين قد تجاوز الألف ، كانوا لا يطمعون في أن يستجيب لهم الناس من أطراف الأرض ؛ وإنما كانوا ينتظرون أن يستجيب لهم أهل أوربا الغربية ، وأهل أمريكا الشمالية ، فاذا

القارات الخمس يستجبن لهذه الدعوة . وإذا البرازيل والهند وأستراليا ومصر وأفريقيا الجنوبية وأوربا الشمالية والصين واليابان والروسيا ترسل من يمثلها فى هذا المؤتمر . وأحب أن تلاحظ أن ألمانيا لم تستطع أن تشترك فى المؤتمر لأنها لم تدع اليه ، وأن الروسيا لم تستطع أن تشترك فى المؤتمر كما ينبغي لأنها لم تدع ، وإنما اشتركت فى المؤتمر الجماعات الروسية المتفرقة فى أنحاء أوربا . وأن النمسا اعتذرت عن الاشتراك فى المؤتمر لأنها لم تجد من المال ما يمكنها من إيفاد من يمثلها ، ومع هذا كله فقد بلغ هذا المؤتمر الخامس من الفوز مالم يبلغه مؤتمر تاريخى من قبل . زاد عدد أعضائه على الألف وزاد عدد الخطب التى ألقيت فيه والمذكرات التى قدمت إليه على ثلثمائة . ولم يستطع المؤتمر أن يجتمع للاشتراك فى البحث والمناقشة وإنما اضطر أن يوزع العمل ويقسم نفسه أقساما بلغت ثلاثة عشر قسما . واضطرت أقسام كثيرة إلى أن تقسم نفسها وتوزع العمل فيما بينها فانقسم بعضها أربعة أقسام . ولم يكن من الممكن لعضو من أعضاء المؤتمر أن يتتبع العمل فى المؤتمر وإنما كان كل عضو مضطراً إلى أن يتتبع العمل في القسم الذي هو فيه ، وربما أباح أحدنا لنفسه أن يترك قسمه ليسمع خطبة أو مذكرة تلذه أو تعنيه فى قسم آخر ، فيفعل ذلك كارهاً لأنه يترك فى قسمه خطباً ومذكرات كان يود لو يستمع

لها ، ولقد كان أعضاء المؤتمر يلتقون فيسأل أحدهم صاحبه : هل قدمت الى المؤتمر شيئاً ؟ نعم فى موضوع كذا . فيجيبه هذا شيء لا يحتمل ! لقد كنت أريد أن أسمع لك ولكنى شغلت فى قسمى بموضوع لم يكن بد من الاستماع له — أما أنا فضيق الصدر ، فقد فاتتنى خطبة فلان ومذكرة فلان . وماذا تريد أن نصنع ؟ وقد أبت الطبيعة أن تستطيع تعديد أشخاصنا والاستماع فى وقت واحد لكل ما نحب أن نستمع له .

وكان المؤتمر يفكر فى طبع ما سيلقى فيه من الخطب أو يقدم إليه من المذكرات فألفى نفسه أمام مشكلة مالية لا قدرة له على حلها . وحسبك أنه كان يلقى فى الساعة الواحدة وفى أكثر من عشرين غرفة أكثر من عشرين خطبة . وكنا فى هذا المؤتمر كالتلاميذ فى المدرسة ، نجتمع فى الساعة التاسعة صباحاً فما نزال مجتمعين إلى الظهر ، ثم ننصرف للغداء ونعود فى الساعة الثانية فما نزال مجتمعين إلى الساعة الخامسة . فاذا كانت الساعة الخامسة انصرفنا إلى زيارات واستقبالات قد نظمت فى القصر مرة وفى البلدية مرة أخرى وعند وزير المعارف مرة ثالثة ، وفى المتاحف والمجامع العلمية مرة رابعة بحيث كان من المستحيل أن يفكر العضو فى شيء غير المؤتمر وأعمال المؤتمر إذا كان عضواً مخلصاً فى عمله معنياً بفنه حقاً ، وهنا يجب أن

ألاحظ أن الأعضاء لم يكونوا جميعاً على حظ واحد من الاخلاص للفن والعناية به . وذلك شيء حسن في نفسه فحسبك ثلثمائة خطبة أو مذكرة وما استتبعت من البحث والمناقشة ، ولو أن الأعضاء جميعاً خطبوا أو قدموا المذكرات أو اشتركوا فى البحث والمناقشة لما انتهت أعمال المؤتمر في أسبوع أو أسابيع .

كثير من الأعضاء أقبل ليسمع ويرى ويتعرف إلى المؤرخين على اختلاف مذاهبهم ومناهجهم . وكثير منهم أقبل للرياضة والسياحة واتخذ المؤتمر تعلة لما كان يريد .

كثيرة جداً الفوائد المختلفة التى تنتجها مثل هذه المؤتمرات فلست أذكر الفائدة الأساسية التى يستفيدها علم التاريخ وإنما أذكر فوائد أخرى غير هذه ليس بينها وبين التاريخ صلة . فيكفى أن تكون فطنا دقيق الملاحظة لتجد لذات متنوعة فى ملاحظة هؤلاء الناس المختلفين فى الوطن والجنس والطبيعة والمزاج وما لكل واحد منهم من عادة أو خلق أو مزية أو نقيصة . والحق أنى قد استفدت كثيرا من الوجهة العلمية التاريخية ولكنى مع هذا ضحكت كثيراً وسخطت كثيراً ، فقد كان حولى من الناس من يضحك كما كان حولى منهم من يبعث السخط ، ولكنى سأحدثك عن هذا كله فى مقال آخر بعد أن أقص عليك طرفاً من أعمال المؤتمر .

باريس فى ١٦ إبريل سنة ١٩٢٣

٢

لا أذكر ما كان يضطرب في نفسي من خواطر الأسى والاعجاب ومن عواطف الأسف والأمل أثناء الطريق بين باريس و بروكسل حين كنا نعبر هذه البلاد التي دمرتها الحرب تدميراً فلم تذر فيها شيئاً الا أتت عليه والتي كان أهلها مشردين في أقطار فرنسا ، يتكلفون ألوان المشقة ، و يستجدون ضروب الاحسان ، ليستقروا بعد تشريد و ليشبعوا بعد جوع ، فأصبحت هذه البلاد ، ولما تمض على الحرب أعوام ، عامرة مزدهرة مستكملة أو آخذة في استكمال وسائل الحياة العاملة المنتجة الناعمة المترفة . كنت آسف و كنت آمل ، كنت آسى لقسوة الانسان على الانسان ، وكنت أعجب بقدرة الانسان على إصلاح ما أفسدت يد الانسان . ولكني لا أريد أن أذكر ذلك أو أطيل فيه ، وإنما أحدثك بما وجدت حين وصلت الى مدينة بروكسل ظهر الأحد ٨ إبريل

كان البرد شديداً ، وكانت تعصف في المدينة ريح قوية مثلجة ، ولكن المدينة كانت هائجة مائجة ، أو بعبارة أصح كانت فرحة مرحة ، كان الناس يتغنون و يضحكون و يفتنون في اللذات البريئة . فكنت

لاتسمع الا أصواتا صافية مجلوة، تنبعث بألفاظ الهناء والسرور . وكنت لا ترى الا أعلاما منشورة تعبث بها الريح ، كنت لا تسمع ولا ترى الا شيئا يسر و يرضى و يبعث البهجة فى النفوس . كان أهل بلجيكا ذلك اليوم فى عيد . كانوا يحتفلون بميلاد الملك ألبير ، لم يكن احتفالهم رسميا فحسب ، لم يكن مقصورا على قصر الملك ودواوين الحكومة . لم يكن احتفالا تراد به المجاملة ، وانما كان احتفالا حقا . كانت القلوب تحتفل بالملك ألبير . وكانت الألسنة تنطلق بما يملأ القلوب من فرح . وكانت الوجوه تصف مايغمر النفوس من ابتهاج . وكانت هذه الجماعات المختلفة التى تنطلق فى الشوارع منها ما ينشد النشيد البلجيكى، ومنها مايتغنى « بالمرسيلييز » ومنها مايتغنى بأحدث الأغانى الباريسية التى تتردد فى « مونمارتر » . أقول كانت كل هذه الجماعات آية ساطعة على أن البلجيكيين يحبون ملكهم ويعجبون به و يحتفلون ببلجيكا الناهضة حين يحتفلون بعيد ألبير . لأن ألبير يمثل فى نفوسهم هذا الوطن الذى تألم وأهين ولقى ضروب الذلة ثم انتصر وثأر لنفسه وهو الآن ينهض و يستأنف الحياة قوياً نشيطاً كأقوى وأنشط ما كان قبل الحرب .

نعم : كانت هذه الجماعات آية بينة على أن البلجيكيين يحبون

ملكهم ويرونه رمز آلامهم وآمالهم حقاً ؛ ومهما أنس فلن أنس جماعة من الرجال والنساء صادفناها فى أحد الشوارع ، وقد تبادلت القلانس ، فلبس الرجال قلانس النساء ولبس النساء قلانس الرجال وامتلأ الشارع بهم حتى وقف الترام وانقطعت الحركة وهم يتغنون :

« اصعد فوق ! اصعد فوق ! فسترى مونمارتر »

« وكن واثقاً جداً بأنك سترى شيئاً جديداً »

« من فوق إذا كان الجو صحوا فسترى من باريس إلى شارتر »

« إذا كنت لم تر هذا فاصعد فوق ؟ اصعد فوق فسترى مونمارتر »

بذلك كانوا يتغنون وكانت تقطع هذا الغناء من وقت إلى وقت قهقهة عالية تصعد فى السماء وتحملها الريح وتفرقها فى أنحاء المدينة . وإنهم ليمضون كذلك وإننا لنتبعهم وإذا الغناء قد انقطع وإذا الأصوات قد خفتت وإذا الرءوس حاسرة وإذا جلال مهيب قد انبسط على هذه الجماعات الفرحة ، وإذا صمت رهيب يشعرك بأن هناك شيئا جديداً . بأن هناك شيئا مقدسا . . . .

كان هناك شيء جديد مقدس . كانت الجماعة قد وصلت إلى عمود المؤتمر وهو الذى أقيم سنة ١٨٣٠ حين استقلت بلجيكا وصدر

دستورها ، وهو الذى يظل قبر الجندى المجهول الذى اتخذ رمزاً لما قدمت بلجيكا من ضحايا فى الحرب الماضية . وصلت الجماعة إلى هذا العمود فتبدل فرحها ومرحها إجلالا وتقديسا لرمز الاستقلال ورمز الجهاد الوطنى !

وما أشك أن هؤلاء الناس الذين كانوا يجلون استقلالهم ويقدسون رمز ضحاياهم ، كانوا يذكرون فى هذه اللحظة نفسها مع الاجلال والاكبار الملك ألبير الذى جاهد وتألم واحتمل كل ما يمكن أن يحتمله الملك المخلص المدافع عن وطنه أولا وعن عرشه ثانيا !

فى هـذا اليوم عرفت قيمة ما يمكن أن يوجد بين الشعوب والملوك من صلات الحب والمودة والعطف .

الحب وحده مصدر هذا الابتهاج والاجلال ، فليس الملك ألبير مستبدا ولا راغبا فى الاستبداد . وليس الشعب البلجيكى خانعا ولا مستعدا للخنوع ، ولعل الذين قرءوا تاريخ بلجيكا يعلمون أن الصلة بين البلجيكيين وملوكهم قائمة على أن الملوك يتلقون سلطانهم من الشعب ، فهم نوابه وممثلوه ، لا سادته وزعماؤه . ومالى أذهب بعيداً وقد افتتح المؤتمر التاريخى يوم الاثنين ٩ إبريل بمحضر من الملك والملكة وولى العهد والبرنس شارل واخته البرنسيس مارى جوزى ،

فلما قدم رئيس المؤتمر إلى الملك والملكة والأمراء تحية المؤتمر ذكر الديمقراطية ورقيها فى بلجيكا واقتناع الملك بأن لارقى للشعوب ولا استقرار للعروش إلا إذا كانت الديمقراطية الصحيحة الواسعة أساس الصلة بين الشعوب والعروش . فصفق الناس جميعا وابتسم الملك والملكة .

باريس فى ١٧ إبريل سنة ١٩٢٣

obeikandl.com

٣

قلت فى أول هذه الفصول : إن كثرة أعضاء المؤتمر من جهة ، وكثرة مواد العمل من جهة أخرى ، قد اضطرتا المؤتمر إلى أن يقسم نفسه إلى لجان . ولست أرى بأسا من ذكر هذه اللجان ليرى المشتغلون بالتاريخ فى مصر كيف يتصور علماء أوربا التاريخ وكيف يقسمونه إلى أقسامه المختلفة .

انقسم المؤتمر إلى ثلاث عشرة لجنة وهى :

١ — تاريخ الشرق

٢ — تاريخ اليونان والرومان

٣ — تاريخ العصر البيزنطى

٤ — تاريخ القرون الوسطى

٥ — التاريخ الحديث والتاريخ العصرى ، وهذه اللجنة تنقسم إلى أربع لجان جزئية

الأولى : لجنة التاريخ الحديث التى ينتهى عملها إلى الثورة الفرنسية .

الثانية : لجنة التاريخ العصرى التى يبتدىء عملها من الثورة

الثالثة : لجنة تاريخ القارة الأمريكية

الرابعة : لجنة تاريخ الاستعمار والاستكشاف

وأحب أن تلاحظ أن هذين القسمين الأخيرين — تاريخ القارة الأمريكية وتاريخ الاستعمار — لم يستقلا بالبحث وتخصص العلماء إلا فى هذه السنين الأخيرة . وهما يوشكان أن يصبح كل واحد منهما قسما مستقلا استقلالا تاماً عن غيره من بقية أقسام التاريخ .

٦ — التاريخ الدينى ، وهذه اللجنة تنقسم إلى لجنتين جزئيتين

الأولى : لجنة تاريخ الديانات من حيث هى أى من وجهتها الفكرية والعملية

الثانية : لجنة تاريخ الكنيسة ، وهى تنقسم إلى لجنتين تبحث الأولى عن تاريخ الكنيسة منذ نشأتها إلى آخر القرن الثانى عشر . وتبحث الثانية عن تاريخ الكنيسة منذ أول القرن الثالث عشر .

٧ — تاريخ الحقوق — وهذه اللجنة تنقسم إلى لجنتين :

الأولى : لجنة تاريخ الحقوق فى العصر القديم

الثانية : لجنة تاريخ الحقوق فى القرون الوسطى وفى العصر الحديث .

٨ — التاريخ الاقتصادى .

٩ — تاريخ الحضارة : وقد انقسمت هذه اللجنة إلى ثلاث لجان.

الأولى : لجنة تاريخ الحضارة فى العصر القديم

الثانية : لجنة تاريخ الحضارة فى القرون الوسطى وفى العصر الحديث .

الثالثة : لجنة تاريخ الطب

١٠ — تاريخ الفن والآثار ، وتنقسم إلى لجنتين :

الأولى : لجنة تاريخ الفن

الثانية : لجنة الآثار

١١ — المناهج التاريخية والعلوم المتصلة بالتاريخ . وقد انقسمت هذه اللجنة إلى لجنتين :

الأولى : لجنة مناهج البحث التاريخى

الثانية : لجنة العلوم المتصلة بالتاريخ كعلم النقوش والخطوط ، وما إلى ذلك

١٢ — لجنة البحث عن مصادر تاريخ العالم أثناء الحرب العظمى.

١٣ — لجنة المخطوطات ونشر النصوص التاريخية .

وكان المنظمون للمؤتمر قد خصصوا له قصر المجامع العلمية ، فظهر أن هذا القصر على سعته وكثرة غرفه أضيق من أن يسع هذه

اللجان واضطر المنظمون إلى أن يقرروا لجانا كثيرة فى مواضع مختلفة قريبة أو بعيدة من قصر المؤتمر.

وكانوا قد أجمعوا أن يفتتح المؤتمر بعد ظهر الاثنين ٩ إبريل وأن يشرع فى أعماله بعد ذلك . ولكن كثرة الأعمال وكثرة ما كان يجب أن يلقى من الخطب ويقدم من المذكرات ، اضطرا المؤتمر إلى أن يبدأ فى عمله قبل أن يفتتح رسمياً . فاجتمعت اللجان وبدأت بسماع الخطب والمذكرات صباح الاثنين ، أى قبل أن يفتتح المؤتمر رسمياً .

وكنا قد ذهبنا يوم الأحد إلى سكرتارية المؤتمر فوجد كل منا طائفة من الأوراق تنتظره . وقد كتب عليها اسمه . وهذه الأوراق عبارة عن برنامج أعمال المؤتمر ومختصر ما كان قد قدم من المذكرات وبطاقات الدعوة الى القصر ، وعند وزير المعارف ، وفى الجامعة ، وفى البلدية ، ثم بطاقة شخصية تثبت أن صاحبها عضو فى المؤتمر ، ثم علامة من المعدن يعلقها العضو فى صدره ليتميزه الناس ، وليستغنى بها عن إظهار بطاقته كلما أراد أن يدخل داراً من دور المؤتمر

وعلمنا حينئذ أننا سنبدأ أعمالنا صباح الاثنين قبل الافتتاح الرسمى ، فلما كان يوم الاثنين ذهبنا جميعا إلى الأماكن التى خصصت للجان التى يجب أن يشترك فيها كل منا . ذهبت إلى لجنة المحفوظات

وانشر النصوص التاريخية . وفى هذه اللجنة قدمت مذكرتى صباح الاثنين ، وكان موضوعها « نص معاهدة دفاعية هجومية » عقدت سنة ٦٩٢ للهجرة (١٢٩٢ للمسيح) بين الملك الأشرف خليل بن قلاوون وابن جايم الثانى ملك أراجون وأخويه وصهريه . وكلهم ملوك لاسبانيا المسيحية . وجدت نص هذه المعاهدة العربى فى الجزء الرابع عشر من كتاب صبح الأعشى ، وفى هذا النص اضطراب كثير ، وضروب من التحريف غريبة ، فكنت أمام صعوبتين : الأولى تصحيح هذا النص وتقويم مافيه من الاضطراب والتحريف ، الثانية إثبات أن هذا النص صحيح من الوجهة التاريخية ، وأن هناك معاهدة عقدت حقا بين مصر وأسبانيا المسيحية فى ذلك العصر

وقد وفقت إلى تذليل هاتين الصعوبتين بواسطة استكشاف النص أو الترجمة الأسبانية اللاتينية لهذه المعاهدة التى لم يكن نصها العربى معروفا للمؤرخين قبل اليوم . ولم يكن هذا البحث يسيرا ولا سهلا . فحسبك أن القلقشندى الذى روى نص هذه المعاهدة عن كتاب لابن المكرم سماه « تذكرة اللبيب ونزهة الأديب » قد روى هذا النص دون أن يفهم قيمته التاريخية ، بل دون أن يفهمه بوجه ما فحرف وبدل ولم يصف المعاهدة إلا بأنها حسنة الانشاء . وحسبك أن أسماء الملوك والبلاد كانت من التحريف بحيث كان يكفى أن

تقرأها لتشك فى صحة المعاهدة . فملك أراجون جايم الثانى يسمى فى المعاهدة « دون حاكم » ولفظ حاكم لفظ عربى خالص لا يمكن أن يكون اسما لملك مسيحى من ملوك أسبانيا ، وتحريفه ظاهر سهل ولكن بشرط أن تصل إلى أصله المسيحى . ولست أدرى على من تلقى تبعة هذا التحريف ، أعلى المؤلف أم على الناسخ أم على المصحح ؟ ولكنى أعلم أن هذا الكتاب الجليل الذى سأخصه بفصل أو فصلين لو أنه صحح تصحيحاً علميا متينا ، وأشرف على طبعه ناس يتقنون هذا الفن و يلمون بأصوله و باللغات الأجنبية ، و يستطيعون أن يتصرفوا فى هذه اللغات كتابة وترجمة ، لخرج من المطبعة الأميرية نافعاً حقا ميسرا للباحثين ، من المصريين وغير المصريين ، سبل البحث عن التاريخ. ولكن الذين أشرفوا على طبع هذا الكتاب على حسن نيتهم و إتقانهم للغة العربية وما إليها ، وتصحيح الحروف ، يجهلون التصحيح العلمى وما يحتاج إليه من بحث وتنظيم جهلا تاما . وهم إلى ذلك لا يعرفون لغة أجنبية ، وأحسب أنهم لم يدرسوا التاريخ ولا يستطيعون التصرف فيه ولا تأول نصوصه وتفسيرها . ولهذا كان نفع هذا الكتاب قليلا وعسيرا جدا بنوع خاص . وحسبك أنك لا تجد فيه ثبتا بأسماء الأشخاص والأمكنة ، فأنت مضطر إلى أن تقرأ الكتاب كله أو تتصفحه على أقل تقدير لتعرف : أألم الكتاب بالموضوع الذى

تبحث عنه أم لم يلم ؟ ومع هذا فأنا أعتقد أن هذا الكتاب أنفع كتاب تاريخي طبع باللغة العربية لمن أراد أن يدرس النظم السياسية في البلاد الاسلامية عامة وفى مصر خاصة ، ولمن أراد أن يدرس العلاقات الدولية بين المسلمين من جهة وبينهم وبين غيرهم من جهة أخرى . ولكن صبح الأعشى أنسانى ما كنت فيه من قصص المؤتمر

سمعت فى هذه اللجنة يوم الاثنين مذكرة قدمها أحد المندوبين « لتشيكوسلوفاكيا » عما كان من تبادل المحفوظات الرسمية بين النمسا و « تشيكوسلوفاكيا » بمقتضى معاهدة سان جرمان بعد الحرب العظمى ، ودارت حول هذه المذكرة مناقشة قيمة اتخذت اللجنة بعدها قراراً لو عمل به لاستفادت منه مصر ، وخلاصة هذا القرار أن المحفوظات فى كل بلد تتبع هذا البلد فهى حق من حقوقه لا يصح أن يعتدى عليه معتد بحكم الفتح أو بأى سبب آخر . وإنما يجب أن تبقى هذه المحفوظات ملكا للبلد ، الذى هى فيه ، وليس يتناول هذا القرار المحفوظات التى تمس الادارة أو الشئون السياسية وحدها ، وإنما يتناول المحفوظات جميعا إدارية كانت أو سياسية أو فنية أو علمية ومهما يكن تاريخها

أقول لو عنيت الدول بهذا القرار الذى اتخذه العلماء لاستفادت مصر فائدة عظيمة جداً ، فنحن نعلم أن من حقنا أن نطالب تركيا

وانجلترا بمحفوظات كثيرة مختلفة نقلت إلى قسطنطينية وإلى لندرا في عصور وظروف مختلفة . ولعلك تعلم أن من يريد أن يدرس التاريخ السياسى الدولى لمصر فى القرن التاسع عشر مضطر إلى أن يذهب إلى لندرا ويراجع محفوظات كثيرة فى وزارة الخارجية الانجليزية . وهناك أشياء نجهلها وقد نعلمها فى يوم من الأيام حين نعنى بمحفوظاتنا السياسية والادارية عناية علمية . ولعلك تعلم أن من يريد أن يدرس التاريخ السياسى والعلمى والأدبى لمصر أيام المماليك مضطر إلى أن يختلف إلى مكاتب القسطنطينية ، وأن دار الكتب المصرية أوفدت منذ حين سماحة السيد محمد الببلاوى ليستنسخ فى مكاتب القسطنطينية كتباً عربية كثيرة . ولعلك لم تنس أن الترك حين فتحوا مصر حملوا إلى قسطنطينية كنوزها العلمية والأدبية والفنية. فمن هذه الكنوز ما تبدد . ومنها ما لا يزال محفوظا فى القسطنطينية . ومن الحق أن يعود هذا كله إلى مصر . ولكن أتظن أن قراراً يتخذه العلماء يستطيع أن يؤثر فى رجال السياسة سواء أكانوا من الانجليز أم من الترك ؟

ثم كانت الساعة الثالثة بعد الظهر فافتتح المؤتمر رسميا . اكتظت غرفة الاحتفالات فى قصر المجامع العلمية بأعضاء المؤتمر ، وأقبل الملك

والملكة والأمراء فافتتح المؤتمر وقدم رئيسه التحية إلى الملك والملكة كما ذكرت فى الفصل الماضى . وهنا لا أستطيع أن أخفى ابتهاجى حين سمعت لفظ مصر يذكر فى كلمة التحية . فقد كنت ثانى اثنين مصريين حضرا المؤتمر . وكان الآخر جورج أفندى قطاوى العضو بالبعثة السياسية المصرية فى باريس . كان يمثل الجمعية الجغرافية الملكية . وكنت المصرى الوحيد الذى يلبس الطربوش . ولم أكن أعلم بحضور مواطنى فى هذه الجلسة فكنت أشعر بالغربة حقا . فلما سمعت لفظ مصر يذكر فى تحية الملكة ، بمناسبة زيارتها الأخيرة ، أحسست شيئا من الابتهاج والحنان . ولعلى لا أغلو إذا قلت إنى أحسست شيئا من الكبرياء أيضا

لِمَ أخفى عليك الحق ؟ كنت قبل هذه السياحة فى بلجيكا مقتصداً كل الاقتصاد في الافتخار بمصريتى إذا تحدثت إلى الأجانب أو جمعتنى وإياهم المجامع . ذلك لأنى أشعر دائماً بما نحن فيه من ضعف ونقص قبل أن أشعر بما كان لنا من مجد وبما يَدَّخِرُ لنا الزمان من رقى . أستحضر دائماً ضعفنا ونقصنا الاجتماعيين ، كما أستحضر دائماً ضعفى ونقصى الشخصيين . فأتواضع فى الحديث وأقتصد فى الفخر . ولست أدرى أمزية هذه أم نقيصة ، ولكنى أعلم أن هذا خلق من أخلاقى .

أما الآن وقد زرت بلجيكا ، وتحدثت إلى هؤلاء الناس المختلفين . وسمعت ما ذكرت وما تذكر به مصر . وعرفت رأى كثير من هؤلاء الناس فى مصر . فقد أشعر بأن من حقى أو من الحق علىَّ ألا أسرف فى التواضع وألا أغلو فى الاقتصاد إذا ذكرت مصر وذكر المصريون . ذلك أن رأى الأجانب فى مصر حسن جداً . ولا سيما إذا كان هؤلاء الأجانب بعيدين عن السياسة وأوزارها . . . نعم رأى الأجانب فى مصر حسن لأنهم يفهمون مصر خيراً مما نفهمها . يقدرون مجدها القديم لأنهم يفهمونه حقاً . ويقدرون مركزها الحديث لأنهم لا يتعصبون لمذهب سياسى ولا يميلون مع الهوى إلى حزب من الأحزاب .

يجب أن أعترف بالحق لأهله . يجب أن أثني على ثروت باشا وعلى تصريح ٢٨ فبراير وعلى إعلان الاستقلال فى ١٥ مارس . فالناس فى مصر يزدرون هذا كله ، ويسخرون منه ، ويرون أنا غير مستقلين . وقد يكون من الحق أنا غير مستقلين بالفعل وأنا لن نستقل بالفعل إلا يوم يجلو الانجليز . ولكن من الحق أيضاً أن الأجانب الذين لا يشتغلون بالسياسة والذين يشتغلون بها ينظرون إلى مصر كما ينظرون إلى انجلترا . أى أنهم يعترفون بأن مصر مستقلة كما أن انجلترا مستقلة وكما أن بولونيا مستقلة ، وهم يعجبون بمصر قديمها وحديثها .

يعجبون بقديمها لأنه خليق بالاعجاب . ويعجبون بحديثها لأنه يدهشهم ويملك عليهم أهواءهم . ولقد سمعت أكثر من عشرين أجنبياً منهم البلجيكي والفرنسي والبولوني والأمريكي يذكرون مصر الحديثة فيعجبون بها لأنها تتطور في سرعة مدهشة . ولأن نهضتها الحديثة فذة في التاريخ .

سمعت اسم مصر إذن فابتهجت وامتلأ قلبي حنانا وشعرت بشيء من الكبرياء لأني كنت ، أو لأن طربوشي كان رمزاً لمصر بين هذه الرءوس الحاسرة التي كانت تزيد على الألف

ولكني بعدت عن المؤتمر وغلوت في الاستطراد . وبماذا تريد أن أحدثك عن هذه الجلسة الرسمية ، التي هي كغيرها من الجلسات الرسمية : ثناء على الملك والملكة . وتحية من الحكومة البلجيكية للمؤتمر . ثم خطبة مطولة من رئيس المؤتمر ألم فيها ببحث تاريخي قد أذكره في غير هذا الفصل ثم تلاوة قرارات اتخذت لحسن نظام الأعمال ، ثم ينصرف الأعضاء . اتصلت هذه الجلسة ساعتين . وسمع الملك والملكة والأمراء كل ما قيل وانصرفوا مع الناس دون أن يظهر عليهم ملل أو ضجر . أكانوا حقا مغتبطين بهذا الحديث الطويل الكثير الثقيل على آذان الملوك ؟ أم كانوا مجاملين ؟

باريس في ١٨ إبريل سنة ١٩٢٣

٤

كان لذيذاً جداً ذلك اليوم الثانى من أيام المؤتمر . كان لذيذاً وكان مفيداً . لم نكد نبدأ أعمالنا فى ذلك اليوم حتى سمعت فى لجنة المحفوظات مذكرة نافعة قدمها مدير المحفوظات فى بلجيكا عن نظام إدارة المحفوظات ، وما يجب أن يتخذ من ضروب الحيطة ، حتى لا تضيع هذه المحفوظات ولا تتعرض للخطر . وسأحدثك عن هذه المذكرة في مقال آخر أصف فيه دار المحفوظات فى بروكسل وألم فيه بالموضوع إلماما مفيداً .

سمعت هذه المذكرة ثم تركت لجنتى وذهبت إلى لجنة أخرى مجاورة هى لجنة تاريخ الحضارة فى العصر القديم ، أو بعبارة أصح لجنة التاريخ العقلى فى العصر القديم . فى هذه اللجنة كان ينتظرنى دهش عظيم ولذة أعظم . لأني سمعت محاورة ما كنت أظن أنى سأسمعها فى يوم من الأيام . وكانت هذه المحاورة بين عالمين خطيرين : أحدهما فرنسى والآخر بلجيكى . كان موضوع هذه المحاورة غريبا ، وكانت المناقشة فيه حادة طويلة ، حتى صرفت اللجنة عن أعمالها صباح الثلاثاء . ذلك أن أحد الفلاسفة البلجيكيين الأستاذ « دوبريل » ألف منذ حين كتابا فى تاريخ الفلسفة اليونانية ، وزعم فى هذه

الكتاب أن البحث التاريخي الصحيح ينتهي بالباحث إلى أن سقراط شخص خرافى لم يوجد ولم يعرفه التاريخ ، وأن خلاصة حكم التاريخ فيه كخلاصة حكم التاريخ في هوميروس . كلاهما شخص آمن به القدماء وأظهر التاريخ أنه لم يوجد قط . وكلاهما شخص اتخذ رمزاً لنوع من الآداب ، فاتخذ هوميروس رمزاً لكل الشعر القصصى الذى عرفه اليونان وتناقلوه قبل القرن السابع ، واتخذ سقراط رمزا لهذه الفلسفة التى عرفها اليونان وافتنوا فيها منذ أواخر القرن الخامس وطول القرن الرابع قبل المسيح .

أعترف بأنى دهشت الدهش كله حين قرأت عنوان هذه المحاورة قبل الذهاب إلى المؤتمر . فما كنت أظن أن وجود سقراط يصل فى يوم من الأيام إلى أن يكون موضوع بحث ، فضلا عن أن يكون موضوع شك ، بل فضلا عن أن يكون موضوع إنكار . ذلك لأن سقراط لم يعش فى عصر جهل و بداوة ، ولا فى أيام خرافة وأساطير ، و إنما عاش فى عصر علم وحضارة ، وفى أيام تحقيق وتاريخ . والناس مجمعون منذ أوائل القرن الرابع قبل المسيح على أن هناك آتينيا كان اسمه سقراط . وكان معروفا طول حياته بالميل إلى الفلسفة والكلف بها . وكان ممتازاً بأطوار حياته الغريبة ، ومناهج بحثه الجديدة . كان يمشى حافيا فى الشوارع ويتلكأ فى الميادين ، متحدثا إلى

الشيوخ والشبان ، متلطفا مع هؤلاء ، محاوراً مناقشاً سائلا مجيبا ، حتى استحدث فى الأدب اليونانى فنا جديداً ، هو فن الحوار الفلسفى . وحتى رسم للعقل الانسانى طريقا جديدة لم يقطعها العقل الانسانى بعد . الناس مجمعون على ذلك ، ومجمعون على أن سقراط هذا كان له خصوم وأنصار ، وعلى أن خصومه حاربوه فسخروا منه ، ثم اتهموه أمام المحكمة ، وعلى أنه أساء الدفاع عن نفسه عمداً ثم سخر من القضاة فقضوا عليه بالموت ثم انتظر الموت شهرا ثم شرب السم وظل يحاور تلاميذه فى خلود النفس حتى مات ثم تفرق تلاميذه فأنشئوا المدارس والمذاهب الفلسفية المختلفة فى بلاد اليونان على اختلافها وتباعد أطرافها . وعاش من هذه المذاهب مذهب واحد هو مذهب أفلاطون الذى أخذ يتطور ويستحيل حتى أنتج فلسفة أرسطاطاليس ، وكثيراً من المذاهب الفلسفية الأخرى التى لا تزال متاعا عاما للنوع الانسانى إلى الآن .

الناس مجمعون على هذا كله ، ولديهم أدلة ظاهرة تبيح لهم هذا الاجماع . فليس من شك فى وجود أرستوفان الممثل اليونانى المضحك . وليس من شك فى أن أرستوفان قدم إلى الملعب الآتينى نحو سنة ٤٢٤ قبل المسيح قصة السحاب التى يتداولها الناس ، والتى تدور حول سقراط وتتخذه وسيلة إلى تسلية الجمهور الآتينى وإضحاكه ، وليس من شك فى أن كتب التاريخ اليونانية والرومانية ذكرت موجزة

أو مظنة قضية سقراط وموته والمذاهب الفلسفية التى نشأت عن حواره ومناقشته ، ليس من شك فى هذا كله ، ولكن الأستاذ « دو بريل » وجد طريقا إلى الشك ، وفى الحق أنه لم يخترع هذه الطريق ، فهى موجودة من قبل ، وفيها مايبعث على الدهش والحيرة . فمن الواضح أن أحدا لم يشك فى وجود سقراط قبل الأستاذ « دو بريل » ولكن من الواضح أيضا أن المحدثين من مؤرخى الفلسفة عاجزون إلى الآن كل العجز عن تحقيق فلسفة سقراط ، وبيان ما كان له من مذهب فى الأخلاق أو فى غير الأخلاق . فهم يؤمنون بوجود سقراط وبأنه أبو الفلسفة . ولكنهم لا يستطيعون أن يبينوا فلسفته . بل هناك ما هو أغرب من هذا : لا يستطيعون أن يصفوا سقراط ولا أن يتميزوا شخصيته المعنوية . فلسقراط شخصيات كثيرة تختلف باختلاف تلاميذه . فأفلاطون يعطي من سقراط شخصية تخالف تلك التى يعطيها « كسنوفون Xénophon » وهذه الشخصية تخالف مايمكن أن يستخلص من « فيدون Phédon » ، وكل هذه الشخصيات تخالف ما نجد فى قصة السحاب . واذا كان الأمر كذلك فما الذى يمنع من الشك فى وجود سقراط ؟ وكيف نستطيع أن نتصور شخصا وجد من غير شك وكان أبا الفلسفة وملهم الفلاسفة ، وأحدث فى العالم اليونانى خاصة والانسانى عامة ضجة هائلة أعدت العالم للضجة

التى أحدثها المسيح ، دون أن نتميز شخصيته أو أن نتبين أصلا واضحا جليا من أصول فلسفته ؟

نعم قد يجاب على هذا بأن سقراط لم يكتب شيئا ، وإنما تحدث فاختلطت أحاديثه وعبث بها تلاميذه . ومن هنا اختلطت شخصيته الفلسفية ، وأصبح تمييزها شيئا عسيرا . ولكن فلاسفة كثيرين وجدوا قبل سقراط ولم يكتبوا ومع هذا فقد تميزت شخصياتهم ، مع أن فلسفتهم فشلت ولم تظفر من الفوز ببعض ما ظفرت به الفلسفة التى تضاف إلى سقراط . هذا مصدر الشك فى وجود سقراط . وقد افتن فيه الأستاذ «دو بريل» ولم يكتف بتسجيله ، بل ذهب إلى ما هو أبعد من هذا فأثبت أو حاول أن يثبت شيئين : الأول أن شخص سقراط شخص خرافى كشخص «جحا» كان موضوع العبث والسخرية فى قصص الممثلين وأن الفلاسفة الذين جاءوا فى أواخر القرن الخامس وفى القرن الرابع قد اتخذوا هذا الشخص الخرافى ، الذى هو موضوع السخرية والعبث ، مثالا للجد . ولكن للجد الحلو الذى هو أقرب إلى الفكاهة منه إلى الجد الخالص ليحببوا فلسفتهم إلى الناس . ثم أخذ هذا الشخص الهزلى قديما الجدى حديثا ، يتطور فى جده ويمعن فى فلسفته ، حتى أصبح مثالا للجد الخالص ، وأبا للفلاسفة ، ورمزاً للفلسفة وحتى نسجت حوله هذه الأسطورة الغريبة التى جعلته بطلا من أبطال

الانسانية . الثانى أن فلسفة سقراط ليست جديدة ولم تنشأ كما يعتقد المؤرخون لمحاربة السوفسطائية ، وإنما هى طور من أطوار الفلسفة اليونانية القديمة ، لم يستحدثها فيلسوف بعينه فى عصر بعينه . ويثبت الأستاذ « دوبريل » نظريته هذه بالرجوع إلى نظريات الفلاسفة اليونانيين قبل سقراط وما يوجد فيها من أصول الفلسفة السقراطية . هذه نظرية الأستاذ « دوبريل » أوجزتها إيجازا شديداً أخشى أن يكون قد أفسدها وانتقص من أطرافها .

نهض لنقض هذه النظرية أستاذ فرنسى هو الأستاذ « لفيفر » من علماء مدينة «ليل» ، وأعترف بأنى كنت معجبا بهذا الأستاذ حين كان يتكلم . ولم أكن منفردا بهذا الاعجاب وإنما كان أعضاء اللجنة جميعاً ومنهم الأستاذ «دوبريل» نفسه يشاركوننى فيه . ولم يكن مصدر هذا الاعجاب فيما أظن اقتناعنا بردود الأستاذ ، وانما كان مصدره قبل كل شىء حبنا لسقراط وحرصنا على أن يكون شخص سقراط شخصا حقيقياً تاريخياً ، وشعورنا بأن الأستاذ « لفيفر » يحاول أن يثبت لنا وجود هذا الشخص الذي نحبه ونكلف به . الحق أن الوقت لم يسمح للأستاذ « لفيفر » بمناقشة خصمه كما ينبغى . فهناك نصوص يونانية ولاتينية لم يكن بد من تحليلها ومناقشتها . وذلك يحتاج إلى كتاب لا إلى محاضرة . والى أشهر لا إلى ساعة . ولكن هناك شيئا يظهر أنه

لا يقبل الشك وهو أن الأستاذ « دو بريل » غلا فى نظريته وسلك فيها مسلك الفيلسوف لامسلك المؤرخ . فيجب أن نلاحظ أن سبيل المؤرخ تخالف سبيل الفيلسوف ، وقد تضادها مضادة كاملة فتذهب إحداهما إلى الشمال ، وتذهب الأخرى إلى الجنوب . ذلك لأن الفيلسوف يخضع فى فلسفته لقواعد معينة مرسومة فى ذهنه . فمن المعقول جداً أن ينتقل من مقدمة إلى مقدمة حتى يصل إلى النتيجة التي يسعى اليها ، سواء أكان بحثه صحيحا أم غير صحيح فى نفسه . فاذا رأى الأستاذ « دو بريل » أن فلسفة سقراط تكاد تكون موجودة برمتها عند الفلاسفة الذين تقدموه ، وأن شخصية سقراط غامضة متناقضة عند تلاميذه وفيما تركوا من الأسفار ، وأن شخص سقراط كان موضوع العبث والسخرية عند الشعراء الممثلين كان من اليسير عليه أن يصطنع المنطق فينظم مقدماته و يرتبها حتى يصل إلى هذه النتيجة ، وهي أن سقراط شخص خرافى . هذه النتيجة مطمعة خلابة ، لأنها تخرق الاجماع أولا . ولأنها تخيل إلى صاحبها أنه قد رد الأمر إلى نصابه فأثبت اتصال الفلسفة ونفى انقطاعها ، ولأنها بعد هذا وذاك إن أفلحت كانت خليقة أن تخلد اسم صاحبها فى تاريخ الفلسفة كما خلد اسم « ولف » فى تاريخ الأدب اليونانى . هذه سبيل الفيلسوف . أما سبيل المؤرخ فمخالفة كل المخالفة لهذه

السبيل، فهى لا تتبع قوانين منطقية معينة، و إنما تتبع الحياة الانسانية العملية. والحياة الانسانية العملية لا تزال تظهر لنا إلى الآن مختلفة مضطربة متناقضة. لأننا لم نوفق بعد إلى استكشاف قوانينها الخفية. فمن المعقول جدا أن يظهر للفيلسوف شيء يراه منتظما منتجا ولا يقره التاريخ. ومن المعقول أن يرجح المؤرخ شيئا لا يقره الفيلسوف. وليس فى هذا شيء من الغرابة. فالفيلسوف بطبيعته منكر لحياة الناس العاديين يزدريها و يستخفها. والناس العاديون منكرون لحياة الفلاسفة يزدريها بعضهم و يكبرها أكثرهم، ولكنهم جميعا يرون أنها تخالف أطوارهم وعاداتهم. ومن هنا وجد التناقض بين حياة الناس وفلسفة الفلاسفة. وسبيل التاريخ أن يبحث عن حياة الناس كما يحيونها لا كما يتصورها الفيلسوف. فليس غريبا أن يؤمن المؤرخ بوجود سقراط، و يعجز فى الوقت نفسه عن شخصيته و إزالة ما حولها من الغموض. أضف إلى هذا أن هناك أشياء يخرج الشك فيها عن طور المعقول. فالعصر القديم والقرون الوسطى والعصر الحديث لا تعرف قبل المسيو «دو بريل» نصا يشير إلى الشك فى وجود سقراط. بل هناك شيء آخر ذكره الأستاذ «لفيفر» وعجز الأستاذ دو بريل عن دحضه، وهو أن قصة سقراط تَصِمُ الآتينيين بجناية منكرة، هى قتل هذا البطل العظيم ظلما وفى غير إنصاف. والتاريخ

يثبت أن الآتينيين كانوا يغارون على شهرتهم وحظهم من حسن الذكر. فكيف نتصور أن هؤلاء الناس وصموا أنفسهم بهذه الوصمة؟ أو سكتوا عن الذين وصموهم بهذه الوصمة: عن أفلاطون وكسنوفون وغيرهما من تلاميذ سقراط. ألم يكن معقولا أن يغضب الآتينيون لهذه التهمة المنتحلة التى كان يستغلها أعداؤهم الكثيرون؟ هناك شيء آخر وهو أننا إذا استبحنا لأنفسنا الشك من غير حساب، لم ندرِ الى أى حد ينتهي بنا الشك فى التاريخ. فما الذى يمنع الأستاذ «دوبريل» من أن يشك غدا فى وجود أفلاطون وبعد غد فى وجود أرسطاطاليس؟ ومن يدرى لعل شخص نابليون بعد زمن قليل أو كثير يصبح عند بعض الباحثين شخصا خرافيا كشخص هوميروس أو كشخص سقراط عند الأستاذ «دوبريل». قلت لك إن سبيل المؤرخ تخالف سبيل الفيلسوف، وإن الأول يستطيع بل يجب عليه أحيانا أن يقِرّ ما ينكر الفيلسوف وأن ينكر ما يقر الفيلسوف. ولقد انتقلت من هذه اللجنة إلى لجنة أخرى هى لجنة تاريخ الديانات وكنت غير مقتنع برأى الأستاذ «دوبريل» فسمعت فى هذه اللجنة الثانية أحد أساتذتى وهو الأستاذ «جينيبير» يتكلم ورأيت الناس من حوله فى هرْج ومرْج. ووددت حين سمعت ما كان يقول لو حضر الأستاذ «دوبريل». ذلك لأن الأستاذ «جينيبير» كان يعلن

مبتسما ساخراً أن أعداء التاريخ ثلاثة : عالم الدين ، ورجل القانون والفيلسوف . ضحك ناس وسخط ناس واحتج آخرون . أما أنا فضحكت ولم أسخط ولم أحتج ، وإنما هنأت الأستاذ . وهنا أعتذر إلى علماء الدين وإلى رجال القانون ، وأسأل صديقي منصور عن رأيه في هذا : أحق أن الفيلسوف عدو للتاريخ ؟

باريس في ٢٠ إبريل سنة ١٩٢٣

obeikandl.com

٥

فكرت فى مصر ، وفى نص الدستور على السودان ، وفى وزارة الشعب ، وفى الوزارة القائمة يوم الثلاثاء ١٠ إبريل حين كنت أسمع بعد الظهر فى جلسة عامة للمؤتمر خطبة قيمة دقيقة ممتعة كان يلقيها الأستاذ الفرنسى « بريمون » كانت الخطبة قيمة ممتعة ، لأنها كانت تفسر لنا لغزاً من ألغاز التاريخ — الفرنسى الانجليزى — وتوضح لنا ألقابا وعنوانات نجدها فى نصوص السياسة الخارجية الفرنسية والانجليزية قبل الثورة الفرنسية . وكانت دقيقة لذيذة لأنها كانت تلقى بمحضر من قوم مختلفين يمثلون أمما مختلفة . و بمحضر كثير جدا من الانجليز وكثير جداً من الفرنسيين . وكان الذى يلقيها فرنسيا . وكان رئيس المؤتمر حينئذ انجليزيا . والناس يذكرون ما بين فرنسا وانجلترا من خلاف ومشادة ومنافسة فى الشرق والغرب فلم يكن بد للأستاذ الفرنسى من أن يصطنع الدقة والتلطف وحسن المدخل حتى لا يؤذى أولئك ولا يهيج هؤلاء . ولا تقل كان المؤتمر علميًّا والعلماء فوق السياسة . فسأحدثك فى غير هذا المقال بما يثبت لك أن العلماء ليسوا فوق السياسة . وأنهم كغيرهم من الناس يخضعون للعاطفة الوطنية و يندفعون معها والفرق بينهم و بين العامة أنهم يجتهدون فى أن يزنوا هذا الاندفاع

وألا يضحوا بالعلم فى سبيل السياسة وقلما يوفقون . ولكنى أثنيت على الخطبة وأطلت الثناء ولم أحدثك بموضوعها

كان موضوع هذه الخطبة لقباً من ألقاب ملك انجلترا . فقد كان ملوك انجلترا يلقبون أنفسهم بهذا اللقب وهو « ملك فرنسا » وكانوا يصطنعون هـذا اللقب ويحرصون عليه الحرص كله فى علاقاتهم السياسية بملوك فرنسا . ولم يكن ملوك فرنسا يستطيعون أن يصطنعوا هذا اللقب . فكانوا يلقبون أنفسهم بأصحاب الجلالة المسيحية جداً . وحاول لويس الرابع عشر أن يحمل ملوك انجلترا على أن ينزلوا عن هذا اللقب فلم يفلح . ولم يفلح بعده لويس الخامس عشر . وغريبة جداً الحيل التى كان يتخذها المندوبون السياسيون للويس الرابع عشر وللويس الخامس عشر ، ليمحوا هذا اللقب من ألقاب ملك الانجليز ، أو ليخفوه دون أن يوفقوا حتى لقد حاول بعضهم أن يمحو هذا اللقب من النص الفرنسى لمعاهدة بين البلدين على أن يبقى فى النص اللاتينى . لأن الجمهور يقرأ النصوص الفرنسية ولا يقرأ النصوص اللاتينية فلم يفلح . وحتى لقد كان أحد ملوك انجلترا منفياً مخلوعا . وكان يأوى إلى فرنسا ، وكان ضيفاً على لويس الرابع عشر وكان لويس الرابع عشر يحميه ويدفع عنه . وكان مع ذلك يلقب نفسه ملك فرنسا . ولم يوفق الفرنسيون إلى محو هذا

اللقب من ألقاب ملوك الانجليز إلا أيام الثورة ، أو بعبارة أصح أيام القنصلية . فقد اشتد الخلاف بين مفوضى الجمهورية الفرنسية ومفوضى المملكة الانجليزية حول هذا اللقب . وكانت حجة الفرنسيين أن الثورة قد ألغت الملكية من فرنسا فهى لا تعترف بلقب يخيل أن لفرنسا ملكا ، كائناً من كان ، سواء أكان هذا الملك فرنسياً أم غير فرنسى ، وسواء أكان ملكا حقاً أم لفظاً ، وأن الانجليز الذين يريدون أن يعترفوا بالجمهورية يجب عليهم — ليكونوا منطقيين مع أنفسهم — أن يمحوا هذا اللقب من ثبت الألقاب الملكية . وأبى الانجليز ذلك فانقطعت المفاوضات واستؤنف الجهاد بين البلدين . فلما كانت القنصلية وظهر الميل إلى الصلح بين الانجليز والفرنسيين . وأخذ الساسة فى البلدين يوطئون لمعاهدة « أميان » (Amiens) أحس الانجليز أنهم إذا لم ينزلوا عن هذا اللقب فستنقطع المفاوضات وأحسوا فى الوقت نفسه أنهم إن نزلوا عن هذا اللقب بمقتضى مفاوضات بينهم وبين فرنسا ، كان هذا النزول انتصاراً لفرنسا وخزيا وطنياً للانجليز . فانتهزوا فرصة ضم إرلندا إلى المملكة الانجليزية ، وصدر آخر ديسمبر سنة ١٨٠٠ مرسوم ملكى يعلن أن ملك انجلترا سيلقب من أول يناير سنة ١٨٠١ ملك « بريطانيا

العظمى و إرلندا » ولم يذكر اللقب الذى كان عليه الخلاف ، وهو ملك فرنسا . وبهذا محى هذا اللقب ولم يحتج الفرنسيون إلى أن يفاوضوا فى محوه . ولم يحتج الانجليز إلى أن يتخذلوا فى المفاوضة . ولكن هذا لم يمنع المؤرخين الانجليز من أن يعترفوا فى أواسط القرن الماضى بأن هذا النزول كان خزيا وطنياً وامتهانا لكرامة التاج

ذكرت مصر وذكرت نصوص الدستور على السودان . وذكرت تلقيب ملك مصر بأنه ملك السودان . وذكرت هذه السهولة التى أظهرتها وزارة مصرية فى النزول عن هذا اللقب ، ولو إلى أجل . ذكرت ذلك فاستخذيت لوزارتنا . ومن ذا الذى يذكر هذا ولا يستخذى ؟ جاهدت انجلترا قروناً لتحتفظ بلقب لا خير فيه فلم يكن ملك انجلترا ملكا لفرنسا أيام لويس الرابع عشر . بل كان ملك انجلترا يخشى ملك فرنسا . ومع هذا كان يلقب نفسه ملك فرنسا . لم يكن هذا اللقب مفيداً ، بل كان مضحكا . ومع ذلك لم تنزل عنه انجلترا إلا حين اضطرت اضطراراً شديدا إلى النزول عنه أما نحن — أستغفر الله — ! — أما وزارتنا فقد نزلت عن هذا اللقب : « ملك السودان » . وهى تعلم أنه ليس لقباً لفظياً . وهى تعلم أنه لقب يمثل الحق والعدل والقانون وأن الاحتفاظ به احتفاظ بحق مصر . والتفريط فيه تفريط فى حق مصر . نزلت عنه ولمَّا تُضَحِّ

فى الاحتفاظ به بالقليل ولا بالكثير . نزلت عنه لأن مثل انجلترا قطب جبينه ولوى وجهه . ذكرت هذا كله وذكرت جهاد الانجليز فى الاحتفاظ بلقب سخيف ثم إصرارهم على ألا تحتفظ مصر بلقب هو كما قلت مثل الحق والعدل والقانون . استخذيت لوزارتنا وسألت الله أن يمنح مصر ساسة يستطيعون أن يقاوموا ساسة الانجليز !!! ثم سمعنا خطبتين : إحداهما عن نقوش يونانية استكشفت فى آسيا الصغرى ألقاها عالم انجليزى . والأخرى عن أثر الخرافات والنبوات فى سياسة الجمهورية الرومانية ألقاها عالم بولونى . ثم انصرفنا إلى القصر وكانت الساعة الخامسة من هذا اليوم قد ضربت موعداً لمثول أعضاء المؤتمر بين يدى الملك والملكة . فرأيت فى هذا القصر أشياء كثيرة تركت فى نفسى آثاراً قوية . رأيت قبل كل شىء مظهرا من مظاهر حب العلم والتهالك عليه والافتتان فى نصره . ومظهرا من مظاهر الوطنية الصادقة القوية . ومظهراً من مظاهر إجلال أوربا لعلمائها وإكبارها لمكانتهم ، ومفاخرتها بهم ، وكان الذى يمثل هذه المظاهر رجلا شيخا فانياً قد تجاوز السابعة والثمانين وانحنى على العصا فما يستقيم له ظل ، وانحلت قواه فما يمشى إلا متثاقلا . وما يكاد يَسْتَقِلُّ بنفسه فهو محتاج أبداً إلى من يعتمد عليه . وكان مبتسما . وكان فرحا . وكان يتلطف فى الحديث إلى كل من ذهب يحييه ، وقد ذهبنا كلنا نحييه .

وكان وحيدا ، أي لم يكن يمثل بلده سواه . وكان جالسا على كرسي فى ناحية من نواحى البهو الذى كنا ننتظر فيه وقوفا أن يؤذن لنا بتحية الملك . هذا الشيخ الذي كانت تحوطه بلجيكا والذى كان يرعاه المؤتمر كله ، هو الأستاذ « شميت » (Sehmidt) أقبل من كوبنهاجن يمثل الدانمرك فى المؤتمر . وألقى فى لجنة الشرق خطبة عن مقدار علم المصريين القدماء بتاريخ مصر القديم ، فكان لخطبته فوز وتحدثت بها صحف بلجيكا . ذهبت إلى هذا الرجل فحييته وشكرت له عنايته بتاريخ مصر . فما أشد ما أثرت فيه تحيتى وشكرى . وما أحسن ما أظهر ميله إلى مصر وإعجابه بمصر وأمله فى مستقبل مصر .

أذن لنا فى الدخول ، ورتبنا حسب أحرف الهجاء . فدخل أعضاء المؤتمر البلجيكيون ، ثم ممثل البرازيل ، ثم الشيخ الفانى ممثل الدانمرك وكنا اثنين يمثلان مصر . وكانت زوجى تصحبنى . وكنا وراء هذا الشيخ ، فسمعنا تحية الملك له وسمعناه يتحدث بكلام كثير إلى الملك لم نفهم منه شيئا ، ولم يفهم الملك منه شيئا . لأن الرجل متقدم فى السن فهو لا يكاد يبين إذا تكلم الفرنسية . ثم أراد الرجل أن ينصرف فزلت قدمه وكاد يسقط ثم صافح الملكة وأراد أن ينصرف وكاد يسقط ولولا أن كبير الأمناء كان يسنده لهوى إلى الأرض

مررنا أمام الملك والملكة فصافحنا الملك وأعلن إلينا أنه سعيد

obeikandl.com

برؤية مصرى وأن الملكة كانت سعيدة جداً بما أظهر المصريون لها من الكرم وحسن الضيافة . وصافحتنا الملكة فأعلنت إلينا اغتباطها بهذه السياحة البديعة التى ساحتها فى هذا البلد الذى ليس له مثيل . ثم مرت بعدنا انجلترا فذكرت أنا مستقلون وأنا لا نتبع تركيا وأنا لا نتبع انجلترا وأن تصريح ٢٨ فبراير ليس لغوا ولا حديثاً من الأحاديث . وإنما هو حقيقة واقعة ليست عبثا بالعقول كما يظن كثير منا فى مصر .

خرجنا من غرفة الاستقبال وكنت أظن أن لم يبق لنا إلا أن ننصرف . ولكنى دهشت حين وجدت نفسى فى غرفة قد مُدت فيها الموائد ووقف خدم القصر يقدمون إلى أعضاء المؤتمر الشاى وأنواع الحلوى والأشربة (التى يبيحها الاسلام) وإنا لفى شاى وحلوى وبرتقال يتبع بعضنا بعضاً كلما فرغت طائفة من تحية الملك تقدم إليها الخدم فسألوها عما تشتهى حتى انتهت المقابلة . أقول إنا لفى هذا كله وإذا الملك والملكة والأمراء قد خرجوا من غرفة الاستقبال واختلطوا بالناس ، وانبثوا فى أنحاء الغرفة يتحدثون إلى المؤتمرين مع شىء من السذاجة وارتفاع الكلفة غريب . وكان الرئيس البلجيكى للمؤتمر الأستاذ « بيرين » (Pirenne) يتتبع كبار العلماء وذوى المكانة منهم فيقدمهم إلى الملك مرة ، وإلى الملكة مرة أخرى ، وكان

المؤتمرون الباجيكيون يتتبعون بقية الأعضاء فيقدمونهم حينا إلى ولى العهد وحينا آخر إلى أخيه وحينا آخر إلى أخته وقد قُدِّمْتُ أنا وزوجى إلى هذه الأميرة الصغيرة ، وهي فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ، مشرقة يتحدث وجهها بما يملؤها من قوة الشباب وبما لا يزال يملكها من سذاجة الطفولة ونعومتها ، في زى ساذج عادي ، كالذى تصطنعه الفتيات فى أسر الطبقات الوسطى فى أوربا وفى مصر . قدمنا اليها على أننا نمثل مصر . وقال مقدِّمُنا إننا نمثل بلدا غريبا لا لما تتكشف عنه المباحث العلمية من عجائب تاريخه القديم بل لما يبهر عقول الأوروبيين من حركته المدهشة ونهضته السريعة التى بدأت منذ سنين فقطعت فى زمن قصير ما أفنت أوروبا فى قطعه طوال الأعوام . فسألت الأميرة زوجى عن المرأة المصرية ومقدار رقيها ، وإن زوجى لتصف لها سرعة رقى المرأة المصرية إذ أقبلت سيدة بولونية عالمة مؤرخة من أعضاء المؤتمر ، فاندفعت إلى الأميرة دون أن تقدم إليها ، ودون أن تستأذن . ثم أسرعت إلى يد الأميرة فهزتها هزاً عنيفاً وسألت الأميرة بصوت غليظ : أتحبين التاريخ ؟ أجابت الأميرة فى استحياء : نعم يا سيدتى ، وأى فرع من فروع التاريخ تحبين ؟ بُهِتَت الفتاة لحظة ثم قالت : إنى لم أحسن درس التاريخ ولا أعلم منه إلا قليلا ، فلا أستطيع أن أوثر فرعا من فروعه دون الآخر .

ضحكت السيدة ضحكاً عالياً ثم هزت يد الأميرة هزاً عنيفاً وقالت في صوتها الغليظ : أدرسي تاريخ الفن فهو سهل والناس جميعاً يستطيعون أن يفهموه . ثم مضت لشأنها . وقدم إلى الأميرة ناس آخرون . ولبثنا كذلك ساعة . ثم انصرف الملك والملكة والأمراء فانصرف كل منا إلى مأواه

عرفت في هذه المرة أيضاً لِمَ يحب البلجيكيون ملكهم وملكتهم وأمراءهم . وكيف لا أفهم ذلك وقد أقبل من قدّمنا إلى الأميرة فصاح بي : مسيو حسين ، تعال أقدمك إلى أميرتنا الصغيرة . وكيف لا أفهم ذلك وقد سمعت الأستاذ « بيرين » يصيح بأعلى صوته : « برنس ليو بولد ! أين البرنس ليو بولد ؟ أين ذهب ؟ إني أريد أن أقدم إليه . . . » فيجيبه أحد البلجيكيين : « ها هو ذا يتحدث إلى فلان » فيذهب الأستاذ بيرين ويمهل الأمير حتى إذا فرغ من حديثه أخذ بذراعه ومضى حتى يقدمه إلى أحد العلماء . والملكة تتنقل بين صفوف المؤتمرين فتتحدث إلى هذا وتسأل ذاك وتبسم لهذا وتصافح ذاك .

كيف لا أفهم حب البلجيكيين لملكهم وملكتهم وأمرائهم وهم على هذا الحظ من الديمقراطية ؟

ألاَ إننا في عصر تنتصر فيه الديمقراطية انتصاراً مدهشاً .

لاتستقر فى مجالس النواب ولا فى مجالس الشيوخ ، و إنما تتجاوز هذه المجالسَ إلى قصور الملوك ، فينزلها هؤلاء الملوك من قصورهم أحسن منزل لأنهم يفهمون أن عروشهم لاتستطيع أن تقوم إلا عليها . لأنهم يفهمون أن نظام الملك قد أصبح لايلائم هذا العصر لأنه أثر قديم لامعنى له الآن إلا إذا لم يكن بين الملوك ورؤساء الجمهوريات فرق ما . إلا إذا اعتمدت عروش الملوك على قلوب الشعب لا على قوة الجيش ولا على قوة السنة القديمة .

فهم بعض ملوك أوربا هذا فاستقرَّت عروشهم و يظهر أنها تريد أن تستقر أبداً . ولم يفهمه بعضهم الآخر فهم الآن يذوقون مرارة النفى على شواطىء بحيرة « ليمان » (Léman) فى سويسرا .

باريس فى ٢٥ إبريل سنة ١٩٢٣

٦

أصبحنا يوم الأربعاء ١١ إبريل فتفرقنا لا فى أنحاء بروكسل بل فى أنحاء بلجيكا . ذلك أن الذين أشرفوا على تنظيم المؤتمر لم يفكروا فى جمع المؤرخين من أقطار الأرض و إيجاد الصلة بينهم وتمكينهم من أن يعلم كل منهم ما عند صاحبه من التاريخ . و إنما فكروا مع ذلك فى شيئين آخرين ، و إن شئت فقل فى أشياء أخرى : فكروا فى أن البحث العلمى الجاف ثقيل حتى على أنفس العلماء ولا بد من أن يتخلل بحثهم العلمى شىء يَسُرُّ و يُرْضِى و يفيد ، دون أن تكون الصلة منقطعة بين هذا الشىء و بين البحث العلمى الذى يشتغل به العلماء . وأى شىء ألذ وأنفع وأشد صلة بالتاريخ من زيارة الآثار التاريخية المختلفة التى تنبث فى جميع أنحاء بلجيكا بكثرة مدهشة ؟ ولا سيما اذا لم تكن هذه الآثار تاريخية فَحَسْبُ ، بل كانت مع ذلك آيات بينات من آيات الفن الجميل على اختلافه . فكر البلجيكيون فى ذلك ، وفكروا فى شىء آخر وهو أن بلدهم يخرج من حرب ضروس قد أخضعته لضروب من المحن والحرمان لم يعرفها قبل هذه الأعوام الأخيرة وهو الآن يجتهد فى إصلاح ما أفسدت الحرب ، وهو محتاج فى هذا الاصلاح إلى عطف الأمم على اختلافها ، ومن هنا كان

محتاجا إلى نشر الدعوة و بعث عواطف الاعجاب والاجلال والاشفاق. والفرصة سانحة فالمؤتمر يمثل أكبر أمم الأرض . وأعضاء المؤتمر من خيرة الذين يمثلون الأمم ، لأنهم علماء ، وكلهم أستاذ أو مؤلف . و إذن فكلهم قادر على نشر الدعوة ، ماهر فيه ، وإذن فلا بد من التأثير في هؤلاء العلماء وإحياء هذه العواطف المختلفة في نفوسهم ، وأى سبيل أهدى إلى ذلك من زيارة الآيات الفنية البينة؟ ! ! أضف إلى هذا أن تفرق المؤتمرين فى أنحاء بلجيكا لا يخلو من فائدة اقتصادية في بلد ساء القطع فيه واشتد فيه غلاء الحياة . فكثير جداً من المؤتمرين قد وفدوا من بلاد غنية مثرية فهم يستطيعون أن ينفقوا عن سعة ، دون أن يخسروا كثيرا . و بلجيكا فى حاجة إلى أن ينفقوا وليس ينبغى أن يقتصر إنفاقهم على مدينة بروكسل فهناك مدن بلجيكية أخرى تحتاج إلى هذا الانفاق . وإذن فيحسن أن يتفرق المؤتمرون فى أنحاء بلجيكا لينتفعوا هم ولتستفيد بلجيكا من الوجهة المادية والمعنوية ، لهذا كله خصص الذين نظموا المؤتمر يوم الأربعاء ١١ إبريل لسياحات تاريخية أو أثرية أو فنية . وعينوا مدنا مختلفة يختارها من شاء من المؤتمرين . وندبوا فى كل مدينة أستاذاً أو أساتذة يقودون المؤتمرين ويرشدونهم ويفسرون لهم ما يرون ، فذهب بعض المؤتمرين إلى مدينة « بروج » (Bruges) و بعضهم إلى

« جان » (Gand) و بعضهم إلى « ليبج » (Liéeg) وآخرون إلى « انفرس » (Anvers) وكثير إلى المدينة الشهيدة المعذبة مدينة « لوفان » (Louvin)

وكنا بين الذين ذهبوا إلى « بروج » فوصلنا إلى هذه المدينة فى الساعة الثامنة من صباح يوم صحو قد صفت فيه السماء وانتشرت فيه الشمس الفاترة على هذه المدينة المشرفة على الموت ، والتى أزهرت في القرون الوسطى إزهاراً لم تعرفه مدينة بلجيكية أخرى . والتى لا تكاد تقع فيها العين على شىء حديث وإنما كل شىء فيها قديم . كل شىء فيها يرجع عهده الى القرن العاشر والحادى عشر ، وأحدث ما فيها يرجع عهده إلى القرن السادس عشر . مدينة هادئة مطمئنة لا تكاد تحس حركة ولا اضطرابا إلا ما يحدثه الترام على هذه الأرض التى لم يصطنع فيها « الأسفلت ولا المكدام » وإنما حجرت على طريقة القرون الوسطى . فالمشى فيها شاق متعب مهلك للأحذية . وللترام والعربات فيها ضجيج شديد . مدينة هادئة مطمئنة فقيرة جداً ولكنها غنية جداً . فقيرة لأن الحياة الاقتصادية الحديثة صرفت عنها الحركة التجارية والصناعية ، وغنية بما فيها من آثار الفن وبما فيها من مصادر التاريخ ، فقيرة غنية فأهلها يعيشون من الأجانب كما حدثنا الأستاذ الذى كان يرشدنا إلى الآثار فى هذه المدينة .

مدينة هادئة مطمئنة لا تكاد تشعر بأنها تعيش فى القرن العشرين لأنك لا تنظر فيها إلا إلى شىء قديم . فهى مدينة خليقة حقاً بأن يعيش فيها من يكلف بالتاريخ ومن يكلف بالفن على اختلاف ضروبه بنوع خاص . كل شىء فى هذه المدينة يحببها إلى المؤرخ ويحببها إلى الفنى ويحببها إلى الشاعر . لأنها كلها آثار ولأنها كلها فن ولأنها كلها شعر . وهى إلى هذا كله من الهدوء والطمأنينة والدعة بحيث يستطيع المؤرخ والفنى والشاعر أن يستمتع فيها بتاريخه أو فنه أو شعره دون أن تصرفه عما يحب جلبة الحياة أو ضوضاء الأحياء

تَلَقَّانا فى هذه المدينة مدير المحفوظات وعالم آخر من علماء الآثار . وكنا نحو الخمسين فقضينا اليوم كله على أقدامنا واقفين أمام مشهد من المشاهد ، أو منطلقين من هذا المشهد إلى مشهد آخر . نخرج من كنيسة إلى كنيسة ، ومن دار إلى دار ، ومن متحف إلى متحف ونحن عجلون لأننا لن نجد من الوقت ما يمكننا من أن نشهد كل شىء ، أو أن نحقق النظر فى شىء . وإنما نمر سراعا أمام الأشياء كأننا فى دار الصور المتحركة ، إلا أننا نحن الذين يتحركون بينما الصور هادئة مستقرة فى أماكنها . قضينا اليوم كله على الأقدام إلا ثلاث ساعات قضينا إحداها في الفندق للغداء . وأؤكد لك أن أصحاب هذا الفندق عرفوا أننا أجانب وعرفوا كيف يستفيدون من هؤلاء الأجانب .

وأؤكد لك أنهم حمدوا للذين نظموا المؤتمر هذه الفكرة التى حملتهم على أن يرسلوا بعض المؤتمرين إلى مدينتهم .

يظهر أنه لم يكن هناك ماء للشرب . فكنت مضطراً إلى أن تشرب النبيذ أو الجعة أو الماء المعدنى . وكل هذا يباع ويشرى . وأوكد لك أن ثمنه ليس بالبخس ولا بالقليل . فزجاجة الماء المعدنى لم تكلفنا أقل من ثلاثة فرنكات . ولم نخرج من الفندق حتى أنفقنا أنا وزوجى خمسة وأربعين فرنكا . ولم يكن الطعام رديئا ولكنه لم يكن من الجودة بحيث يستأهل هذا الثمن الباهظ . قضينا ساعة فى الفندق وقضينا ساعتين أخريين أحسبهما من أسعد ساعات الحياة ، قضيناهما فى زوارق صغيرة طافت بنا حول المدينة . ذلك أنى أُنسيت أن أنبئك بأن « بروج » تسمى « فينيس » الشمال لأن الماء يتخللها فى جميع أنحائها ، ولأنك تصطنع فيها الزوارق كما تصطنع العربات فى مدينة أخرى ، ولست أدرى ماذا تنتج المقارنة بين مدينة « فينيس » ومدينة « بروج » فكلتا المدينتين غنية بآثارها ، وكلتا المدينتين غنية بجمال منظرها وحسن موقعها الطبيعي . ولكنى أحسب أن الذى يبحث عن الهدوء والدعة ، ويريد أن يستمتع بالجمال والفن فى غير اضطراب ، إنما يجد ذلك فى هذه المدينة الشمالية الميتة أو التى توشك أن تموت . فى هذه المدينة التى لا تمنحها الشمس حظها من الضوء

إلا بمقدار . والتي يكاد الضباب يجللها دائما فيمنحها شيئاً من الروعة والجلال ما أحسب أنك تجدهما في « فينيس » وإن وجدت مكانهما هذا الجمال المبتهج المشرق الذي تمتاز به مدن الجنوب .

لقد أريد أن أحدثك عما في هذه المدينة من الآثار ومن آيات الفن ، ولكني عاجز كل العجز عن هذا ، وأحسبك لا تجهل مصدر هذا العجز ، وبم أحدثك ؟ لقد زرنا آثاراً كثيرة وسمعنا دروساً قيمة . ولو أني ذهبت أحدثك بما سمعت أو بما وصف إلى في أثر من الآثار أو صورة من الصور ، لاحتاج ذلك الى مقال طويل وأنا بعد أريد أن أجتزىء وأن أفرغ من نبأ المؤتمر .

في هذه المدينة أجمل ما في بلجيكا من نماذج العمارة في القرون الوسطى ، وفيها أجمل ما في بلجيكا من نماذج التصوير في القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ، وفيها إلى هذا آثار مختلفة تمكن المؤرخ من أن يتصور كيف كان يعيش أهل بلجيكا في القرون الوسطى . زرنا قصراً قديماً يسمي قصر « جريتوس » فاذا القصر نفسه أثر من أبدع آثار القرون الوسطى . ولكن ما في القصر أبدع وأجمل ، فقد اجتهدت المدينة في أن تحول قسما منه إلى متحف نظمت فيه الأدوات المنزلية كما كانت منظمة في القرون الوسطى .

فاذا زرت هذا المتحف عرفت كيف كان أهل البيت يجتمعون إلى

obeikandi.com

طعامهم ، وكيف كانوا يُعِدُّون هذا الطعام . وكيف كانوا يجتمعون إلى سمرهم ، وماذا كانوا يتخذون في حياتهم من أداة ومتاع . وأجمل ما في هذا القصر من المعروضات « الدنتلا » فقد عُرِضَتْ منها ضروبٌ غيري أَقْدَرُ على أن يصفها . ولكني أعلم أنها بهرت المؤتمرين جميعا . ولم يكن إعجاب السيدات بها أشد من إعجاب الرجال .

ذكرت الزوارق والطواف حول المدينة ، ولكني لم أذكر — ويظهر أني لن أستطيع أن أذكر — أثر هذا الطواف في نفسي وفي نفس غيري من المؤتمرين . يكفي أن تتخيل هذه الأَقْنِيَةَ الضيقة تخترق المدينة في جميع أرجائها وقد قامت على جَنَبَاتها هذه الأبنية الجميلة الجليلة واصطفت على شواطئها الخضراء أشجار طوال تكاد أغصانها تقبل الماء من مكان إلى مكان وانبعث على هذه الشواطىء وخلال هذه الأشجار أطفال كثيرون يلعبون ويمرحون ويبسمون للحياة ، وقد عقدت على هذه الأقنية من مكان إلى مكان جسور بديعة قديمة لم يغير منها شيء . وما أنس لا أنس صوت الملاح يصف لنا ما كنا نمر به من الأبنية والعمارات ثم يقطع وصفه من حين الى حين بهذه الكلمة : « رءوسكم أيها السادة » ذلك لأنا كنا نقارب جسراً من الجسور فكان يجب أن نحني رءوسنا حتى لا تصطدم بالعقد .

أشد شيء أثر في نفسي هو إعجاب أهل « بروج » بمدينتهم ومفاخرتهم بما فيها من جمال، وحرصهم على أن يظهروا دقائق هذا الجمال للأجنبي حتى لا يفوته منه شيء، وابتهاجهم حين يرون إعجاب الأجنبي وحين يسمعون ثناءه وتقريظه. وهم في ذلك كله سواء. ليس هناك فرق بين الأستاذَيْنِ اللذَيْنِ كانا يصحبانا و بين الملاَّحِينَ الذين كانوا يطوفون بنا حول المدينة. بل ماذا أقول؟ لقد كنا في أحد المتاحف وكان الأستاذ يصف لنا بعض الآثار، ولست أخفي عليك دهشي و إعجابي حين رأيت الأستاذ يخطىء في تاريخ من التواريخ أو في شيء من الأشياء فينبهه إلى خطئه حارس من حرس المتحف و يقبل الأستاذ منه ذلك راضيا شاكراً. ولقد كنت أذكر أثناء هذا متحفنا المصري وجهل المصريين بما في ذلك المتحف. ولقد كنت أقارن مع شيء من الاستحياء كثير بين حرس المتاحف البلجيكية وزملائي من الأساتذة المصريين. فلم تكن المقارنة مرضية، ويظهر أنها لن تكون مرضية قبل زمن طويل، قبل أن يَمُنَّ الله على مصر برجال في وزارة المعارف يفهمون العلم والتعليم و يقدرونهما و يقدرون الحاجة اليهما و يشعرون بأن مناصبهم ليست مقصورة على تدبير الأموال وتدبير الألعاب الرياضية

شيء آخر دهشت له وأعجبت به هو وطنية هؤلاء الناس،

كنت لا أكاد أشك فى أن أحد الأستاذين اللذين كانا يصحبانا مجنون أو قريب من الجنون . ذلك لأنه كان لا يتحدث إلينا إلا متأثراً تأثراً شديداً فرحا مرة حتى يبلغ الضحك . ومحزونا مرة أخرى حتى يبلغ البكاء . ولست أغلو فقد كان الأستاذ يضحك ويبكى . وكنا فى عجب من أمره ثم علمنا أنه عاش فى مدينته أثناء الحرب وأنه كان بطلا من أبطال هذه المدينة ، وأنه جاهد جهاداً عنيفا ليحتفظ بآثار هذه المدينة وآياتها من غارات الألمانيين الذين كانوا يريدون أن يستأثروا بكل شىء . ولقد أثر فى نفسى صوت هذا الرجل حين كان يقول لنا : « تعالوا أيها السادة إلى الميدان الكبير فستسمعون فيه صوت جرسنا العتيق الذى لا يجهله مؤرخ . واذكروا أيها السادة حين تسمعون صوت هذا الجرس أنى أنقذته فى آخر لحظة حين كان الألمان يريدون أن يرسلوه إلى المسبك » ذهبنا إلى الميدان الكبير وسمعنا صوت الجرس : صوتا يملأ المدينة . وليس فى ذلك غرابة فهو قد أنشىء لذلك ، سمعنا صوت الجرس يوقع ألحانا موسيقية مختلفة ، وإننا لكذلك وإذا الرءوس حاسرة لأن الجرس كان يوقع النشيد البلجيكى وإذا الأستاذ ينتحب ويقول فى صوت متهدج : « معذرة أيها السادة فانى بلجيكى » ولم يكن الأستاذ يبكى وحده وإنما بكى معه بعض المؤتمرين

باريس فى ٥ مايو سنة ١٩٢٣

٧

عدنا إلى العمل صبح الخميس ١٢ إبريل فسمعت محاضرات كثيرة مختلفة لا أعرض لها لأن الصحف السيارة لا تتسع لمثلها . ولكنى أذكر محاضرة واحدة سمعتها فى لجنة تاريخ الديانات ، لأن الذى ألقاها صديق لكثير من المصريين وهو الأستاذ « لويس ماسينيون » (Louis Massinion) ولأن هذه المحاضرة أثارت مناقشة طويلة حادة ، ولأن موضوع هذه المحاضرة يمس الاسلام وهو « أثر التصوف فى تكوين العقائد الدينية عند المسلمين » . والحق أنى لم أفهم الغرض الذى رمى إليه المحاضر وإن كنت قد اشتركت فى المناقشة ، لم أفهم هذا الغرض لأنه لم يكن بيّناً ، ولأن أساس البحث الذى ذهب إليه المحاضر خطأ فيما أعتقد . فكثير من المستشرقين أمثال الأستاذ « لويس ماسينيون » على مهارتهم وحسن بلائهم فى فهم اللغة العربية وخدمتها ، يخطئون فى فهم هذه اللغة أحياناً ويقيمون على أغلاطهم نظريات طويلة عريضة عميقة ، ولكنها ليست بذات غناء . لم أفهم الغرض الذى رمى إليه الأستاذ ، وأحسب أن كثيراً من الأعضاء لم يفهم هذا الغرض ، ومع هذا فقد تناقشنا وتناقشنا كثيراً ، ولكن موضوع المناقشة لم يكن ما أراد

الأستاذ أن يثبت من تأثير التصوف فى تكوين العقائد الدينية عند المسلمين . فلم يحفل أحد من الأعضاء بهذه النظرية وإنما كان موضوع المناقشة هو أن التصوف العربى أثر خالص من آثار العرب أو شىء للعرب فيه حظ ، ولكن معظمه موروث عن الأمم الأخرى . أما الأستاذ « ماسينيون » فكان يعتقد أن هذا التصوف عربى خالص أو يوشك أن يكون عربياً خالصاً ، وأن ما يمكن أن نجد فيه من موافقة لما عند الأمم الأخرى لم يؤخذ عن هذه الأمم وإنما هى المصادفة وتوارد الخواطر ووحدة النظام العقلى فى التفكير مهما تختلف الأمم ومهما تختلف البيئات . فليس حتما إذا فكر العربى كما فكر اليونانى أن يكون العربى قد أخذ عن اليونانى ، ولكن من المعقول جداً أن يكون اليونانى والعربى قد فكرا بطريقة واحدة فاهتديا إلى نتيجة واحدة وإذن فيجب ألا نغلو فى القول بأن العرب قد أخذوا عن غيرهم هذه النظرية أو تلك

هنا اشتدت المناقشة فمن الظاهر أن توارد الخواطر ممكن . بل إنه واقع . بل إن هناك نظريات تشترك فيها أمم مختلفة دون أن تكون إحداها قد أخذتها عن الأخرى ، ولكن إمكان الشىء غير وجوده بالفعل ، وليس يستطيع التاريخ أن يكتفى بالامكان والفرض فذلك شىء قد يكتفى به الفلاسفة والمفكرون . فأما المؤرخون

فيريدون الحقائق الواقعة ولا يلجئون إلى الافتراض إلا لتفسير هذه الحقائق تفسيراً مؤقتاً حتى يتاح لهم استكشاف الحقائق الواقعة التى تفسر ما لديهم . فاذا رأينا عند العرب فكرة صوفية أو غير صوفية توافق ما رأينا عند اليونان أو عند الفرس كان لنا أن نفترض توارد الخواطر ، وكان لنا أن نفترض أن العرب قد أخذوا عن اليونان أو عن الفرس . كان لنا أن نفترض الأمرين جميعا وأن نبحث عما يرجح هذا الفرض أو ذاك . وهنا تظهر قيمة المؤرخ وتظهر قيمة التاريخ . وليس يجب أن نجد النص التاريخى الذى لا يحتمل الشك على أن العرب قد أخذوا عن اليونان أو عن الفرس لننفى توارد الخواطر ، فكثيرا ما تضيع النصوص دون أن يكون ضياعها مصدراً لضياع الحقيقة . وليست النصوص كل شىء فى التاريخ فهناك الصلات التى تختلف قوة وضعفا وتتفاوت متانة ووهنا بين الأمم . وهذه الصلات إذا ثبتت ثبوتا تاريخيا كافيا أباحت للمؤرخ أن يرجح تأثير الأمم بعضها فى بعض . وليس يجب أن يكون هذا التأثير ظاهراً يعلمه الناس جميعا ، يعلمه من أثر ومن تأثر فأشد أنواع التأثير عملا فى الحياة الاجتماعية بل فى الحياة الدولية ــ إن صح هذا التعبير ــ هو ما كان خفيا يجهله مصدره كما يجهله قابله . فاذا ثبت أن اليونان مثلا كانوا يرون هذا الرأى بعينه وكان فلاسفتهم يشرحونه ويفسرونه

ويدرسونه في المدارس المختلفة ، وأن اليونان قد وصلوا إلى الشرق ونقلوا إليه علمهم وفلسفتهم وتركوا فيه عادات وضروبا من التفكير ليس إلى إنكارها من سبيل . وإذا ثبت أن هـذه الآراء أو هذا الرأى لا يلائم ما نعرف عن بداوة العرب ولا عن صدر الاسلام ، كان من الحق أن يرجح المؤرخ أن ظهور هذا الرأى أو هذه الآراء في الفلسفة العربية أو في التصوف العربي بعد أن اختلط العرب بالأمم التي خضعت لتأثير اليونان . وبعـد أن تعربت هذه الأمم فكتبت علمها وفلسفتها بالعربية ، بعد أن كانت تـكتبهما باليونانية — أثر من آثار الفلسفة اليونانية والعلم اليوناني لا نتيجة من نتائج الابتكار العربي . وقل مثل هذا في الفقه ، فنحن نعلم أن العرب لم يترجموا فقه الرومان ولم يدرسوه درسا منظما ، ولـكنا لا نشك في أن الفقه الاسلامي قد تأثر بالفقه الروماني قليلا أو كثيرا سـواء أعلم بذلك الفقهاء أم لم يعلموا . ذلك لأن البلاد الاسلامية قد خضعت لحـكم الرومان وقوانينهم دهرا ، ولأن هذه القوانين قد درست درسا مزهرا في الشام والجزيرة ومصر ، فيجب أن يترك حكم الرومان وقوانينهم ودرس هذه القوانين آثاراً قوية في حياة الشعوب التي خضعت لها وأن تتـكون من هذه الآثار الحياة الاجتماعية لهذه الشعوب ، والعرب لم يهدموا كل شيء ، وإنما صبغوا أكثر الأشياء التي وجدوها بالصبغة

الاسلامية ، فليس غريبا بل ليس من شك فى أن كثيرا من أحكام الفقه الرومانى قد اصطبغت بالصبغة الاسلامية دون أن يشعر الفقهاء بذلك . فنحن نحسب هذه الأحكام إسلامية خالصة حين هى إسلامية رومانية . لا يغضب العلماء فانا أذكر الفروع لا الأصول ، ولعلهم لا ينكرون أن الفقهاء يعتبرون العرف في كثير من مسائل الفقه ، وأن هـذا العرف إنما يكون من النظام اليونانى والرومانى والفارسى ، هذه النظم التى تعاقبت على الشام ومصر والجزيرة . وإذن فهناك تأثير خفى قد يكون أشد وأقوى من التأثير الواضح الذى تحدثه الأمم بعضها فى بعض ، ومن الاسراف أن نقطع بأن هذا الرأى أو هذه النظرية أثر عربى خالص أو أثر يونانى خالص ، وإنما سبيل القصد فى ذلك ـ إذا لم توجد النصوص ـ هو ترجيح تأثير الأمم بعضها فى بعض حتى يظهر ما يبين خطأ هذا الترجيح

حول هذه النقطة دارت المناقشة ولم يستطع الأستاذ «ماسينيون» أن ينكر صحة هذا الاستدلال . ولكن الذى أعجبني فى هذا كله أن خمسة أو ستة اشتركوا فى هذه المناقشة غير الأستاذ « ماسينيون » وغيرى . وكان منهم الفرنسى والانجليزى وكانوا جميعاً يلمون بتاريخ الدين الاسلامى إلماماً حسناً يمكنهم من المناقشة والاستدلال ببعض النصوص ، بل أن أحدهم كان يستدل بنصوص لانستطيع

نحن فى مصر أن نستدل بها مع أنها نصوص إسلامية لأنها نصوص فارسية ولأن علماء الدين الاسلامى فى مصر يكتفون بدرس شيء من الكتب العربية . وليس منهم من يتخصص بدرس تاريخ الدين الاسلامى عند الفرس أو عند الهنود و بقراءة ما كتب الفرس أو ما كتب الهنود فى الدين . وحسبك أن المئات من علماء الاسلام فى مصر لا يعرفون إلا اللغة العربية ، ولست أطالب العلماء بدرس اللغة الفرنسية والانجليزية فقد يكون ذلك واجباً محتوماً ، و إنما أطالبهم بشيء آخر أشد من هذا وجوبا وهو أن يدرسوا الدين الاسلامى كما ينبغى . والدين الاسلامى عربى ولكن أمما غير العربية قد اعتنقته ودرسته وكتبت فيه ، وأؤكد للعلماء أن الدين الاسلامى قد أثر فى هذه الأمم كثيراً وتأثر بها كثيراً ، و إذن ؟ وإذن فمن الحق على علماء الاسلام أن يدرسوا تاريخ الاسلام لا فى مصر والشام وحدهما ، بل فيهما وفى بلاد الاسلام الأخرى . ولو أنى من علماء الاسلام ، ولو أن لى كلمة مسموعة بين علماء الاسلام ، لاقترحت وألححت فى الاقتراح أن تدرس اللغات الأجنبية الاسلامية فى الأزهر الشريف وأن تكون هناك فصول تتخصص فى درس الفارسية وأخرى فى درس التركية وأخرى فى درس اللغات الاسلامية التى ليست تركية ولا فارسية . فمن المؤلم ومن المخزى أن

تدرس كتب الدين التى كتبت بالفارسية أو بالتركية أو بلغة أخرى من لغات الهند مثلا فى فرنسا وانجلترا والمانيا وأمريكا وأن يجهلها علماء الاسلام فى الأزهر الشريف . والأزهر الشريف بعدُ هو الجامعة الاسلامية الكبرى ! ! !

هلموا أيها السادة العلماء طالبوا بأن تدرس اللغات الاسلامية فى جامعتكم الاسلامية درساً مفصلا نافعاً فانكم إن لم تفعلوا أضعتم على الأزهر حقه فى أن يكون الجامعة الاسلامية الكبرى . وليس ينبغى أن تكون مدرسة اللغات الشرقية فى باريس أنفع من الأزهر الشريف .

أليست المطالبة بهذا والالحاح فيه أوفق بعلماء الدين وأجدى عليهم وعلى الدين من مطالبة من كان يطالب بأن تكون المعاهد الدينية فوق الدستور ؟

أما مساء الخميس فقد كان لذيذاً لأنا قضينا شطرا منه نستمتع بلذة الموسيقى وقضينا الشطر الآخر فى بيت وزير المعارف . اجتمعنا الساعة الثانية فى كنيسة أثرية كبرى فى بروكسل هى كنيسة « سانت جودول » وكنا قد دعينا إلى هذا الاجتماع لا للصلاة ولا للتقديس ، ولكن للدرس والتاريخ فى لذة ومنفعة . هنا خطبنا قسيس فلم يتحدث إلينا فى دين المسيح ولم يفسر لنا إصحاحاً من

الانجيل أو آية من التوراة . وإنما تحدث إلينا فى الفن . وتحدث إلينا فى الآثار . ذلك أن هذه الكنيسة قديمة بعيدة العهد بالتاريخ ، بدىء فى إنشائها فى القرن الثانى عشر واختلفت عليها أطوار الفن والعمارة إلى آخر القرن السابع عشر . فخطبنا هذا القسيس ساعة وبعض ساعة مبينا لنا هذه الأطوار المختلفة التى مرت بها الكنيسة مقارناً بين هذه الكنيسة وبين مايشبهها من كنائس فرنسا وألمانيا من الوجهة الفنية خالصة ، مناقشا آراء بعض الفنيين والأثريين من الألمان والفرنسيين ، لأن هذه الكنيسة لاتزال تشغل الباحثين إلى اليوم وإلى الغد . أعترف بأنى لم أكن أفهم شيئاً كثيراً من خطبة القسيس لأنى لست أثرياً ولا فنياً ولا أكاد أتصور فن العمارة ، ولكنى مع هذا كنت أعجب بهذا القسيس إعجابا شديداً لا يعدله إلا إعجابى بقسيس آخر خطبنا فى المؤتمر خطبة ليس بينها وبين الدين صلة لأنها كانت تتناول نسخة قديمة يختلف العلماء فى تحديد العصر الذى نسخت فيه ، فيرى بعضهم أنها نسخت فى القرن العاشر وبعضهم قبل ذلك وبعضهم بعد ذلك ويحكم القسيس بين هؤلاء العلماء المختلفين . كنت إذن أعجب بهذين القسيسين ، ولعل مصدر إعجابى بهما لا يخفى على السادة العلماء . وأنا أعتذر إلى السادة العلماء ، فلست أريد أن أغضبهم وما أبغى

بهذا الحديث إلا الخير لهم ولنا . ذلك لأن علماءنا لا يستبدون بملك أنفسهم فلنا عليهم بعض الحقوق لأننا نريد أن يكون علماء الدين فينا أئمة وفخرا فى وقت واحد . ويؤلمنى جداً أن أقارن بينهم وبين رجال الدين فى أوربا . لأن هذه المقارنة لا تسرهم ولا ترضيهم كما أنها لا تسرنا ولا ترضينا وكما أنها تدل على أن الفرق عظيم جداً بين علماء الدين اليوم وبينهم منذ قرون .

هذا قسيس قد درس دينه فأتقنه وهو يؤدى واجبه الدينى . وأؤكد لك أن الواجب الدينى الذى يؤديه القسيس أشق وأعسر وأشد استغراقا للوقت من الواجب الدينى الذى يؤديه العالم المسلم ، لأن الاسلام دين هين لين سهل لا كلفة فيه ولا تعقيد . وحسبك أن صلاة المسلم تستغرق دقائق ، وأن صلاة القسيس المسيحى لا تقاس بالدقائق . وحسبك أن العالم الدينى عندنا إذا صلى وأدى واجباته الدينية الشخصية وألقى درسه أو درسيه فهو حر . وأن القسيس ليس له من الحرية مثل هذا المقدار العظيم . ومع ذلك فالقسيسون فى أوروبا لا يكتفون بدرس الدين وأداء واجباتهم الدينية . وإنما كثير منهم رجال دين ورجال علم ، وكثير منهم رجال دين ورجال فن . وكثير منهم يستطيع أن يناهض العلماء والفنيين الذين اختصوا بالعلم والفن فيهضمهم ويتفوق عليهم . وهذان القسيسان اللذان ذكرتهما

قد اختص أحدهما بفن العمارة واختص الآخر بعلم من علوم التاريخ .
وأؤكد لك أن لجنة من لجان المؤتمر لم تكن تخلو من قسيس وأن
اللجنة التي كنت فيها كان يرأسها قسيس ، وأنه أظهر عناية شديدة
بصبح الأعشى وما يشتمل عليه صبح الأعشى . وأؤكد لك شيئاً
آخر وهو أن الفلاسفة إذا ائتمروا فسيشترك معهم القسيسون ،
وأن علماء الكيمياء إذا ائتمروا فسيشترك معهم القسيسون ، وقل
مثل ذلك في الأطباء وقل مثل ذلك في علماء الحياة ، وقل مثل
ذلك في علماء الرياضة . ومالي أذهب بعيداً وفي مصر مدارس
اليسوعيين ومدارس الفرير ، وفي فرنسا جامعات تقوم على رجال
الدين ويدرس فيها أبناء الأرستقراطية المحافظة ، فاذا تقدموا إلى
الامتحانات العامة في الجامعات الحكومية لم يكونوا أقل نجاحاً من
غيرهم وربما كانوا أكثر منهم فوزا

فأحب الآن أن تحدثني عن علمائنا في مصر ، مع من يستطيعون
أن يأتمروا ؟ أمع المؤرخين وهم يجهلون جهلا تاما تاريخ أوروبا
وأمريكا بل تاريخ الشرق بل تاريخ اليونان والرومان . وأستحي
أن أذكر تاريخ الاسلام ؟ أمع الجغرافيين أم مع الرياضيين أم مع
علماء الحياة ؟ سينعقد في مصر مؤتمر جغرافي بعد سنتين ، فهل يشترك
فيه علماء الدين ؟ ذلك لأني لقيت في بروكسل أسقفاً فرنسيا سألني

عن جمعيتنا الجغرافية الملكية وعلمت منه أنه سيشترك فى مؤتمرنا الجغرافى ، وثق بأنه لن يكون الوحيد من رجال الدين المسيحى فى هذا المؤتمر

أليس يحسن ؟ أليس يجب على علماء الاسلام فى مصر أن يبذلوا ما يملكون من جهد وقوة ليكونوا كغيرهم من رجال الدين ؟ ليكون منهم المؤرخ والجغرافى وعالم الكيمياء وعالم الطبيعة والفلكى (وانما أريد الفلكى الحديث) كما أريد إذا ذكرت المشتغل بالطبيعة من لا يكتفى بدرسها فى إشارات ابن سينا .

أيشعر علماء الدين عندنا بهذا البون الذي يباعد بينهم وبين علماء الدين فى أوربا ؟ أيشعرون بأنهم يحسنون إلى أنفسهم إن أزالوا هذا البعد ؟ ويحسنون إلى أمتهم أيضا لأنها تستطيع يومئذ أن تعتز بهم حقا وأن تأتم بهم حقا فى دينها ودنياها ؟

سمعنا خطبة القسيس ، ثم سمعنا بعدها ضروبا من الموسيقى الدينية القديمة التى أحدثها يرجع إلى القرن الخامس عشر ، وأشهد أنى أعجبت بهذه الموسيقى وأشهد أنى طربت لهذا الغناء اللاتينى الجميل . ولكنى لا أطالب بأن أسمع موسيقى أو غناء فى مساجدنا ، فأنا أعلم أن مساجدنا إنما أنشئت لذكر الله ، ولذكر الله فى سذاجة وسهولة . لا أطالب بذلك ولا أفكر فيه ، وحسبى أن التذكر فى المسجد بترتيل

القرآن الكريم . وإنما أطالب بشيء وألح فيه الإلحاح كله ، أطالب بأن يكون من بين علمائنا من يستطيع أن يحدثنا عن تاريخ الأزهر الشريف ، وجامع قلاوون ، وجامع برقوق ، من الوجهة الفنية كما استطاع قسيس بروكسل أن يحدثنا عن كنيسة « سانت جودول »

سمعنا الموسيقى وطربنا لها ، ثم أردنا أن ننصرف فإذا إكليل من الزهر ضخم بديع قد وضع ناحية فى الكنيسة . وإذا قوم من جماعة المؤرخين قد تقدموا فحملوه ومضوا فتبعهم المؤتمرون فى وقار وإجلال ، وما هى إلا دقائق حتى وصلنا إلى قبر الجندى المجهول ، فإذا هذا الإكليل يمثل تحية مؤتمر العلوم التاريخية لأبناء بلجيكا الذين قضوا فى الدفاع عن وطنهم .

أما ليلتنا عند وزير المعارف فلا أحدثك عنها إلا بشيء واحد وهو أن جميع المؤتمرين كانوا فى قصر الوزير ، وكان معهم سفراؤهم أو وزراؤهم المفوضون إلا مصر ، فلم يكن لها سفير ولم يكن لها وزير مفوض ، ولم يكن لحكومتها مندوب وإنما كان هناك طربوش حائر بين هذه الجماعات . ولولا أن وزير المعارف كان قد أنبىء بمكان هذا الطربوش لما شعر به أحد . ولكن الوزير أقبل ومعه رئيس مكتبه فحيانى تحية حسنة ودعانى مندوب مصر فلم أصلح خطأه . ثم لقيت أثناء السهرة مؤرخاً شاباً بولونياً تعرف إلىّ لأن زوجه تعرفت

لى زوجى ودعاها إلى هذا التعرف الطربوش ، وكان هذا الع
البولوني الشاب مندوب عصبة الأمم فى مؤتمر العلوم التاريخية
لأن عصبة الأمم قد مثلت نفسها فى مؤتمر العلوم التاريخية وكيف
لا تفعل وقد أنشأت لجنة علمية سمتها لجنة التعاون العلمى ؟

صافحنى هذا الشاب وقال : هناك مسألة تحيرنى ولعلك تجيبن
عليها ، ما بال مصر لم تمثل فى عصبة الأمم ومتى تطلب هذا التمثيل
هنا أعترف أيها القارىء بأنى كذبت ولم يكن مصدر الكذب إل
الحياء ، ذلك لأنى أجبت سائلى على الفور : « ستطلب مص
الانضمام إلى عصبة الأمم فى هذه السنة » . قال صاحبى : إذن
سيرد طلبها قبل انعقاد الجمعية العمومية ؟ قلت : أعتقد ذلك

فهل لرئيس الوزراء أن يعفينى من خزى هذه الكذبة التى
يضطرنى اليها إلا تقصير حكوماتنا وتفريطها فى الاستمتاع بما ل
من حق ؟

باريس فى ٧ مايو سنة ١٩٢٣

٨

كان يوم الجمعة ١٣ إبريل يوم الشرق فى المؤتمر وبعبارة أخرى يوم مصر . ولم يكن يوم الشرق أو يوم مصر فى المؤتمر وحده بل كان فى بروكسل كلها . . فقد اشترك كثير جدا من أهل هذه المدينة رجالا ونساء فى جلسة المؤتمر العامة التى عقدت بعد الظهر لسماع خطيبين تكلم أحدهما عن استكشافات فرنسية على شاطىء الفرات ، وتكلم الآخر عن مقبرة توت عنخ أمون ، وكان كلا الخطيبين يصطنع الفانوس السحرى لعرض صور مما استكشف على شاطىء الفرات أو فى مصر ، وكانت الصحف قد أعلنت هاتين الخطبتين وتحدثت بهما ، فأسرع المؤتمرون وغير المؤتمرين إلى استماعهما ، وما أشك أننا كنا آلافا من الساعة الثانية إلى الساعة الخامسة بعد الظهر . على أن صباح هذا اليوم قد أنفق فى أعمال هادئة فاجتمعت اللجان وسمعت ما ألقى فيها من الخطب وما قدم إليها من المذكرات . وسمعت أنا فى صباح هذا اليوم مذكرات ثلاثاً ممتعات : إحداها فى نقد بعض الطبعات لمحفوظات رسمية فرنسية تتصل بما قبل الثورة ، والأخرى فى إظهار تزوير كتب رسمية نشرها أحد السفراء الرسميين للويس الرابع عشر عن أعمال

قام بها فى انجلترا وهولندا باسم لويس الرابع عشر ، والثالثة فيم كان من تبادل المحفوظات الرسمية بين النمسا و بولونيا بعد الحرب الكبرى . ولكنى لا أطيل فى ذكر هذه المحاضرات وقيمتها فقد لا تصلح الصحف السيارة لمثل هذه المباحث العلمية الجافة التى ليس بينها و بين مصر صلة ما .

عدنا إلى الاجتماع إذن بعد الظهر وكأن رئيس المؤتمر كان يشعر بشوق الناس إلى استماع هاتين الخطبتين ، وكان يجد لذة شيطانية فى ممانعة هذا الشوق . فقدم إلى الخطابة عالما روسيا تحدث عن التاريخ الرومانى وعما كان من الأزمة الاجتماعية فى الامبراطورية الرومانية أثناء القرن الثالث بعد المسيح وكانت خطبته لذيذة مفيدة ، وكان الناس يستمعون لها فى شىء من الضجر والسأم لأنهم لم يحضروا لاستماعها وإنما حضروا لشىء آخر . ومع أنه أطال فلم يكتف رئيس المؤتمر بخطبته بل قدم أمريكيا تكلم عن أخلاق « كاترين دى ميديسيس » وكان يتكلم بالانجليزية فلم يفهمه إلا قليلون ، ثم قدم الرئيس خطيبا ايطاليا تكلم عن نقوش مسيحية استكشفت فى ايطاليا وعن جمعية ايطالية أسست للبحث عن النقوش المسيحية التى نقشت بعد انتهاء عصر التاريخ القديم ، وقدم إلى المؤتمر مجلدات نشرتها هذه الجمعية مشتملة على بعض هذه النقوش . ثم

قدم الأستاذ « كيمون » فتحدث عن الاستكشافات الفرنسية على شاطىء الفرات . هنا ابتهج الناس وأظهروا سرورا ما أظن إلا أنه ساء الخطباء الأولين . وكانت خطبة الأستاذ « كيمون » ألذ ما سمعت فى المؤتمر ، بل أعترف بأنها لذتنى أكثر من الخطبة التى تلتها عن مقبرة فرعون

ذلك لأن هذه الخطبة التى تناولت استكشاف الفرات كانت تتناول موضوعا أفهمه وأستطيع أن أستفيد منه فائدة ما . ولم يكن هذا الموضوع ضئيلا ولا قليل الخطر وإنما كان عظيم الخطر جداً . وحسبك أن هذه المدينة التى استكشفت وهى مدينة « دورا » كانت من أعمال « تدمر » وكانت ملتقى لحضارات ثلاث ، كلها تعنينا ، وكلها نستطيع أن نفهمها ونستطيع أن نبحث عنها ونخرج من البحث بشىء من الفائدة . كانت ملتقى الحضارة السامية والحضارة اليونانية والحضارة الرومانية . وقد استكشفت هذه المدينة أثناء الحرب ولكن استكشافها والبحث عنها لم يتما إلا فى ديسمبر الماضى . فاذا الآثار اليونانية والسامية والرومانية متجاورة يفسر بعضها بعضا ويضيف بعضها إلى بعض . وإذا نقوش سامية ويونانية ولاتينية توجد فى المعابد وعلى الجدران . وإذا الفن اليونانى والسامى

يمتزجان ويؤثر كلاهما فى صاحبه . وإذا الساميون يتعلمون اليونانية ويصطنعون الفن اليونانى ويتسمون بالأسماء اليونانية ويؤدون العبادة لآلهتهم السامية فى ضروب ليست بالسامية الخالصة ، ولا باليونانية الخالصة ، وإنما هى مزيج مما ألِفَ الجنسان . وإذا الساميون ينحتون التماثيل لآلهتهم فيدخلون فى فنهم شيئاً من رقة الفن اليونانى . وإذا اليونانيون ينحتون التماثيل لآلهتهم فيدخلون فى فنهم شيئاً من غلظة الفن السامى . وكان أجمل ما عرض ، فأعجب الناس صورة فوتوغرافية لتمثال الزهرة الٰهة الحب . فاذا هى صورة سامية ، وإذا الالٰهة تمثل امرأة شرقية تمتاز بما كان يمتاز به مثال الجمال الشرقى فى هذه القرون الأولى للتاريخ المسيحى من الضخامة والفخامة وكثرة الحلى والميل إلى شىء من النعومة والاسراف فى الترف ، يخالف ما ألف الناس فى الفن اليونانى من صور « افروديت » الٰهة الحب والجمال التى كانت — على أنها مصدر الفتنة — لا تخلو من قوة وشهامة توشك أن تكون حربية . وإذا هذه المدينة الصغيرة التى لم يتم درسها بعد تمثل ما كان من الجهاد بين الامبراطورية الرومانية وبين الامبراطورية التدمُرية . فقد نرى أن الساميين واليونانيين قد وجد بينهم اختلاط شديد ، بل امتزاج شديد فكان بينهم الاصهار والتزاوج . وأثر هذا الامتزاج فى فنّيهم فأخذ من جديد يوجد فَنٌّ ليس هو بالسامى

القديم ، ولا باليوناني القديم. ولكن الآثار الرومانية منفصلة أو تكاد تكون منفصلة انفصالا تاماً عن الآثار اليونانية السامية .

أعجبت بهذه المحاضرة لأني أُلِمُّ بشيء من التاريخ اليوناني ، وبشيء من التاريخ الروماني ، وبشيء من الجهاد بين « تدمر » وروما ، ولأن اسم تدمر يذكرني الزباء وما روى عنها في أمثال العرب من هذه الأساطير اللذيذة التي تفيض حكمة وتملؤها الأمثال السائرة . ولكني لما سمعت خطبة الأستاذ « كابار » الذي رافق ملكة باجيكا في مصر لم أجد ما كنت أنتظر أن أجد من اللذة . وبينما كان الناس يعجبون ويصفقون كنت أنا هادئا مطمئنا . ولعلي أعرف سبب هذا الهدوء والاطمئنان . فأنا أولا أجهل التاريخ المصري القديم ، ولا أعرف منه أو لا أكاد أعرف منه شيئا . فاذا سمعت أخبار توت عنخ آمون أو غيره من فراعنة مصر لم تحدث هذه الأخبار في نفسي هذه الحركة العلمية التي تحدثها أخبار اليونان والرومان والعرب فتمكنني من أن أصل شيئاً بشيء وأنتقل من شيء إلى شيء ، أي تمكنني من أن أستفيد فائدة علمية ما . ومثل هذا يستطيع أن يقوله الذين يعلمون تاريخ مصر القديم ويجهلون تاريخ الرومان واليونان والعرب ، وإن كان هؤلاء الناس لا يكادون يوجدون . فاذا وجد مصري يجهل تاريخ مصر فقد

لا يوجد أجنبي يجهل تاريخ اليونان والرومان . فاذا أضاف إليهما تاريخ مصر استطاع أن يعجب بمحاضرة الأستاذ « كيمون » وبمحاضرة الأستاذ « كابار » فاذا سألت عن مصدر هذا النقص الذى يجده المصرى فى نفسه حين يشعر بجهل تاريخ مصر، وحين يسمع محاضرة فى تاريخ مصر فلا يلذ لها كما يلذ ذا الانجليزى والفرنسى فالجواب يسير وهو تقصير الحكومة المصرية أو وزارة المعارف المصرية فى نشر التاريخ المصرى . فلو أن التاريخ المصرى القديم يدرس فى مصر كما ينبغي لكان لكل مصرى متعلم حظ من الاعجاب بما استكشف اللورد كارنارفون . ولكن ماذا نقول وفى مصر أساتذة في الأدب والحقوق والفلسفة والطب يجهلون تاريخ مصر ولا يعرفون من أمر توت عنخ آمون إلا ما يقرءون فى الصحف وكثير منهم لا يقرءون ماتنشره الصحف . يجب أن نحمد الله على صدور الدستور فلن يغفر البرلمان فى المستقبل لوزارة المعارف المصرية مثل هذه الجرائم

هناك سبب آخر حال بينى وبين الاعجاب بخطبة الأستاذ « كابار » وهو أن الأستاذ لم يقل شيئا جديداً أكثر مما نشرته « التيمس » و « السياسة » . فكان من المعقول وقد قرأت هذا وذاك ألا يشتد إعجابى به حين يعاد . وهل أستطيع أن أضيف

سببا ثالثا أعترف بأنه لا يليق بعضو فى مؤتمر علمي وهو أن الأستاذ « كابار » كان شديد الميل فى محاضرته إلى الانكليز وكان يسرف فى الثناء عليهم وعلى مابذلوا من جهد وما أدوا إلى مصر وإلى العلم من خدمة . وكنت أحب أن تذكر مصر بشيء من الخير وإن لم تكن أهلا له فى هذا الموضوع لأنها لم تعمل شيئا فى استكشاف مقبرة توت عنخ آمون . ومهما يكن من شيء فقد خرجت عن طور العلماء وضاق صدرى بهذا الثناء الكثير يهدى إلى الانجليز . كنت متأثراً بالسياسة أكثر مما كنت متأثراً بالعلم

كان إعجاب الناس شديداً جدا بهذه الصور الفوتوغرافية التى عرضها الاستاذ « كابار » ولاسيما السيدات ، فقد كانت هذه الصور وصور الجواهر بنوع خاص تفتنهن فتنة شديدة فيصفقن ويتهامسن ويجتهدن فى أن يملأن أعينهن بهذه الصور التى لن تلبث أن تلهم الصاغة وأصحاب الفن فتعرض جواهر على مثالها فى الأسواق والمحال التجارية . ولعل كثيرا من هؤلاء السيدات كن يتحدثن إلى أنفسهن باليوم الذى يستطعن فيه أن يتخذن من الحلى والآنية ما يشبه الحلى والآنية التى وجدت فى مقبرة توت عنخ آمون

كانت هذه الجلسة جلسة مصر أعجب فيها الناس إعجابا شديداً بمصر القديمة وذكروا فيها مصر الحديثة . وكانت هذه الجلسة آخر

الجلسات العلمية للمؤتمر . فنستطيع أن نقول أن هذا المؤتمر ابتدىء بذكر مصر فى تحية الملكة وختم بذكر مصر فى خطبة الأستاذ « كابار »

ذهبنا بعد ذلك إلى قصر البلدية فتناولنا هناك الشاى : وكنت أحب أن أصف لك مافى هذا القصر من آيات الفن ولكنى مع الأسف قاصر عن هذا كل القصور ثم كان يوم السبت فانقسم قسمين : أما الصباح فخصص لزيارة دار المحفوظات (الدفترخانة) وأما المساء فخصص للتفرق فى أنحاء بلجيكا القريبة من بروكسل والتى تمثل فائدة تاريخية ما . أريد أن أذكر دار المحفوظات هذه وأريد أن أقارن بينها وبين دار المحفوظات فى مصر . ولكن أصول المقارنة تنقصنى لأنى أجهل نظام الدفترخانة المصرية ولا أعلم من أمرها إلا أن زيارتها مستحيلة على العلماء والباحثين إلا بعد عناء ومشقة وإذن من وزير المالية قلما يظفر به من يطمع فيه . فالدفترخانة المصرية ديوان من دواوين الحكومة تنتفع به الحكومة وحدها فى أعمالها الرسمية ولا ينتفع به العلماء والمؤرخون . بل لست أدرى علام تشتمل الدفترخانة المصرية ؟ وهل فيها حقاً مايفيد المؤرخ إذا أراد أن يبحث عما قبل العصر الحديث الذى نعيش فيه ؟ وإلى أى عصر من عصور مصر التاريخية يرجع أقدم ما فى الدفترخانة المصرية من

المخفوظات . لا أعلم من هـذا شيئاً كما أنى لا أعلم شيئاً من النظام الذى يصطنع فى الدفترخانة المصرية ولا مما يتخذ فيها من وسائل الاحتياط لوقاية الأوراق والمخفوظات القديمة ، ولا شيئاً من النظام الذى يتخذ لتسجيل هذه المخفوظات واتخاذ فهارس وأثبات تسهل البحث على من يريد أن ينتفع بها . أجهل إذن مقدار المخفوظات المصرية وقيمتها ونظم حمايتها والانتفاع بها . ولـكنى أعلم أن قسما واحـداً من أقسام الدفترخانة البلجيكية يشتمل على أكثر من ٥٠٠٠٠ دفتر من دفاتر الحساب والقرارات التى كانت تتخذها الحـكومات المختلفة منذ القرن الثالث عشر إلى الآن . وأعـلم أن هذه الدفترخانة البلجيكية كغيرها من دور المخفوظات فى أوربا مباحة للعلماء والباحثين . قد اتخذت فيها كل الوسائل التى تمكن العلماء من البحث وتسهل عليهم أسبابه ، فاتخذت فيها الأثبات المتقنة والفهارس البديعة واختص بكل قسم من أقسامها نفر لا أقول من الموظفين وإنما أقول من العلماء النابهين يقومون على حفظه وتنظيمه والاستفادة منه وتسهيل الاستفادة على من أرادها سواء أكان بلجيكياً أم أجنبيا . ولـكن فى دار المخفوظات البلجيكية شيئا أعجبت به حقاً وأتمنى على الحـكومة المصرية أن توجد لنا مثله فى مصر لأنه يفيد فائدة لا تقدر سواء فى ذلك الدفترخانة ودور الـكتب المختلفة . وجدت فى دار

المحفوظات الباجيكية معملا واسعا فيه كثير من العمل يشتغلون فى أشياء مختلفة غريبة ، يشتغلون مثلا فى تنظيف الأوراق القديمة التى بَعُدَ بها العهد وأفسدها الزمان فطمست الأحرف التى فيها ، ويشتغلون بتقوية الأوراق التى بعد بها العهد وأفسدها الزمان فوَهَتْ ورَثَّتْ حتى أصبحت لاتحتمل لمس الأيدى ، ويشتغلون بما يشبه هذا مما يُمَكِّنُ من الاستفادة بكل ورقة قديمة مخطوطة مهما تكن أعراض البِلى التى أصابتها . ولقد رأينا العمال يشتغلون فى ذلك . رأيناهم قد أخذوا أوراقا قذرة لاتكاد تقرأ بل لاتقرأ ، فما زالوا بها فى غسل وتنظيف حتى زال عنها الدنس وبدت أحرفها جلية واضحة للقاريء ، ورأيناهم يتخذون أوراقا بالية لاتكاد تمس فما يزالون بها يسلطون عليها بعض مواد الكيمياء حتى تقوى وتثبت وتستطيع أن تتناولها وتقلبها كما تقلب ورقة صنعت أمس . أليس مثل هذا المعمل مفيداً فى مصر؟ أليس الأستاذ لطفى بك السيد محتاجا إلى مثله فى دار الكتب المصرية ؟

شىء آخر أعجبنى هو استفادة دار المحفوظات الباجيكية استفادة تجارية بما يوجد فيها من المحفوظات . ففيها نماذج لاتكاد تحصى لأختام الملوك والأمراء والقواد والامبراطرة والرؤساء على اختلافهم منذ القرون الوسطى . فهى تنتفع بهذه النماذج فتتخذها على المعدن

أو على الجبس أو على غير ذلك وتعرضها للبيع . وأؤكد لك أن تهافت الناس عليها شديد ، ولا سيما العلماء وأصحاب الفن والآثار الذين يريدون أن يدرسوا هذه النماذج كل من وجهته الخاصة . فهم لا يطلبون الدفاتر والأوراق وهم إن استطاعوا أن ينظروا إلى هذه الدفاتر والأوراق لا يستطيعون أن ينقلوها ولا أن يستعيروها ولا أن يخرجوها من دارها فضلا عن بلجيكا . بينما هذه النماذج المصنوعة مباحة لهم يصنعون بها ما يشاءون ، وهذه النماذج ليست سهلة ولا يسيرة فلا بد من أن تتخذ بطريقة علمية . ولا بد من أن تنظم وترتب وتتخذ لها الفهارس والأثبات . ولست أنسى محاضرة ألقتها علينا فى دار المحفوظات فتاة بلجيكية هى القائمة بالقسم العلمي من إدارة هذه النماذج . ولست أنسى مناقشة كانت بينها وبين عالم فرنسى فى نظام « الفيش » الذى يجب أن يتخذ لهذه النماذج . لا أنسى هذه الفتاة ولا أنسى محاضرتها ولا مناقشتها . وأتمنى على الله أن أجد بين فتياتنا بل بين كهولنا من يستطيع أن يقوم فى دار المحفوظات المصرية أو فى دار الكتب المصرية مقام هذه الفتاة البلجيكية

تفرقنا بعد الظهر فاخترت الذهاب إلى « واترلو » ولكن لا أستطيع أن أذكر لك من أمرها شيئا . فقد تغيرت فيها المعالم ، ومحيت فيها آثار هذا اليوم العظيم الذى اندك فيه عرش نابليون .

كل ماهو قائم فيها الآن صناعى متكلف إلا القليل

ولـكنى لاحظت شيئا له قيمته فى هذه الأيام وهو أن الن
هبوا إلى واترلو كانوا جميعاً من الانجليز ولم يكن منهم فرنس
حد إلا زوجى . أما الفرنسيون فتفرقوا إلى الجهات الأخر
ول بروكسل .

ثم اجتمعنا يوم الأحد فى الجلسة الأخيرة للمؤتمر فاتخذ
ارات مختلفة أهمها هذا القرار الذى أتمنى ألا تهمله مصر ، و
يف جمعية تاريخية دولية دائمة تشترك فيها الأمم على اختلا
ألمانيا طبعاً . اتخذ هذا القرار وظل مجلس إدارة المؤتمر باقياً
لال المؤتمر لوضع نظام هذه الجمعية . فهل تتصل بها مصر ؟ و
م بما عليها وبما لها من الحق فى خدمة التاريخ ونشر التاريخ ؟
الـكلمة فى ذلك إلى وزارة المعارف

باريس فى ١٠ مايو سنة ١٩٢٣

القسم الثالث

obeikandl.com

خواطر سائح

٢

فى الطريق

كانت السفينة تجرى فى بحر هادىء مطمئن . وكانت نفوس السَّفْر هادئة مطمئنة أيضاً ، وكان قد شمل السفينة ومن فيها شىء من الدعة والأمن لا يكاد يوصف كأنما اشترك فى تكوينه هدوء البحر وجماله ، وصفو السماء وإشراقها ونزوع المسافرين جميعاً إلى هذا الأمل الذى كانوا يترقبونه منذ حين والذى هم مشرفون عليه الآن وهو الراحة بعد تعب والهدوء بعد اضطراب وكنت أشد الناس اطمئنانا وأكثرهم دعة وأعظمهم اغتباطا بالحياة ، أفكر فيما تركت من ألم وأتمثل ماأستقبل من لذة وأعبث من حين إلى حين مع هذين الطفلين المبتسمين اللذين لا يعرفان من الحياة إلا صفوا وابتهاجا .

كنت أقص على ابنتى ألوانا من أحاديث « هوميروس » فى « الأودسا » فأجد منها ابتهاجا للقصص واستعذابا للحديث فأمضى فى القصص والحديث وتغرق هى فى اللذة والابتهاج ، ثم تسألنى أحق

هذا الحديث أم أنت تمزح ؟ فلا أجد لهذا السؤال جوابا . لست أمزح وإنما أقص شيئا قرأته وابتهجتُ له ، وقرأته الأجيال من قبلى وابتهجتْ له ، وسمعته أجيال قبل هذه الأجيال فابتهجت له وآمنت به واتخذته يقيناً بل اتخذته دينا . وهل كان يخطر لأحد من أولئك اليونان الذين كانوا يستمعون لأقاصيص الأودسا وأعاجيبها أن يسأل المنشد : أحق هـذا الحديث أم أنت تمزح ؟ كلا ! لقـد كان هؤلاء الناس يؤمنون بأعاجيب الأودسا وأساطيرها كما تؤمن أنت وأنا بالبخار والكهرباء . وكانوا يتخذون من أحاديث الأودسا وأعاجيبها مقاييس للخير والشر ونماذج ينظمون عليها حياتهم الخاصة والعامة كما نبحث نحن عن هذه المقاييس والنماذج فى علم الأخلاق والاجتماع الآن . ثم تتابعت الأجيال واتصلت العصور وتطور العقل الانسانى حتى أصبحت هذه الطفلة فى السابعة من عمرها تسألنى حين أقص عليها أحاديث الأودسا وأعاجيبها وأخبار السندباد البحرى : أحق هذا الحديث أم أنت تمزح ؟ وكنت أترك ابنتى تلاعب أخاها وتلهو مع أترابها وأنصرف إلى قرينتى فنأخذ فى ألوان من الحديث منها الجد والهزل وربما انتهزنا غفلة الطفلين فقرأنا فصلا من كتاب أو مقالا من صحيفة حتى إذا أقبل الليل جلس السفر بعضهم إلى بعض يتحدثون وانصرفت طوائف منهم إلى « البيانو » فمنهم من يعزف

ومنهم من يرقص وانصرفت طوائف أخرى إلى ألوان من اللعب بين نرد وشطرنج وورق حتى يتقدم الليل . وعلى هذا النحو قضينا أربعة أيام وبعض يوم لم تخل من بهجة لا تعدلها بهجة حين ظهرت السواحل الايطالية وحين مضت السفينة بنا فى مضيق « مسينا » فالناس جميعاً ينظرون ، منهم من يعجب بالساحل وجماله ومنهم من يذكر كوارث مسينا ومنهم من يمضى فى الذكرى إلى عهد بعيد فيتمثل الحياة اليونانية والرومانية والفينيقية على هذه السواحل وفى هذا البحر ويذكر ما امتلأت به هذه الحياة القديمة من لذة وألم ومن جمال وكآبة ويذكر ماتغنى به الشعراء القدماء من ألوان هذه الحياة . ثم تحدث الناس أننا سنصبح فى مرسيليا وانصرف الناس عن حديثهم ولهوهم إلى حقائبهم يحزمونها وإلى متاعهم يعدونه . لكن السفينة التى كانت هادئة مطمئنة أخذت تضطرب قليلا قليلا وما هى إلا ساعات حتى كان اضطراب البحر قد انتهى إلى أقصاه وحتى كان الناس لا يكاد يسمع بعضهم بعضا إذا تحدث بعضهم إلى بعض . فالموج مصطخب والريح تعصف عصفاً عنيفاً ، والسفينة لا تمايل وإنما يتقاذفها الموج وقضينا الليل فى هذا الهول وأصبحنا وقد أشرفنا على الساحل الفرنسى بل بلغناه ، فهذه أبنية مرسيليا يراها الناس ويشيرون إليها وليس من شك فى أننا سنترك السفينة

بعد ساعة أو ساعتين . كلا ! لن نترك السفينة بعد ساعة أو ساعتين ولا ساعات . لماذا ؟ تستطيع أن تبحث وأن تتكلف العناء فى البحث دون أن تجد جوابا على هذا السؤال ، فيحسن أن أجيبك أنا .

كان بين أهل السفينة شرقى أخذه حر شديد بينما كانت السفينة تجتاز القناة فما هى إلا أن رأى بطيخ مصر فاندفع إليه اندفاعا وأكل بطيخة بأسرها ثم كأن البطيخة لم تنقع غلته فعمد إلى ماء مثلج فشرب منه ما أذن الله له أن يشرب . ولم تكد السفينة تتجاوز مصر حتى أخذ صاحبنا قيء ومشاء ودعى الطبيب فلم يؤمن للبطيخ ولا الماء المثلج ولا سيما وقد حسنت حال صاحبنا بعد يوم وليلة فلم يبق من قيئه ومشائه إلا بطن منتفخ ولم يشك الطبيب فى أن الرجل مطعون . . . وكان هذا الرجل فى الدرجة الرابعة فلا أحدثك عن عناية الطبيب به وإشفاقه عليه . فانظر اليه تحوطه عناية الطبيب والخدم وانظر إليه فى سرير نظيف نقى وانظر إليه تقدم إليه ألوان الطعام مختارة منتقاة وانظر إليه يحمل من حين إلى حين إلى حيث يتنسم هواء البحر وكأن الرجل قد استعذب هذه الحياة واستلذها فتمارض وأمعن فى الشكوى وشك الطبيب وأمعن فى الشك فأبرق إلى مرسيليا أن قد ظهر الطاعون فى السفينة وكتم الطبيب وربان السفينة الخبر عن المسافرين حتى لا يأخذهم وَهْم ولا وجل . فلما

أشرفت السفينة على مرسيليا أنبئنا أن السفينة ملوثة وأن لا بد من الحجر الصحى وأننا سنمكث على بعد من الساحل خمسة أيام نرى الأرض ولا نستطيع أن نطأها . تستطيع أنت أن تتمثل نفسية المسافرين كما يقولون عند ما وقع عليهم هذا النبأ وقع الصاعقة . ولكن المسافرين ولا سيما الذين أبحروا من مصر ليسوا شيئاً إلى جانب البحارة والذين أبحروا من أقصى الشرق فقد كان هؤلاء الناس قد قضوا فى البحر شهرين أو أكثر من شهرين وكانوا يتحرقون شوقاً إلى فراق البحر وإذا هم يُقضى عليهم أن يحجزوا فى السفينة خمسة أيام وقضينا ساعات فى هذا الاضطراب . ثم أقبلت زوارق تحمل الأطباء وذاع النبأ أن هؤلاء الأطباء قد أقبلوا ليمتحنوا المسافرين واحداً واحداً فمن رأوه بريئاً أذن له بترك السفينة ومن رأوه مريضاً أو كالمريض حجروه . ولكن الأطباء لم يمتحنوا أحدا و إنما قضوا ساعات يدفعون إلى المسافرين جوازات صحية و يكلفونهم أن يقدموا هذه الجوازات فى أمد لا يتجاوز خمسة أيام إلى عمدة المدينة أو القرية التى يقصدون إليها ليتحقق هذا العمدة من أمر المسافرين أمطعونون هم أم بارئون من الطاعون ؟ وكانوا كلما دفعوا إلى مسافر جوازاً كتبوا كتابا إلى عمدة المدينة أو القرية ينبئونه بأن فلانا قادم إلى مدينته أو قريته وأن حالته الصحية تدعو إلى الحذر والاحتياط فلا بد

من امتحانه والاحتياط لأمره ، وانقضى أكثر النهار في هذا العبث الصبي كما يقول الفرنسيون . وأذن المسافرين جميعاً أن يطئوا الأرض إلا البحارة وعمال السفينة فقد قضى عليهم بالحجر خمسة أيام . و بلغنا القرية التي كنا نقصد إليها وذهبنا في اليوم الخامس إلى العمدة وكنت أتحدث بأن لا نذهب ولكن الجواز الصحي الذي دفع إلينا كان يشتمل على طائفة من مواد القانون الصحي تبين العقوبات أو الغرامات التي نتعرض لها إذا أهملنا . فذهبنا ولم نر العمدة و إنما رأينا سكرتير العمدة . وسكرتير العمدة في معظم القرى الفرنسية هو معلم القرية وهو يشبه فقيه الكتاب عندنا . رأينا هذا المعلم وقصصنا عليه قصتنا فلم يكد يسمع أول الحديث حتى أظهر عناية ، لأنه تسلم كتاب الأطباء منذ أيام وأخذ يبحث عن هؤلاء المسافرين الذين يوشكون أن يحملوا الطاعون إلى قريته دون أن يوفق إليهم ، فلما رآنا خيل إليه أن قد ظفر بطلبته . وأؤكد لك أننا قد تكلمنا كثيراً لنقنعه بأنه ليس في حاجة إلى إحالتنا على الطبيب . على هذا النحو انتهت رحلتنا وما كنت لأقص عليك هذا القصص لولا أن فيه عبرة لا بأس بالتفكير فيها . أرأيت إلى مئات من المسافرين يضطربون و يحزنون يوما كاملا ؟ أرأيت إلى مصلحة الصحة في مرسيليا تضطرب وتعنى هذه

العناية وتتكلف هذه النفقات ؟ أرأيت إلى مئات من العمد فى قرى فرنسا يضطربون ويشفقون من الطاعون أن يصيب قراهم ؟ كل ذلك لأن رجلا ظمىء فأكل بطيخة وشرب أقداحا من الماء المثلج ! !

أشهد أن هذه الحياة لا تخلو من عبث ، بل أشهد أن هذه الحياة كلها لون من ألوان العبث وفن من فنون المزاح ، تضحك حينا وتحزن حيناً آخر ، وهى مضحكة حين تحزن ومحزنة حين تضحك ، هى عبث كلها . نعم ! إنى لأفكر فى أمر هذه البطيخة التى استتبعت ما استتبعت من الأحداث فلا أضحك ولا أمزح ، وكثيراً ما ضحكت ومزحت حين كنت أفكر فى أمرها ، ولا أضحك الآن ولا أمزح وإنما أفكر فى هذا الأمر مع حزن شديد لأنى أرى أن الحياة كلها تجرى على نحو ما جرى أمر هذه البطيخة . ذلك أن أنباء مصر قد وصلت إلىّ فقرأت فيها ما قرأت وابتسمت فيها لأشياء وبكيت فيها لأشياء أخرى ولم يبق لى من هذا البكاء وذلك الابتسام إلا أنى تركت أصدقاء كنت أتمنى لقاءهم بعد عودتى وأتحدث بما سأجد من لذة حين ألقاهم واستأنف معهم صلات الصفاء . وتركت كذلك خصوماً كنت أفكر فى أنى سأعود إلى خصومتهم وسألقى منهم شراً وسيلقون منى شراً ، فإذا أنا الآن مقتنع بهذه الحقيقة المؤلمة وهى أنى لن أجد هؤلاء الأصدقاء ولن أجد هؤلاء الخصوم . لن

أصافى أولئك ولن أخاصم هؤلاء ، لأن الله قد آثرهم بالحياة فى تلك الدار التى لا تجرى فيها الأمور على نحو ما تجرى عليه فى حياتنا من اللهو والعبث

* * *

انتهى بنا سفر طويل لم يخل من مشقة إلى هذا البلد الصغير الذى قضينا فيه أسابيع ما أظن أنى قضيت مثلها فى بلد قبله . ليس بالقرية ولا بالمدينة ، ولكنه شىء بين بين ، فيه حضارة المدن ولا سيما فى الصيف حين يأوى اليه الناس من كل صوب يلتمسون الراحة ويستمتعون بالطبيعة التى تريك فنونا من الجمال قلما تظفر بها فى غير هذه البيئة من فرنسا ، فيه حضارة المدن وفيه سذاجة القرى فأنت تجد فيه من العادات والخصال ما يذكرك بما كنت تقرأ من تاريخ هذا القسم من فرنسا قبل أن تبلغ أوروبا ما بلغت من هذا الرقى الحديث . تجد قوماً يحتفظون بأزيائهم القديمة ويتحدثون لهجتهم الخاصة التى لا يفهمها الفرنسيون من غير هذا الاقليم ، فاذا تحدثوا الفرنسية فلهم فيها لهجة تميزهم من غيرهم من الناس . ولهم عاداتهم فى عباداتهم وفى غير عباداتهم من مظاهر حياتهم العامة . ولكنى لم أكتب لأحدثك عن هؤلاء الناس ، ولا لأحدثك عن هذا البلد فلست أكتب رحلة وإنما هى خواطر خطرت لى أتحدث بها إليك من حين إلى حين .

لا أعرف مكانا كهذا المكان يدعو إلى التفكير والتأمل ويبعث فيك نشاطاً نفسياً غريباً يطلقك بالشعر إن كنت شاعراً ويحبب اليك قراءة الشعراء إن لم يكن لك حظ من الخيال . لا أغلو ولا أبالغ وأنت لا تكاد تخطو فى هذا البلد أو حوله خطوة إلا سمعت هذه الأنغام الموسيقية اللذيذة التى تختلف ليناً وعنفاً وتتباين نحافة وضخامة والتى تتغنى بها هذه الغدران المتدفقة من أعلى الجبل . فى كل مكان غدير ينحدر أو نهير يجرى أو سيل يتدفق . هنا غدير هادىء يسعى فى لين ورقة فيسمعك نغما رقيقاً عذبا . وهنا نهير ليس بالهادىء ولا بالثائر تسمع له فلا تستنيم ولا تضطرب وإنما تقف وقد استعذبت الحياة ووددت لو تستزيد منها ، وهنالك سيل ثائر ينحدر فى عنف ويدفع بين يديه صغار الأحجار وضخامها ويسمعك هديرا كقصف الرعد يأخذ عليك سمعك ثم يأخذ عليك نفسك ثم يبهرك فاذا أنت لا تسمع من حولك ، وإذا أنت كلك إعجاب بهذا الجلال الذى لاحد له . وكل هذه الغدران والنهيرات والسيول تسعى وتجرى وتتدفق شاقة غابات تختلف كثافة ونحافة وتأخذ جوانبها من كل مكان وقد اختلفت فيها الأشجار وانبثت فى أرضها أنواع من العشب والزهر لا يبلغها الاحصاء ولا ينالها العد ، وامتلأ الجو من عبير هذه الأزهار وأنفاس هذه الأشجار وريح هذه الأعشاب بشىء من العطر

لا تستطيع أن تميزه ولا أن تحلله إلى أجزائه ولكنك تستمتع به استمتاعا غريباً وتكاد تلمس بيديك ما يبعث فى جسمك من الحياة . وإلى هذا النغم المأنى ، وإلى عبير هذه الغابات تضيف الطير ألحانها المختلفة التى تصل إلى أذنيك فى سهولة ويسر إذا كنت إلى غدير هادىء أو نهر غير ثائر والتى لا يصل إلى سمعك منها إلا أطراف خفية دقيقة مختلفة إذا كنت إلى سيل ثائر مضطرب . ثم أنت لا تسعى فى هذه الأرض على مكان سهل منبسط وإنما أنت مصعد أبداً أو منحدر أبداً . ويظهر أن الذين يصعرون يجدون فى هذا التصعيد والانحدار روعة لا تعدلها روعة ، يشرفون فيروعهم منظر ثم ينحدرون فيروعهم منظر آخر . ويظهر أن هذه المناظر المختلفة الرائعة تتباين إلى غير حد باختلاف الجو صفواً وكدراً وباختلاف ما ترسل الشمس من أشعتها على هذه القمم المحيطة بك والتى يجللها الثلج أبدا والتى تقدم اليك من مختلف الألوان نماذج ساحرة .

وأجمل ما يكون هذا المكان وأشد ما تكون فيه تأثرا وشعورا بضآلة الانسان وجلال الطبيعة حين يظلم الجو وتكفهر السماء وتتكاثف السحب بعضها فوق بعض منها ما هو فوقك ومنها ما هو تحت قدميك ومنها ما يكاد يحاذيك . ثم يضطرب هذا كله ويصطدم فاذا رعد يقصف قصفاً رائعا مهيبا ، وإذا برق يأخذ أنحاء الجو وإذا الجبال

المحيطة تردد أصداء هذا الرعد القاصف و إذا هذه السحب قد انشقت فانهمر المطر انهمارا و إذا هى ساعة أو بعض ساعة وقد هدأ كل شىء واستنار كل شىء وظهرت الشمس ساطعة بهية ومر بهذه الغابات والأزهار والأعشاب نسيم عليل بليل يحمل إليك عطرا نديا .

فى هذا البلد « أرجليس » « جازو » قضينا ثلاثة أسابيع ، وفيه فكرت كثيرا وتأملت كثيرا ووددت كثيرا لو استطعت أن أكتب ولكن الله أراد ألا أكتب ، وكنت قد أردت ذلك أيضا .

نعم كنت قد بلغت من التعب حظا عظيما قبل أن أترك مصر ، وكنت قد انتهيت من ذلك إلى أن كرهت القراءة والكتابة وكل ما يقرأ وكل ما يكتب ، فاعتزمت إذا أتاح الله لى السفر أن أقضى شهراً كاملا لا أقرأ فيه ولا أملى ولا أسمع بقراءة ولا إملاء . وقد تم لى ذلك . وأقسم لقد كنت به شقيا كل الشقاء ، ذلك أنا نخطىء الخطأ كله فى تقدير آلامنا وفى تقدير لذاتنا وفى تقدير حاجاتنا . يبلغ بنا الألم أقصاه أحيانا فيخيل إلينا أنه قد بلغ بنا أقصاه حقا ، وأنا لن نستطيع أن نحتمل ألما فوق ما احتملنا ، ثم نتمنى الراحة ونطمح إلى اللذة فنقيس الراحة التى نتمناها واللذة التي نطمح إليها بمقياس التعب الذى لقيناه والألم الذى احتملناه ، نتمنى راحة مطلقة ولذة لاحد لها ، فاذا أتيح لنا أن نستريح فما أسرع ما نمل اللذة وما أسرع ما نتمنى

obeikandi.com

الألم ، كذلك كنت فى « ارجليس » ضيق الذرع بهذه الراحة التى اضطرت نفسى إليها ، شديد السأم لهذه اللذة التى طالما طمعت فيها عظيم التمنى لذلك الألم الذى طالما شكوت منه ، وكانت زوجي تضحك منى وتتخذنى سخرية ، وربما رقت لى فقرأت علىّ فصلا أو فصولا من كتاب ولكنها كانت قد آلت كما آليت أن أستريح فلا أحدثك عن هذه الراحة الثقيلة

هناك خاطر يخطر لى فى كثير من الأحيان ، ولست أدرى أيخطر لغيرى من الناس أو هو مقصور على لأن حالى الطبيعية هى التى تضطرنى إليه . . . ذلك أنى أبغض نفسى أشد البغض وأبغض معها الحياة وأرى كل شىء سيئاً مرذولا فأسأم كل شىء وأزهد فى كل شىء ، وإنما تعرض لى هذه العلة إذا اتصلت خلوتى إلى نفسى كما اتصلت فى هذه الراحة التى أكرهت نفسى عليها . إذا اتصلت خلوتى إلى نفسى فلم أقرأ ولم أكتب ولم أشترك فى الحياة العامة ، وإنما انقطعت إلى نفسى أحيا هذه الحياة الخاصة الفاترة التى تكاد تنحصر فى الحياة الجسمية . فى هذا الطور من أطوار الحياة يخلو الانسان إلى نفسه حقاً وإذا كان العقل الانسانى لا يعرف الراحة ولا يستطيعها وإنما هو مفكر أبداً مشتغل أبداً فان العقل فى أول هذه الخلوة يمضى فى عمله وتفكيره معتمدا على ما بقى له من المادة الفكرية أثناء العمل وقبل

الراحة . فاذا فرغ من هذه المادة بحثا وتفكيراً احتاج إلى تجديدها ، احتاج إلى الغذاء المعنوى كما يحتاج الجسم إلى الغذاء المادى . ولكنه قد أكره نفسه على الراحة وأخذ نفسه بألا يقرأ ولا يعمل وهو مع ذلك مضطر إلى التفكير بطبيعته ، وهنا الشر كل الشر ، فهو يبدأ فى أن يفكر تفكيراً خطراً ، يبدأ فى أن يتخذ نفسه موضوعا للتفكير كما تبدأ المعدة الخالية فى هضم نفسها . يفكر الانسان فى نفسه فيحللها ويبالغ فى تحليلها ويدرس الدقائق من عواطفه ومشاعره وأهوائه درسا مفصلا دقيقا فلا يرى من هذا كله إلا ما يشعره بأنه ضئيل ضعيف : بأنه ليس شيئا يذكر ، بأنه ليس شيئا يستحق الحياة ، وربما فكر فى الحياة فرأى أنها ليست شيئا يستحق العناية ، وإذن فالسأم يقوى شيئا فشيئا حتى ينتهى إلى السخط وإلى سوء الخلق وإلى التشاؤم وما أظن إلا أن كثيرا من هؤلاء الفلاسفة المتشائمين قد اتخذوا مذهب التشاؤم دينا لهم لأنهم فكروا فى أنفسهم وحللوها ودرسوها أكثر مما ينبغى . لا أميل إلى أن يفكر الانسان فى نفسه كثيرا فالانسان لا يستحق هذا التفكير ، وإنما أميل إلى أن يشغل الانسان نفسه عن نفسه بالقراءة والحديث والعمل والاستمتاع بلذات الحياة التى أباحها الله والأخلاق . ولولا هذه اللذات التى قدمت لك وصفها فى أول الكلمة ، ولولا أنى كنت أشغل بها نفسي عن

نفسى كلما أحسست الحاجة إلى التفكير لأصابنى شىء من سوء الخلق غير قليل . لذلك تعبت فى « أرجليس » ولم أسترح . فلم أقض يوما هادئا ولعلى لم أقض ساعات متصلة فى اطمئنان وهدوء وإنما كنت طوال الوقت أضطرب فى الأرض وأهيم فى أنحائها متنقلا من غابة إلى غابة ومن شاطىء إلى شاطىء ومن قرية الى قرية ، أترك هذا المرج لأسعى إلى مرج آخر وأدع هذه القرية لأزور قرية أخرى . وكذلك قضيت هذه الأسابيع لم يحس عقلى جوعا ولم يستمتع جسمى براحة . وكان من بين القرى أو المدن التى قضيت فيها يوما وفكرت فيها كثيراً مدينة « لورد »

(البوليجين) فى ١٢ اغسطس سنة ١٩٢٤

obeikandl.com

٢

مدينة لورد Lourdes

يجب أن نغدو مع الطير لندرك القطار الأول ولنبلغ « لورد » فى مبتدأ النهار . وغدونا مع الطير فاذا جو بارد يلفح الوجه زمهريره وينسيك أنك فى أواخر شهر يولية . وإذا الحاجة ماسة شديدة إلى المعطف ، وإذن لابد من إخفاء اليدين ومن ستر العنق والوجه . ولكننا أبينا أن نصطنع من ذلك شيئا عناداً لهذا الجو ولهذه الطبيعة التى تريد أن تغير الأشياء فتقر الشتاء مكان الصيف . أبينا إلا أن نحتفظ بلباس المصطافين ومضينا فى طريقنا لانحفل بهذا الهواء البارد ولا نحفل بهذا المطر الذى أخذ ينهمر بعد حين والذى ما أسرع ما اخترق ثيابنا الصيفية وبعث فينا اضطراب العصفور بلله القطر . ولكننا مضينا فى عنادنا ولم نحفل بهذا الاضطراب وأبينا إلا أن نعتبر أنفسنا فى الصيف . ولم لا ؟ ألَمْ نتعود فى مصر ضروبا من الصبر والمقاومة وألوانا من الجلد والاحتمال ؟ ومضى القطار بنا حتى بلغنا « لورد » قبل الساعة التاسعة صباحا . فاذا مدينة كأحسن ما نعرف من المدن الفرنسية موقعاً ، يشرف عليها الجبل ويجرى من تحتها

النهر ، يتردد فيها هواء خفيف ولكنه ممتلىء حياة ونشاطاً لا يكاد يمسك حتى يجعلك حياة ونشاطاً ، فاذا أنت أقدر ما تكون على الحركة وأرغب ما تكون فيها ، و إذا أنت أقدر ما تكون على التفكير وأشوق ما تكون إليه . ولم نكد نترك المحطة ونندفع فى الشارع الذى ينتهى إلى المغارة حتى أحاطت بنا جموع من الرجال والنساء كلهم يعرض بضاعته وكلهم يلح فى عرضها وكلهم يتملقك ويترضاك وما هذه البضاعة إلا الفنادق و إلا الغرف فى منازل بعض السيدات اللاتى نزلن فى هذا الفصل عن بعض حجرهن وغرفهن واتخذنها تجارة ومصدراً للكسب . يتقدم إليك هذا السائق ليأخذ متاعك إلى سيارته الفخمة التى ستنتهى بك إن شئت إلى فندق كذا ، وهو ليس غالياً ولا مسرفا فى الشطط ، على أن فيه كل ماتحتاج إليه من أسباب الراحة ووسائل النعيم . ويتقدم إليك هذا السائق ليأخذ متاعك إلى عربته التي ستنتهى بك إلى فندق كذا ، وهو فندق حسن الموقع تشرف منه على مناظر بديعة ، وليس بينه و بين الغار إلا دقائق ، أما الأجر فقليل . وتتقدم إليك هذه السيدة باشة مبتسمة تعرض عليك غرفة جميلة واسعة حسنة الأثاث تشرف منها على الغار ، أما الأجر فنستطيع أن نتفق عليه ، وثق بأن ستكون مسروراً . ولكننا نجتهد فى أن نخلص من هؤلاء الناس جميعاً ، فلم نأت « لورد »

لنأوى إلى فندق أو خان ، ولا نمكث فيها أياماً ، و إنما أتيناها لنمكث فيها ساعات ثم نعود أدراجنا فقد زرنا « لورد » وزرناها وأكثرنا من زيارتها . ولولا شيء سمعناه أمس لما فكرنا هذه السنة فى أن نراها . ولكننا نتحدث فيما بيننا ونحن نشق صفوف هذه الجموع المزدحمة أمام المحطة بأن الفصل سيء هذه السنة فى « لورد » وأن تجار هذه المدينة سيشقَوْنَ بهذا الصيف . فقد كانت « لورد » دائماً شديدة الغلاء ولا سيما فى شهرى يولية وأغسطس حيث يزدحم عليها الحجيج من كل صوب ، وحيث تضيق بالأجيال المختلفة التى تؤمها من أقطار الأرض المسيحية كلها . نعم ! الفصل سيء فى هذه السنة فالحجيج قليل والفنادق بعيدة كل البعد عن أن تسترد شيئاً من نفقاتها الضخمة وهذه الحوانيت الكثيرة التى لا تكاد تحصى والتى تكتظ بألوان البضائع المختلفة ولا سيما هذه البضائع التى تخصص للتقوى والعبادة . هذه الحوانيت محزونة كئيبة تحس الكساد وتألم له ، فالناس لا يزدحمون عليها ، وهم لا يستبقون إلى الصلبان والسبح والتمائم ، و إنما يمرون بهذا كله معرضين عنه زاهدين فيه . وما مصدر هذا الكساد ؟ وما علة هذا الاحجام عن الحج فى هذا العام ؟ أما أنا فضحكت وعللت ذلك بانتصار حزب الشمال فى الانتخابات الفرنسية الأخيرة . فأنت تعلم أن حزب الشمال الفرنسى ملحد مسرف

فى الالحاد إلى حد أنه يتخذ الالحاد ديناً . و إذ قد انتصر هذا الحزب وانتصر بالطرق الديمقراطية الصحيحة أى برضا الفرنسيين و إرادتهم فلا بد من أن يكون هناك اتصال بين انتصار الالحاد وكساد التجارة فى « لورد » و إحجام الناس عن الحج إليها . وأما زوجى فضحكت وسخرت منى ومن حزب الشمال ومن أحزاب اليمين أيضاً وأخذت تلتمس العلة لهذا الكساد و إحجام الناس عن الحج إلى « لورد » فى ظروف الحياة الاقتصادية التى ارتفعت لها حاجات الناس ارتفاعاً شديداً . ألم ترتفع أجور السكك الحديدية ارتفاعاً فاحشاً أحجم له الناس لا عن الحج إلى « لورد » وحدها بل عن الحج إلى هذه المواقع الطبيعية البديعة فى الجبل وعلى سواحل البحر . فالفصل ليس سيئاً فى « لورد » وحدها و إنما هو سىء فى هذا الاقليم كله وما أحسب إلا أنه سىء فى جميع مواضع الراحة فى فرنسا . ومن هم الذين يحجون إلى « لورد » ؟ ألم تكن كثرتهم المطلقة من الفقراء والذين يشبهون الفقراء والذين يحتاجون إلى الحساب والتدقيق فى الحساب ليعيشوا فضلا عن أن يستمتعوا بشيء من اللهو والراحة ، أو أن يبيحوا لأنفسهم سياحة من السياحات . الظروف الاقتصادية إذن هى التى صرفت الناس عن «لورد» لا الظروف الدينية ولا الظروف السياسية ، ومهما يكن من شىء فقد زرنا « لورد » ومضينا فى شوارعها وانتهينا

إلى الغار وإلى الينبوع ، فاذا حوله جماعات من الناس لا تذكر بالقياس إلى تلك الجماعات التى كنا نراها من قبل ، ولكنها مع ذلك كثيرة ولكنها مع ذلك بائسة ، ولكنها مع ذلك تملأ القلوب حزناً وحسرة ، ولكنها مع ذلك تدعو العقل إلى التفكير وتبعث الانسان إذا كان جافياً غليظ الطبع على أن يسخر من الانسان ، وتبعثه إن كان رقيقاً حساساً على أن يعطف على الانسان . أنظر إلى هؤلاء الناس الذين انبثوا حول الغار والينبوع خاشعين يصلون ويضرعون ويتوسلون ويتمسحون بالأحجار ويغمسون أيديهم فى الماء ويشربون منه وفيهم المكفوف وفيهم المقعد وفيهم من أصابته ضروب الشلل وفيهم من ألح عليهم الجذام وفيهم من أنهكتهم العلل المتباينة ، وفيهم الأصحاء أقبلوا يتضرعون لأبنائهم وبناتهم وآبائهم وأمهاتهم وإخوانهم وأخواتهم ، كل هؤلاء منبثون حول الغار والينبوع لا يضحكون ولا يلهون ولا يحفلون بجمال الطبيعة ولا يستمتعون بروعة المنظر ولا يكترثون لهذا الجو الذى قد يبرد حتى يبعث الرعدة وقد يسخن حتى يتصبب له العرق . هم منصرفون عن هذا كله إلى صلاتهم يبتهلون إلى العذراء التى ظهرت فى هذا المكان سنة ١٨٥٨ للفتاة « برناديت » وأوحت اليها أن تأمر الناس باقامة كنيسة لها فى هذا المكان وأثبتت ظهورها باخراج هذا الينبوع الذى تفجر عنه الصخر أمام هذه الفتاة

الراعية فرآه الناس وآمنوا له ، وصدقوا الفتاة، وتحولت له هذه القرية التي كانت خاملة إلى مدينة ضخمة فيها من أسباب الترف وألوان النعيم ما لم تبلغه مدن كثيرة قديمة العهد بالنمو في هذا الاقليم . يبتهل هؤلاء الناس إلى هذه العذراء أن تشفي مرضاهم و ينتظرون الساعة المعينة التي يقوم فيها رجال الدين بحركاتهم اليومية فيغمسون المرضى في الماء المقدس ، ماء الينبوع ، و يصلون و يبتهلون و ينتظرون المعجزة فتواتيهم حينا وتخلفهم حيناً . ومن سوء حظ « لورد » ورجال الدين في هذا العام أن العذراء لم تحدث معجزة منذ ابتدأ الفصل وهم يبتهلون و يتضرعون و يلحون في الابتهال والتضرع و يغمسون المرضى في الماء ويخرجونهم منه ثم يردونهم اليه و يخرجونهم منه ، والأساقفة يترددون على المدينة و يشرفون على هذه الحفلات والصلوات ، ولكن العذراء عنهم معرضة لا تسمح لهم ولا تلتفت إليهم ، وكانت قد عودتهم أن تحدث لهم في كل عام معجزة أو معجزات ، فما لها هذا العام قد تركت مدينتها وأعرضت عن عبادها ؟ أما أنا فضحكت هذه المرة كما ضحكت في المرة الأولى وقلت إن العذراء مغضبة لأن حزب الشمال قد انتصر في الانتخاب ولو قد انتصر حزب اليمين لما تصرَّم يوم من أيام هذا الفصل دون أن تحدث العذراء معجزات تضطرب لها أرجاء الأرض ، ولو قد انتصر حزب الوسط الذي ليس

هو بالمؤمن ولا بالملحد ولكنه على كل حال قد استأنف العلاقات السياسية مع « البابا » لما رضيت العذراء أن يتصرم الفصل أو جزء عظيم منه دون أن تحدث معجزة أو معجزات . ولكن زوجي زجرتني زجراً شديداً وهي تقول ما يصلح هذا الموضع لمثل هذا الهذيان فأرجئه إلى حيث تخلو إلى نفسك فلا تؤذي به أحداً . . . فسكت ولكني لم أحدثك إلى الآن عن السبب الذي من أجله فكرت في أن أزور « لورد » هذا العام : وهو سبب لا يحتاج إلى أن يكون موضوعاً للحديث ولكنه مع ذلك كلفني هذه السياحة القصيرة وأزعجني عن مضجعي ولمّا تشرقْ الشمس . ذلك أني سمعت القسيس يخطب الناس في « ارجليس » ويقرأ عليهم منشوراً أصدره « البابا » رفع به « برنديت » هذه الفتاة الراعية التي ظهرت لها العذراء في « لورد » إلى منزلة السعداء التي ليس فوقها إلا منزلة واحدة فيما أظن هي منزلة القديسين . قرأ القسيس هذا المنشور ثم انتقل منه إلى حياة « برنديت » فذكرها مفصلة حتى إذا بلغ ظهور العذراء لهذه الفتاة الراعية أخذ يلح في إثبات ذلك بالأدلة المختلفة ثم أخذ يسرد المعجزات أو طائفة من المعجزات التي أحدثتها العذراء في « لورد » فان هذه المعجزات لا يمكن أن تحصى . وأخذ يذكر لنا معجزات قائمة بين أيدينا لا سبيل إلى جحودها فهذه السيدة التي تتردد في

الكنيسة لتجلس الناس وتتقاضى منهم أجور الكراسى وتتقاضى منهم الصدقات، هذه السيدة التى ترونها جميعاً فى حركتها ونشاطها وخفتها ، هذه السيدة ، انظروا اليها تسعى بينكم . ليس بينها وبين أشدكم قوة فرق . أنظروا إليها لقد كانت مُقعدة فأطلقت العذراء ساقيها فى « لورد » وأنتم أهل هذه المدينة تعرفون فلانة وتعرفون علتها التى أعيت الأطباء أعواما لقد شفتها العذراء فى العام الماضى وماأظن أن منكم من يجرأ على إنكار هذه الواقعة . . . . وفى الحق أن أهل المدينة لا ينكرون هذه الواقعة ولا الواقعة التى سبقتها ولكن فى الحق أيضاً أنى رأيت امرأتين إحداهما بدّالة تبيع ألوان البقل وضروبا من المتاع وهى عرجاء أصابها ألم فى القدم منذ سنين وعجز الأطباء عن شفائه ولم تغن فيه المياه المعدنية المختلفة شيئاً . وهذه المرأة تتردد كل عام إلى « لورد » فتشرب من ينبوعها وتستحم فى أحواضها كما كانت تتردد إلى المدن والقرى التى تمتاز بمياهها المعدنية الحارة والباردة وتصلى إلى العذراء وتبتهل دون أن تحدث العذراء فيها معجزة وهى غير يائسة ولا قانطة ، بل هى تعتزم السفر إلى لورد بعد أيام . والأخرى امرأة عرجاء أيضاً ، ولدت معوجة الساقين فهى لا تمشى وإنما تحجل وتجد فى ذلك مشقة شديدة . رأيتها فى بعض

الرياضات لأنها مكلفة أن تحرس ممر القطار فى طريق مسلوكة .
وكنا قد أخطأنا الطريق إلى المدينة فما زالت معنا حتى اهتدينا ، وقد
قطعت بنا طرقا مجهولة شاقة فتحدثنا إليها أكثر من نصف ساعة
وعرفنا علمها وعرفنا أنها ألحت على العذراء وشربت كثيراً من ينبوع
« لورد » وانغمست كثيراً فى أحواض « لورد » ولكن العذراء لم
تلتفت إليها فيئست من العذراء وجحدت « لورد » وسخرت منها ورضيت
علمها واطمأنت إليها . رأيت هاتين المرأتين ولكنهما فيما يظهر لا تصلحان
حجة على أنصار « لورد » فالعذراء ليست مكلفة أن تشفى كل مريض
وإنما هى تشفى من تريد أن تشفى — ومن يدرى ؟ لعلها تشفى
المرأتين فى يوم من الأيام . سمعت ما سمعت ورأيت ما رأيت فاشتقت
إلى زيارة « لورد » وطمعت فى أن تظهر معجزة يوم زيارتى ، ولست
أمزح ولا ألهو فان المعجزات قد ظهرت فى « لورد » وما أظن إلا
أنها ستظهر أيضاً ، غير أن العلماء يعللون هذه المعجزات تعليلا ويعللها
القسيسون تعليلا آخر ، وأنت حر فى أن تصدق العلماء أو فى أن تصدق
القسيسين . أما أنا فقد طمعت فى أن أرى المعجزة ولكنى لم أر شيئاً .
ثم طمعت فى أن أسمع بالمعجزة أثناء إقامتى فى « أرجليس » على مسافة
قصيرة من « لورد » ولكنى لم أسمع شيئاً . ثم سافرت من أرجليس
وإنى لفى القطار إلى حيث أقيم الآن وإذا سيدتان تتحدثان ...

ماذا أسمع . أصغيت ثم استعدت السيدتين حديثهما .

ظهرت المعجزة فى لورد منـذ يومين اثنين ، ذلك أن أسرة اسبانية أقبلت إلى لورد ومعها فتاة مقعدة فلم يكد رجال الدين يغمسون هذه الفتاة فى الحوض ويفرغون من صلاتهم ودعائهم حتى نهضت الفتاة معتدلة القوام ، لا أقول تسعى بل تجرى . . . ظهرت المعجزة فى لورد وذاع أمرها وتحقق الناس صحتها واعترف بذلك مكتب الاثبات الطبى الذى أقيم فى لورد ليثبت صحة المعجزات أو ينكرها . وإذن فسيحسن الفصل فى لورد هذا العام ، ولكنى أسف الأسف كله لأنى لم أسمع بهذه المعجزة إلا فى القطار على بعد عشر ساعات من لورد . . .

بوليجان (فرنسا) فى ١٩ أغسطس سنة ١٩٢٤

٣

الخيل ! الخيل !

دوى هذا النداء فى أرجاء الغابة وما أسرع ما استجاب له الفرسان يُهْرَعون من كل صوب حتى بلغوا جيادهم فامتطوها ، وما هى إلا أن أخذت تعدو بهم عدواً سريعاً ، ولكنه منسجم تنظمه ألحان الموسيقى التى لا تخلو من عذوبة ساذجة ، ولا تبعث على حرب ولا تدعو إلى قتال . ذلك أن هؤلاء الفرسان لم يكونوا رجالا ، وإنما كانوا أطفالا ، وأن هذه الخيل لم تكن جياداً مطهمة كريمة النسب ، وإنما كانت جياداً من الخشب

دعا الداعى : الخيل ! الخيل ! فأسرع الأطفال إلى الخيل فامتطوها وأسرعت الخيل فدارت بهؤلاء الأطفال ، وأسرعت الموسيقى فعزفت لهم ألحانها ، ووقف الكبار من رجال ونساء ينظرون ويبسمون فرحين مبتهجين بما يستمتع به أبناؤهم من هذا اللهو البرىء ، ثم انتهت دورة الخيل وآن دفع الأجر ، وتقدم الناس يؤدون هذا الأجر عن أبنائهم فاذا هذا الأجر مضاعف هذا المساء وإذا الذى يتقاضاه من الناس قسيس يزدان بلباسه التيلى ، وإذا

الناس يبذلون ما يطلب إليهم عن طيب نفس وقرة عين ، وإذا القسيس يستأنف دعاءه بصوته الضخم الخيل ! الخيل ! وإذا الأطفال يسرعون إلى هذه الخيل فيمتطونها وإذا الموسيقى تستأنف لحنها . وقضى القسيس مساءه على هذه الحال يدعو إلى الخيل ويشرف على دورة الخيل ويتقاضى أجور الخيل .

وعلى مسافة قصيرة من هذا القسيس الذي وقف مساءه على تلهية الأطفال وجمع المال طائفة من السيدات ، من خيرة السيدات من ذوات المكانة فى المدينة قد اتخذن لباس الخدم وطفن على الناس يقدمن إليهم ألوان الحلوى وصنوف الفاكهة وأكؤس الشاى ويقدمن مع هذه الأطعمة والأشربة بسمات عذبة وضحكات حلوة ولحظات فتانة ، ويتقاضين أجر هذا كله أضعافاً مضاعفة . وعلى مسافة من هؤلاء السيدات طائفة أخرى من الفتيات الناشئات يطفن على الناس بأوراق النصيب ، والناس يتهافتون على هذا كله يطعمون ويشربون ويشترون الورق ويمزحون ويَفْتَنُّونَ فى اللهو النزيه افتنان الأطفال فى اللهو البرىء . ذلك أن المدينة قد أقامت فى هذا اليوم حفلا لعمل من أعمال البر ، فأدى كل واحد من أهل المدينة ما للبر عليه من حق ، دفع هذا ماله ووقف هذا وقته وآثر هذا بلهوه هذا العمل الخيرى . وليس فى هذا الأمر بدع فحفلات البر

مألوفة فى أوربا ومصر ، وأسواق البر معروفة هنا وهناك ، والخلقيون يختلفون اختلافا شديداً فى الحكم على هذه الحفلات والأسواق ، قوم يحمدونها لأنها تؤدى إلى الخير وقوم يمقتونها لأنها لا تخلو من لهو وتكلف ، ولأن الخير خليق أن يصدر عن الانسان كما تصدر الأشياء الفطرية فى غير حيلة ولا تصنع . ليس فى هذه الحفلات بدع إذن ، وما كنت لأحدثك عنها لولا أن رأيت هذا القسيس قد اختار لنفسه هذا النوع من العمل ، فقضى ساعات من نهاره لا يقدس الله ولا يقرأ الانجيل ولا يتغنى بهذه الأغانى التى يقصر عليها القسيسون ظهر يوم الأحد عادة فى كنائسهم ، وإنما يشرف على لهو الأطفال ودورة الخيل ويصيح بأعلى صوته من حين إلى حين الخيل ! الخيل ! ويتوسم وجوه الناس فيأخذ منهم أجر الخيل متناسبا مع ما توسم فى وجوههم من ثراء أو عسر . لولا أنى رأيت هذا القسيس وسمعته لما فكرت فى أن أتحدث إليك بشىء عن هذا الحفل ، بل لقد كنت أود لولم أكتب بهذا الحديث إلى « السياسة » ولا إلى صحيفة سيارة . كنت أود لو جعلت هذا الحديث موضوع رسالة خاصة أبعث بها إلى صديق من أصدقائى علماء الدين الاسلامى فى مصر ، أبعث بها إلى الأستاذ الزنكلونى مثلا ! ولكنى أحببت

أن تكون هذه الرسالة ذائعة يقرؤها الأزهريون جميعاً ويفكرون فيها قليلا أو كثيراً .

لست أخفى على الأزهريين وعلى علماء الدين خاصة أنى أعجبت بهذا القسيس وتمنيت لو أرى علماء الدين عندنا يشرفون على مثل هذه الخيل ويدعون إليها مثل هؤلاء الأطفال ويتقاضون على ذلك مثل هذا الأجر يضاعفونه ما شاءت لهم حاجة الأعمال الخيرية التى يدعو إليها الدين أو التى تمس إليها حاجة الفقراء والبائسين فى مصر .

أعتقد أن علماء الدين فى حاجة شديدة إلى الوقار والمهابة وأن حاجتهم إلى الوقار والمهابة تحظر عليهم حركات ومواقف تباح لغيرهم من الناس ، ولكنى أعتقد أن هذا القسيس الذى كان يدعو الأطفال إلى الخيل لم ينزل من وقاره عن قليل ولا كثير وإنما أضاف إلى هيبته هيبة ، وإلى وقاره وقاراً ، وأدى عمله الدينى كما ينبغى أن يؤديه حين سلك إلى الخير هذه السبيل الخصبة التى تجمع له من المال ما يحتاج إليه دون أن يتكلف استجداء أو يتحمل العناء فى دعوة الناس إلى الصدقة والاحسان . فما الذى يمنع رجال الدين فى مصر أن يسلكوا مثل هذه السبل ؟ ما الذى يمنع رجال الدين ؟ يمنعهم أنهم يعيشون فى عصرهم هذا دون أن يكونوا من أهله ودون أن يشعروا شعوراً صحيحاً بحاجاته وضروراته ووسائل العيش فيه .

ثم يمنعهم أن الدولة تدر عليهم أرزاقاً قد لا تكون كثيرة ولا غزيرة ولكنها الآن أكثر وأغزر منها منذ عشر سنين . هى بحيث تمكنهم من الحياة الهادئة المطمئنة ؛ وما أحسبهم يطمعون مع الأسف الشديد فى أكثر من الحياة المطمئنة . ثم يمنعهم شىء آخر هو أجل من هذا كله خطراً وأنا قائله ومعتذر إلى علماء الدين من هذه الصراحة فى القول ، يمنعهم أن الواجب الذى يشعرون به ويعتقدون أنهم مكلفون أداءه فى هذه الحياة ضيق جداً أضيق من الواجب الحقيقى الذى يفرضه عليهم الدين وحاجة الاجتماع . هم يعتقدون أنهم علماء أى أن الله قد أودعهم علوم الدين فهم يبذلون هذه العلوم للناس فى الأزهر وملحقاته ، وهم يصلون ويشرفون على إقامة الشعائر الدينية الرسمية . وإذا ألقوا دروسهم وأدوا صلواتهم وألقى بعضهم من حين إلى حين خطب الوعظ ، فقد أدوا ما يجب عليهم لله والناس وإذ كان الناس لا يطمعون فى علوم الدين اليوم كما كانوا يطمعون فيها فى القرن الماضى ، وإذ كان الناس لا يختلفون إلى المساجد فى هذه الأيام كما كانوا يختلفون إليها فى الأيام الماضية ، فقد أصبح نفع العلماء للهيئة الاجتماعية كما يقولون محدوداً ، قليلا ، وسيشتد قلة مع مضى الزمن لأن اختلاف الناس إلى الأزهر سيقل غداً كما قل اليوم ، ومن هنا يزيد العلماء على حاجة الاجتماع ، وتصبح طائفتهم بعد زمان طويل

أو قصير طائفة لا تشتد الحاجة إليها . إذن فالعلماء بين اثنتين ، إما أن يقاربوا بين أنفسهم وبين العصر الذى يعيشون فيه وأن يصبحوا كغيرهم من الناس يشعرون بما يشعر به معاصروهم ، وإما أن يستعدوا لهذا اليوم الذى ليس منه بد ، والذى يصبحون فيه عالة على الجماعة المصرية لا يرجى منهم خير ولا يعتمد عليهم في نفع .

نعم ! يتصور العلماء واجبهم تصوراً ضيقاً جداً ، فهم مكلفون شيئاً آخر غير إلقاء الدروس وإقامة الصلوات ، هم مكلفون أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، ولم يقل أحد إن إلقاء الدروس وإقامة الصلاة هما كل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . هم مكلفون أن يشتركوا فى جميع أعمال الخير . هم مكلفون أن يحتملوا ألوان العناء فى كشف الضر عن البائسين . هم مكلفون ألا تخلو منهم جماعة خيرية . هم مكلفون ألا تخلو محلة فى مصر من آثارهم الخيرية . هم مكلفون أن يتصوروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تصوراً صحيحاً واسعاً يجعلهم عضواً نافعاً في الجماعة .

لو يعلم رجال الدين عندنا ماذا يصنع رجال الدين فى أوربا من هذه الناحية لدهشوا دهشاً عظيما ولعلموا أنهم بعيدون كل البعد عن أداء واجبهم الدينى . كتبت من أوربا فى السنة الماضية فصولا عن رجال الدين الغربيين وعن هذا الجهد العظيم الذى يبذلونه ليكون

حظهم من العلم والفن كحظ غيرهم من رجال العلم والفن ، وذكرت هذا الأسقف الذى اشترك فى مؤتمر التاريخ فى بروكسل وذكرت هؤلاء القسيسين الذين قدموا إلى هذا المؤتمر مذكرات قيمة تمس فروع التاريخ على اختلافها وتمنيت لو استطاع عالم من علماء الدين عندنا أن يشترك فى المؤتمر الجغرافى الذى سيقام فى مصر فى العام المقبل . أما فى هذا الفصل فلست أذكر علم رجال الدين الغربيين ولا اجتهادهم فى تحصيل العلم ، وإنما أذكر تصورهم لواجبهم الدينى وهو مع الأسف الشديد أصح وأرقى من تصور علمائنا لواجبهم

اذهب إلى أصغر قرية وأحقرها من قرى أوروبا وتبين عمل القسيس فى هذه القرية تجده عظيما شديد التشعب ، فهو يؤدى قبل كل شىء واجبه الدينى المعقد في الكنيسة يقيم هذه الصلوات الكثيرة المتنوعة و يتقبل اعترافات المؤمنين إلى غير ذلك من أعمال الكنيسة . وهو يعنى بكنيسته عناية مادية فيشرف لا على أن تكون نظيفة حسنة النظام بل على أن تزدان بما استطاع أن يزينها به من آثار الفن ، ثم هو بعد هذا أستاذ دينى لأطفال القرية جميعاً يختلفون إليه فى كل يوم يأخذون عنه مبادىء الدين وأصوله ، ثم هو موسيقى بحكم عمله الدينى وهو أستاذ الموسيقى فى قريته ، ثم هو متغلغل فى حياة القرية لا يفلت من يده مولود ولا ميت ، يتلقى المولود ليعمده

ويزور المحتضر ليصلى عليه ويلهمه كلمة الدين ، وهو يجود بنفسه ، ويودعه إلى قبره ، ثم هو بعدهذا كله مكلف بحكم الدين أن يبحث عن الضعفاء وذوى الحاجة فيواسيهم ويعزيهم ويلقى ألوان العناء فى حمل الناس على الصدقات يأخذ من أغنيائهم مايرده على فقرائهم ، ثم هو بعد هذا وذاك رجل طُلَعَةٌ يريد أن يتعلم ، فهو يختص بدرس نوع من أنواع العلم أو لون من ألوان الفن .

هذه خلاصة حياة القسيس فى قرى أوروبا ومدنها . فأين منها حياة رجال الدين فى الشرق الاسلامى ؟ ومن هنا انتهت أوروبا إلى ما انتهت إليه من الالحاد والكفر ورفض الدين ، ولكنها لم تستطع ولن تستطيع أن تخلص من القسيسين . ذلك لأن القسيسين يتطورون مع أوروبا ويحتالون فى ألا تفوتهم الجماعات أو تفلت من أيديهم ويسلكون السبل المختلفة ليصلوا إلى قلوب الناس من طريق الدين إن كانوا مؤمنين ومن طريق العلم إن كانوا علماء ومن طريق الفن إن كانوا فنيين ، ومن طريق الخير إن كان شىء من هذا لا يعنيهم . ومن هنا كان القسيس فى أوروبا جزءاً غير منفصل من الجماعات لا يستغنى عن الجماعة ولا تستغنى الجماعة عنه . ومن هنا انفصلت الكنيسة عن الدولة فى فرنسا مثلاوانقطعت معونة الدولة للكنيسة فما انهارت الكنيسة ولا افتقر رجالها وإنما أدى الناس إلى الكنيسة

ورجالها أضعاف ما كانت تؤديه إليهم الدولة . وهذه مدارس الكنيسة في فرنسا تزاحم مدارس الدولة فتزحمها . فأين رجال الدين في الشرق الاسلامي من رجال الدين في الغرب المسيحي ؟ وماذا يرى الأستاذ الزنكلوني والأستاذ أبو العيون وأصحابهما في هذا كله وأيهما أجدى وأليق بالكرامة ؟ أن يعمل رجال الدين حتى يكرهوا الدولة والأمة على أن يشعرا بالحاجة إليهم أم لا يعملوا وإنما يلحون في الطلب ويبالغون في الالحاح ويحرصون على أن يتدخلوا في كل شيء دون أن يشعر الناس بنفعهم حين يتدخلون في كل شيء ؟ أما أني أتمنى على الأساتذة علماء الدين أن يفكروا في هذا ويطيلوا التفكير فيه فقد يجدون فيه عظة وعبرة . ثم لا أخفي عليهم أني معجب بهذا القسيس الذي سمعته يدعو الأطفال إلى الخيل وأتمنى أن أجد بين شيوخنا من يستطيع في يوم من الأيام أن يدعو الأطفال إلى الخيل دون أن يجد من جبته أو عمامته ما يصرفه عن ذلك أو يزهده فيه .

البوليجين في ٢١ اغسطس سنة ١٩٢٤

٤

باريس

أريد أن أكتب عن باريس ، ولكنى لا أدرى ماذا أقول عن باريس ، لا لأن الكلام يعوزنى ، ولا لأن الخواطر تنقصنى ، بل لأن لدى خواطر لا أستطيع أن أحصيها ولا أن أنظمها ، ولأن لدى كلاما لا أستطيع أن يؤثر بعضه على بعض ، فما أكثر ما أريد أن أقول ، وما أشد عجزى عن تسطير ما أريد أن أقول . وماذا تريد أن أفعل ؟ ولست من الفن ورقة القلب بحيث كان الكاتب الفرنسى « رينان » الذى زار عاصمة العالم القديم فقدم إلى آلهتها هذه الآية الفنية الخالدة التى هي صلاته إلى آلهة الحكمة فى أتينا . ماذا تريد أن أفعل وليس لى حظ « رينان » من الفن ولا من رقة القلب ، وقد حرمنى الله كل خيال أو قدرة على التصرف فى الخيال . ومع ذلك ففى باريس آلهة يستحقون أن يتقدم إليهم الانسان بالصلاة كما تقدم « رينان » إلى آلهة الحكمة فى مدينة أتينا

فى باريس علم لا يقاس إليه علم الأتينيين ، وفى باريس فلسفة لاتقاس اليها فلسفة الأتينيين وفى باريس حرية لاتذكر معها حرية

الأتينيين ، وفى باريس حضارة تهينها إن قرنت إليها حضارة الأتينيين . وفى باريس حياة يعجز الفرد مهما تكن قوته عن فهمها والاحاطة بها والتعمق فى تحليلها ثم يعجز الفرد مهما تكن قوته عن أن يعطيك منها صورة صحيحة أو مقاربة . ليس بين أتينا وباريس إلا شبه واحد وهو أن أتينا كانت عاصمة العالم القديم ، وأن باريس عاصمة العالم الحديث . فاذا قرنا هذا الشبه فيجب أن نقرر ما بين المدينتين من فرق وهو عظيم أعظم من أن تتصوره ، هو الفرق بين العالم القديم والعالم الحديث

أنا مفتون بأتينا وفاسفتها وفلاسفتها وحريتها وزعمائها ، ولكنى على هذه الفتنة لا أستطيع أن أقيس أتينا إلى باريس

علم الأتينيين وفلسفتهم ، ماذا كانا بالقياس إلى ما فى باريس من علم وفلسفة ؟ كانا محاولة ساذجة غليظة فيها ضعف الأطفال وغرورهم لفهم الحياة وتفسيرها . حرية الأتينيين ماذا كانت بالقياس إلى الحرية فى باريس ؟ كانت نوعا من الامتياز لطائفة من الناس وضربا من التسلط والاحتكار انتهى بمصادرة حرية الرأى وبالحكم على سقراط بالموت . أما باريس فيكفى أن تصل اليها وأن تعيش فيها يوما أو بعض يوم لتشعر بما لها من عظمة وجلال وحق فى الخلود لستَ فى حاجة إلى أن تفهم ، ولست فى حاجة إلى أن تحلل ولست

فى حاجة إلى أن تكون عالماً أو أديباً لتكبر باريس أو تقدر مكانتها فى الحياة الحديثة وإنما يكفى أن تكون قادراً على أن ترى وقادراً على أن تسمع وقادراً على أن تتنسم الهواء وأنا زعيم لك بأنك ستقدر باريس وتكبرها وتحبها

ليس لى حظ « رينان » من الفن لأقدم إلى باريس الخالدة مثل ما قدم هو إلى أثينا الخالدة ، وليس لى حظ هذا الصديق المسافر الذى يرسل مذكراته إلى « السياسة » من حين إلى حين والذى أحسبه عاد الآن إلى مصر ، أقول ليس لى حظه من حلاوة الفكاهة ودقة الملاحظة وخفة الروح وسلامة الذوق لأحدثك عن باريس بشىء يشبه ما حدثك به عنها ، وإنما أنا بعيد كل البعد عن هذه الخصال التى امتاز بها هذا الصديق فجعلت فصوله ومقالاته حلوة عذبة أو جعلتها الحلاوة والعذوبة نفسهما ، ولكن لى وجها خاصا فى حب باريس والاعجاب بها والحياة فيها . وأحسب أن لكل إنسان يحب باريس وجها خاصا فى حبه لهذه المدينة ، فأنت لا تستطيع أن تحبها من كل وجه لأنها أوسع من حياتك وأعظم من قدرتك على الحب وأرفع وأجل من أن يحيط بها حب فرد أو افراد . أما حين كنت مقيما في الجبل أخرج من حين إلى حين للرياضة فأزور القرى وأتبين ما فيها من جمال طبيعى أو إنسانى فقد كنت لا أصل الى

قرية أو محلة إلا حاولت أن أشرب من مائها ، وكان يخيل إلىّ أنى متى ذقت هذا الماء الذى ينحدر إلى هذه القرية أو المحلة ويعيش منه أهلها فقد اتصلت نفسى بهذه القرية أو المحلة ، وشاركت أهلها فى شىء من الأشياء . كذلك كنت وأحسبنى سأكون أبداً لا أبلغ مكانا إلا حاولت أن تكون بينى وبينه صلة قوية أو ضعيفة . أما إذا بلغت باريس فلست أطمع فى أن أشرب من مائها لأوجد الصلة بينى وبين أهلها ، وإنما أطمع فى أشياء أخرى بها توجد هذه الصلة . ولا أعتقد أنى فى باريس حقاً إلا إذا أرضيت نفسى من هذه الأشياء . يجب أن أشترى كتابا فى العلم أو فى الأدب وأن أقرأ منه فصلا أو فصولا ، ويجب أن أذهب إلى ملعب من ملاعب التمثيل الهازل أو الجاد وأن أصفق مع المصفقين وأضحك مع الضاحكين أو أبكى مع الباكين . ثم يجب أن أذهب إلى مكان من هذه الأمكنة التى يختلف فيها الباريسيون إلى آيات الموسيقى فاستمع لهذا اللحن البديع وأنسى أمامه نفسى ساعة أو ساعتين فاذا اشتريت كتابا وقرأت ، وإذا ذهبت إلى ملعب التمثيل وتأثرت ، وإذا سمعت الموسيقى وذهلت لها فأنا فى باريس حقاً أشعر بما يشعر به الباريسيون ، وقد وجدت بينى وبينهم هذه الصلة التى أحب أن توجد بينى وبين كل مدينة أو قرية أزورها .

ولغيرى وجوه أخرى فى حب باريس . هناك من يحب باريس لما يجد فيها من هذه الحركة المنيفة، حركة الحياة العملية ، وهناك من يحب باريس لأن فيها « مونمارتر » ، وهناك من يحب باريس لأن فيها للفرد حرية لا تعدلها حرية ، وضروبا من اللذات منها المباح ومنها المنكر، منها ما يستطيع الانسان أن يعلنه إلى الناس جميعاً ، ومنها ما يحب الانسان أن يخفيه حتى على نفسه ، وهناك وجوه أخرى لا يكاد يبلغها الاحصاء ، ولكنها كلها تنتهى إلى نتيجة واحدة وهي أن شعوب الأرض جميعاً قد تحب فرنسا وقد تكرهها وقد تكون سلماً لها أو حرباً عليها ولكنها كلها مجمعة على حب باريس وإيثار الاقامة فيها حيناً من الدهر أو شطراً من العمر .

ولقد قرأت منذ أسابيع فصلا نقلته جريدة « الطان » عن إحدى الصحف الأميركية الكبرى حاول فيه كاتبه أن يتقصى الأسباب التى تحمل الناس جميعاً على أن يحبوا فرنسا و يؤثروا الاقامة فيها وفى باريس خاصة فأعجبنى هذا الفصل لأنه لا يخلو من صواب ولا من طرافة ، ولكنه بعيد كل البعد عن أن يحيط بأطراف المسألة حقا . يظهر أن الأميركيين يحبون فرنسا عامة و باريس خاصة لأن فيها سهولة العيش ولين الحياة وضروبا من اللذة لا يجدونها فى بلادهم،

أهمها لذة الطعام والشراب . فيظهر أن الله لم يرزق بلداً من البلاد من المهارة فى إجادة الطعام ما رزق فرنسا . ويظهر أنه لم يرزق بلداً من البلاد من جودة الأشربة مارزق فرنسا . فكثير من الأجانب الذين يهرعون إلى فرنسا في جميع أجزاء السنة إنما يهرعون إليها لأنهم يأكلون فيها فيجدون الأكل ، ويشربون فيها فيجدون الشراب . وكثير منهم يهرعون إلى فرنسا وإلى باريس خاصة لأنهم يجدون فى الشعب الفرنسى والباريسى ليناً فى الخلق وصفاء فى الطبع ورفقاً فى المعاملة وحلاوة فى الصلات لا يجدونها فى بلد آخر . وكثير منهم يهرعون إلى فرنسا وإلى باريس لأنهم يجدون فى فرنسا وفى باريس شيئاً من الفرح والابتهاج والابتسام للحياة مهما تكن صروفها ، ومهما تكن خطوبها ، لا يجدونه فى غير فرنسا وفى غير باريس . وهناك أسباب أخرى ذكرها هذا الكاتب وأسباب لم يذكرها . وماذا يعنينا أن نوفق إلى إحصاء الأسباب التى تحبب فرنسا إلى الناس وتحملهم على أن يهرعوا إلى باريس كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا . ماذا يعنينا من هذا كله ونحن لا نكتب تاريخاً ولا فلسفة وإنما نلاحظ حقيقة لا تحتمل شكا ولا إنكاراً : وهى أن الناس جميعاً مهما تختلف أهواؤهم بالقياس إلى فرنسا فهم يحبونها ويحبون منها باريس بنوع خاص .

obeikandi.com

لست كهذا العالم المصرى الذى كان يحب باريس ، وكان إذا وصل إليها تمرغ على أرضها كما كان يتمرغ قيس بن ذَريح على آثار لبنى! لست كهذا العالم. فما حدثتنى نفسى فى يوم من الأيام أن أهوى إلى أرض باريس لثما وتقبيلا . بل إن فى باريس لأماكن كثيرة يعرفها المصريون الذين اختلفوا إلى هذه المدينة ولا أعرفها ولم تحدثنى نفسى بأن أعرفها . وإن فى باريس لأماكن كثيرة أكرهها وأمقت الاختلاف إليها ، ولكنى أعشق فى باريس مكاناً أعتقد أنه أقدس مكان فى العالم الحديث ، وأنه الرأس المفكر لهذا العالم ، لا أستثنى منه بلداً ولا مكاناً ، وهو الحى اللاتينى . أنا أعشق هذا الحى وأهيم به هياماً وأعلن فى ضعف وتواضع أنى لا أكاد أحس نفسى فيه ولا أكاد أشعر بأنى أمشى في شوارعه حتى أشعر أن قد تجدد شبابى واستأنفت كل مافقدت من نشاط ، فأنا أتنفس فى حرية ، وأفكر فى حرية ، وأتحرك فى حرية ، وأنا أحب الحياة وأحرص عليها وأتمنى منها المزيد . وأقول إن هذا الحى اللاتينى هو أقدس مكان فى العالم الحديث وهو الرأس المفكر لهذا العالم ، ولست أقول هذا عبثاً ، ولا يدفعنى إليه الحب والاعجاب ، وإنما هو الحق الذى لا يقبل شكا ولا جدالا . وإنى لأشعر بشىء من المهابة والاجلال لا أستطيع وصفه كلما ذهبت إلى

هذه الرقعة من الأرض التى يقوم فيها « البنطيون » وترتفع فيها كنيسة « سانت جنفييف » . أشعر بهذه المهابة وهذا الاجلال لأن هذه الرقعة الصغيرة من الأرض كانت مصدر النور الذى انبعث فى أوروبا المظلمة أثناء القرون الوسطى قبل أن تظهر النهضة فى إيطاليا . لأن هذه الرقعة كانت مهد الفلسفة ومأواها حين لم تكن فرنسا كلها ولا أوروبا كلها إلا ميداناً تصطرع فيه المطامع والمنافع أقبح صراع وأشنعه . كانت هذه الرقعة من باريس مصدر الحياة العقلية لأوروبا كلها فى القرون الوسطى . ولقد تغير الزمان ودارت الأيام دوراتها المختلفة وعبثت الخطوب والأهوال بالعالم الحديث ، وظل هذا المكان من باريس مصدر الحياة العقلية للعالم كله أليست تقوم فيه جامعة « السربون » ؟ أليست تقوم فيه « الكوليج دى فرانس » ؟ ولقد أحب أن أجد معهداً علمياً فى أوروبا أو أمريكا أقرنه إلى « السربون » أو إلى « الكوليج دى فرانس » وأحصى له من الآثار فى إحياء العقل الانسانى وترقيته ما يقرب من آثار « السربون » و « الكوليج دى فرانس » فيعييني البحث ويخطئنى ما أريد .

إن فرنسا تستطيع أن تتعرض للأزمات المختلفة وأن تتجشم من الأهوال ضروبا وصروفا ، وأن تنزل بها المحنة بعد المحنة والبلاء

بعد البلاء ، و إن فرنسا لتستطيع أن تبلغ من المجد ما تريد وما لا تريد ، وأن تحرز من ألوان الظفر ما تحب وما لا تحب ، و إن فرنسا لتستطيع أن تنزل من قلوب الناس منزلة البغض أو منزلة الحب ، تستطيع فرنسا أن تفعل هذا كله وأن تتعرض لهذا كله ولكنها واثقة بالخلود واثقة بإكبار الناس إياها وتقديسهم لها ما بقى فيها الحى اللاتينى ، وما قامت فى هذا الحى « السربون » « والكوليج دى فرانس »

باريس فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٢٤

٥

فى ملاهى باريس

نعم! فقد لهوت وكانت رغبتى فى اللهو من البواعث القوية التى حببت إلىَّ الذهاب إلى باريس. ولِمَ أُخْفِى ذلك وأكتمه؟ وأنا أعلم والناس جميعاً يعلمون أن المسافر إلى باريس أو غيرها من مدن أوروبا إنما يتخذ اللهو غرضاً من الأغراض الأساسية فى برنامج رحلته. وهل كان السفر نفسه إلا ضربا من اللهو وفناً من فنون العبث يعمد إليه المتعبون ليستريحوا ويرغب فيه المستريحون ليتعبوا؟ وكنت متعباً. وكنت أريد أن أستريح. وكنت أرى الراحة فى أن ألهو عن هذه الأشياء التى قضيت فيها العام كله فأجهدتنى، وبغّضت إلى الحياة. وكنت وما زلت أعتقد أن من الحق للناس علىَّ وأن من الحق لى على نفسى أن أعود إلى هذه الأشياء التى سئمتها نفسى وسئمتنى وأن استأنف هذا العمل الذى أجهدنى طوال العام الماضى حتى بغض إلى الحياة. وكنت أعلم أنى لن أستطيع العودة إلى هذه الأشياء واستئناف هذا العمل إلا إذا استرحت ولهوت وأخذت من الراحة واللهو بحظ عظيم. وقد فعلت، وقد عدت إلى مصر، وقد

استأنفت هذا العمل الشاق ، فاذا هو هين لين لا عسر فيه ولا مشقة . ولكنى أعلم أنه سيعسر وأنه سيشق وأنى سأسأمه وأنه سيسأمنى وأنى سأنصرف عنه وأنه سيزهد فىّ ، وأنى سأحتاج إلى الراحة واللهو وأنى سأستريح وألهو ثم أستأنف الجد والعمل . وكذلك حياتنا نتعب لنستريح ونستريح لنتعب حتى يأتى هذا اليوم الذى لا تعب بعده ولا راحة .

إذاً فقد لهوت فى باريس . لا أكتم ذلك ولا أخفيه . ولِمَ أكتمه أو أخفيه وليس فيه والحمد لله مأثم ولا مدعاة إلى لوم ؟ وإنما هو ضحك برىء وعبث تطمئن إليه النفس الهادئة التى لا تعبث بها الأهواء ولا تعصف بها الشهوات .

لهوت فى باريس واختلفت فيها إلى أندية اللهو التى هى زينة تلك المدينة وبهجتها ولها فى رفع شأن باريس وتقديمها على غيرها من مدن الأرض أثر قد لا يكون أقل من أثر « السربون » و « الكليج دى فرانس » والمجامع العلمية المختلفة . ولم لا ؟ أليست جامعة باريس ومعاهدها العلمية ملجأ للعقل الانسانى تأوى إليه ثمراته ونتائج بحثه فى العلوم والفنون المختلفة ؟ وهل أندية اللهو البار يسى البرىء إلا ملاجىء للعقل الانسانى والشعور الإنسانى ؟ فيها تظهر ثمراتها الحلوة والمرة وفيها يتعلم الانسان من الانسان ، ويظهر الانسان

على الانسان ، وفيها يتعلم الانسان كيف يكون حيواناً اجتماعياً كما يقول أرسطاليس أو مدنياً بالطبع كما يقول فلاسفة العرب .

لست أدرى أيشعر المصريون المتعبون الذين يذهبون إلى باريس بمثل ما كنت أشعر به هذا الصيف ، فقد كنت شديد الميل إلى أندية الهزل والضحك شديد الانصراف عن أندية الجد والعبوس . لم أكن أميل فى هذا الصيف إلى بيت موليير ولا إلى ما يمثل فيه من جد . بل لم أكن أميل بوجه ما إلى التراجيديا إنما كان ميلى كله إلى الكوميديا من جهة وإلى الموسيقى من جهة أخرى .

ولقد حاولت أن أتبين فى نفسى أسباب هذا الميل إلى مايضحك ويلهى والانصراف عما يحزن ويعظ فلم أوفق إلا إلى سبب واحد لا أدرى أخطأ هو أم صواب ؟ ذلك أننا « مفطومون » فى مصر كما يقول الفرنسيون من اللهو الصريح البرىء ومن الضحك الذي يريح النفس حقاً ويجلو عن القلب أصداء الحياة العاملة . وهذه الحياة العاملة نفسها كئيبة فى مصر منذ سنين ، قد أثقلتها الهموم وأفعمتها الأحزان ، فنحن مشفقون على منافعنا العامة نخشى أن يعبث بها الخصوم فى الخارج أو أن يضيعها المواطنون فى الداخل . ونحن مشفقون على منافعنا الخاصة نخشى أن تعبث بها الخصومات الحزبية وتأتى عليها العواصف السياسية . نحن قلقون لا نطمئن إلى شىء

ولا نثق بشيء ولا نبسم لشيء . فليس عجيباً إذا خلصنا من هذا الجو القلق المضطرب أن نتهالك على هذه الأشياء التى حرمناها فى مصر وحال بيننا و بينها طبعنا من جهة واضطرابنا السياسى والاجتماعى من جهة أخرى .

نعم ! فطبعنا لا يخلو من ضخامة ؛ ومزاجنا أقرب إلى المرارة والحزن منه إلى الدعابة والابتسام .

نحن لا نلهو لأننا لا نعرف اللهو ولأن فى طباعنا نفوراً من اللهو . ولست أدرى أمخطىء أنا أم مصيب فى هذه الملاحظة وهى أننا كنا بعد الثورة الوطنية الأخيرة قد أخذنا نتعلم اللهو بل نسرف فيه ، فكانت الأغانى الفكاهية ذائعة عامة ، وكان التمثيل الفكاهى رائجاً ، منتشراً ، وكنت لا تكاد تمضى فى الشوارع العامة إلا سمعت الأطفال والشبان من العمال ومن إليهم يتغنون أغانى « كشكش » وكنت لا تكاد تمر بين الدور فى الأحياء الراقية إذا أقبل المساء أو جن الليل إلا سمعت البيانو يوقع ألحان كشكش . وربما وقفت لاستماع صوت رخيم عذب يتغنى مع هذا الايقاع . وكان أصحاب الأخلاق وأهل الحرص على الآداب العامة ينكرون هذا الفساد ويشفقون منه . وكنا نقول إن هذا الانحلال الخلقى عرض من أعراض الثورة . وكنا نستبشر به لأن الثورة الفرنسية قد استتبعت مثله ، فكان

الفرنسيون يجاهدون أعداءهم الداخليين والخارجيين ، وكانوا يحتملون آلام الجوع والفاقة ولكنهم كانوا يلهون ويسرفون فى اللهو . وربما كانوا يستعينون باللهو على ما كانوا يأتون من جلائل الأعمال ويحتملون من أثقال الحياة .

كنا كذلك ، وأظن أن السلطة العامة احتاجت فى بعض الأحيان إلى أن تدخل فى الأمر وتكفكف من غلواء المسرفين فأقفلت أو حاولت أن تقفل بعض المراقص . أما الآن فأحسب أن هذا قد تغير وأننا قد انصرفنا عن اللهو انصرافا واضحاً .

انصرفنا عن اللهو دون أن يعظم حظنا من الجد ، فليست حياتنا العامة والخاصة أكثر إنتاجا وأشد خصباً الآن منها حين كنا نلهو ونعبث . ولعلى لا أغلو فى الخطأ إذا لاحظت أن حياتنا الدستورية هى التى صرفتنا عما كنا فيه من لهو ، وأزالت عن شفاهنا هذا الابتسام للحياة . ذلك لأننا اعتقدنا يوم نفذ الدستور وأشرف البرلمان على الحكم أن الأمر قد رد إلى أهله ، وأننا مقبلون على ساعات الجد والعمل فانتظرنا وما زلنا ننتظر .

ولم لا نقول كلمة الحق ؟ كانت الوزارات التى أشرفت على الحكم قبل الدستور قليلة الحظ من ثقة الجماهير ، فلم يكن الناس يحفلون بها ، ولا ينتظرون منها خيراً بل كانوا يسيئون بها الظن ويتخذونها موضعاً

للعبث والنقد . وكانت أعمالها وقراراتها تلهم الممثلين الهازلين والمغنين العابثين . وكان الناس يرتاحون إلى الضحك منها واتخاذها سخرية وهزؤاً . أما الآن فقد أشرف على الحكم رجال كانت تحبهم الجماهير وتفتن بهم ، فلم يكن من الميسور أن تتخذهم الجماهير موضوعاً للهو والعبث . وإذا لم تعبث الجماهير بحكامها ولم تسخر من وزرائها ونوابها فهى مضطرة إلى الحزن والكآبة .

سلنى عما يميز الديموقراطية حقاً ، أجبك بأن النظام الديموقراطى الصحيح هو الذى يتيح للجماهير ان تلهو على حساب حكوماتها بل على حساب أبطالها . فاذا أردت دليلا ناطقاً بصدق هذا التعريف فاذهب إلى باريس واختلف إلى أندية اللهو فيها واسمع إلى ما يقال عن « هريو » و « دومرج » وعن « بوانكاريه » و « ملران » وانظر إلى هذه الجماهير الفرنسية المختلفة تتهالك ضحكا من وزرائها ورؤساء جمهوريتها ، استغفر الله بل من علمائها وكتابها . ومهما أنس فلن أنسى أغنيتين سمعتهما فى باريس ورأيت ابتهاج الجماهير لهما . فى إحداهما مقارنة بين أمعاء المسيو هريو رئيس الوزارة الفرنسية القائمة وأمعاء المسيو بوانكاريه رئيس الوزارة الفرنسية المستقيلة ، وفى الأخرى عبث بالمسيو هريو حين يعمد إلى التلفون .

ولكنى قد بعدت أشد البعد عما كنت أريد أن أتحدث إليك

فيه ، وهو ملاهي باريس وقد يحسن أن أعود إلى هذا الحديث

لم أكن حسن الحظ هـذا الصيف ، وما أظن أن غيرى كان أحسن حظا منى . فقد وصلنا إلى باريس أيام الراحة حين يتفرق عنها الممثلون النابهون ليجوبوا أقطار الأرض الفرنسية والأجنبية وليعرضوا فنهم على المصطافين فى سواحل البحر ومدن المياه ، وحين يستريح الكتاب استعدادا لفصل الشتاء إذ يعرضون آثارهم الجديدة على الجمهور الباريسى وقد عاد من مصايفه إلى باريس ، وحين تجتهد الملاعب التمثيلية فى أن تستغل ما لديها من قصص الفصل الماضى لتلهى بها السائحين الذين يمرون بباريس . ومع ذلك فقد لهوت حقاً وضحكت كثيرا .

ولقد يكون من العسير أن أذكر دون أن أضحك قصة شهدتها في ملعب « الباليه رويال » عنوانها « قبلنى » كان الممثلون يمثلونها للمرات الأخيرة ويستعدون لتمثيل قصة أخرى ظهرت أول هذا الشهر ومع ذلك فقد كان الملعب مكتظا بالنظارة . والغريب من أمر باريس أنك تستطيع أن تزورها فى أى فصل من فصول السنة وأن تختلف إلى ملاعبها وأنديتها وبيوتها التجارية ، فستجدها دائما مكتظة بالناس وستضطر دائما إلى أن تتخذ الحيطة لتبلغ منها ما تريد .

تريد أن تشهد قصة تمثيلية فيجب أن تأجر كرسيك فى الملعب

قبل يوم التمثيل . تريد أن تشترى شيئاً فى أحد البيوت التجارية الكبرى فيجب أن تذهب فى الصباح أو أن تكون صبوراً محتملا إن ذهبت فى المساء

ذهبت إلى الملعب بعد ظهر يوم من أيام الآحاد الباريسية ، ولم أكن قد احتطت وكان المطر عنيفاً ثقيلا فلم أجد إلا كراسى فاحشة الغلاء فاتخذت منها كرسيين ، وأعترف بأنى لم آسف على ما أنفقت لأنى ضحكت بأكثر من ستين فرنكا !!

أسرة شريفة كانت غنية ثم أصابها الفقر ، تقيم فى قصرها المرهون محتملة ألوانا من الضيق ، ثم تصبح ذات يوم واذا القصر قد بيع من أجنبى ، و إذا هى مضطرة إلى أن تترك هذا القصر الذى تتوارثه منذ خمسة قرون . ولكن لهذه الأسرة شابا مسرفا فى اللعب والعبث قد أدى واجبه الوطنى أثناء الحرب وعرف فى الخندق صديقا من الطبقات المنحطة أمه تبيع الفاكهة ، وقد انقضت الحرب واغتنى ابن بائعة الفاكهة حتى أصبح ضخم الثروة فكتب إليه صديقه الشريف يقترض منه مالا لأنه خسر فى اللعب ، وأقبل هذا الصديق يحمل إلى صديقه ما أراد . فانظر إلى هذه الأسرة النبيلة تأبى أن تقبله فى القصر، وأن تضيفه أياما حتى إذا قبلت ذلك بعد مشقة أخذت تتبرم بالفتى وتزدريه، لأنه لا يعرف طرائق الحياة الأرستقراطية . وكانت عمة الشاب

النبيل أشد الأسرة بغضاً له وتبرما به ، لا تكاد تلحظه ولا تكاد تحسب لوجوده حسابا . ولكن الفتى علم ببؤس هذه الأسرة واضطرارها إلى أن تترك القصر فأسرع فاشتراه سراً ثم أخذت الأسرة تظهر شيئاً فشيئاً على هذا السر حتى علمت به ، وإذا هى ألعوبة فى يد هذا الشاب الذى تزدريه ولا تضيفه إلا كارهة . ولكن هذا الشاب كريم خيِّر ، فهو يعرض القصر على الأسرة ولا يبتغى له إلا ثمناً ضئيلا هو أن « يقبل » هذه المرأة التى تزدريه وتغلو فى بغضه ، فإذا عرض عليهم هذه الصفقة اضطربوا لها اضطراباً شديداً ، فأما الأسرة كلها فتقبل ، وأما هذه المرأة فتأبى وتنفر ثم تذكر أنها قد تطرد من القصر وأن الأسرة قد تصبح مشردة ، فتضطر إلى القبول مقتنعة بأنها تقدم نفسها ضحية فى سبيل الاحتفاظ بالكرامة والتراث القديم . وقد استعدت هذه التضحية كما استعدت « ايفيجينى » لتضحى على مذبح أرتميس . ثم خلت إلى الفتى فوقفت موقف الجلال وقالت له فى ازدراء وسخرية وإذعان للقضاء المحتوم « قبلنى » ولكن الفتى كريم ، فهو لا يريد أن يقبّل هذه المرأة ، وإنما يكفيه أنها قد أذعنت لما يريد وهو مستعد لأن يتنزل للأسرة عن هذا القصر ، ولكن المرأة قد دهشت لهذا الانصراف عن تقبيلها ، وكأنها تعجب بكرم هذا الفتى ، وكأنها فى الوقت نفسه تسخط على هذا الكرم وكأنها

كانت تحرص على هذه القبلة دون أن تعلم بهذا الحرص ، وكأنها ترى عدول الفتى عن تقبيلها إهانة لها و إصغاراً لجمالها . تشعر بهذا كله شعوراً واضحا غامضا فى وقت واحد

وكنت ترى الفتى يكره هذه امرأة و يريد أن يذلها ، ولكنك تراه الآن لا يكرهها بل يكبرها ولا يريد أن يذلها بل يريد أن يجلها ، و إذا هو يعلن إليها حبه فى هذه اللغة الشعبية الغليظة الصريحة ، و إذا هى تضطرب لهذا الحب اضطرابا عنيفا ، و إذا الحب قد أزال ما كان بينهما من مسافة مادية ومعنوية . و إذا هو يتجاوز القبلة ، فاذا كان الصبح فهى آسفة نادمة تنقطع لوعة وندما لأنها اقترفت هذا الاثم مع رجل ليس من طبقتها ، وهى تعلم أن نساء من أسرتها قد اقترفن هذه الخطيئة ولكن إحداهن اقترفتها مع رجل من رجال القصر الملكى والأخرى مع كردينال ، أما هى فقد اقترفتها مع رجل أمه كانت تبيع الفاكهة . وهى تريد أن تأخذ نفسها بأشد أنواع العقوبة تريد أن تزهد فى الحياة وأن تذهب إلى الدير والفتى بين يديها يعتذر و يستغفر و يعلن إليها فى ضراعة ومذلة أنه سيبرح القصر حتى لا ترى وجهه البغيض ، فاذا سمعت هذه الجملة غضبت غضبا لا حد له وعنفت الفتى تعنيفا ثقيلا قائلة : أهكذا تريد أن تسليني عن هذه النكبة

المنكرة ؟! ثم فهمنا أنها تريد نوعاً آخر من أنواع التسلية وفناً آخر من فنون النسيان والعزاء . . . ! !

ولست أتم لك تلخيص القصة ، وإنما يكفى أن تعلم أنها تنتهي بالزواج بين هذين المحبين لأن شريفاً انجليزياً تبنى الفتى ومنحه ألقاب شرفه فأصبح كُفئاً لعشيقته

ولِمَ تبنى الشريف الانكليزى هذا الفتى ؟ لا تسل عن ذلك . فقد يكون فى الجواب على هذا السؤال ما يفضح أم هذا الفتى وقد ماتت . ولا ينبغي أن يذكر الموتى إلا بخير

على أنى قد زرت ملاعب أخرى وشهدت فيها قصصا أخرى وسأتحدث عنها فى فصل آخر .

ebeikanqi.com

٦

زوج ألين

كنت أريد أن أضحك حين ذهبت إلى ملعب ميشيل لأشهد تمثيل هذه القصة « زوج ألين » وكنت واثقاً بأنى سأضحك وسأضحك كثيراً ، لأن العنوان فى نفسه مضحك ولأن القصة كانت تمثل لأول مرة ، فلم يكن النقاد قد كتبوا عنها بعد ، ولأن أسماء الممثلين الذين اشتركوا فى تمثيلها كانت تدل على طائفة من الذين مهروا فى الفن المضحك ، فأسرعت إلى الملعب مبتهجاً ، وكأنى كنت أضحك مقدماً ، وكذلك شأن الناس فى باريس يذوقون مقدماً ما يبتغون من لذة لأنهم يعلمون أن هذه اللذة ستكون قوية حادة ، وأنهم سيظفرون منها بأكثر مما يبتغون .

ذهبنا إلى الملعب ضاحكين ، ولم يكد يرفع الستار حتى أغرقنا فى الضحك ولكن ماهى إلا دقائق حتى استحال هذا الضحك إلى حزن وعبوس ، وحتى أحسسنا فى أنفسنا شعوراً غريباً ليس من اليسير تفسيره لأنه شيء ليس بالسرور الخالص ولا بالحزن الخالص أو قل أنه شيء أبلغ

obeikandi.com

أثراً فى النفس من الحزن الخالص ، ولـكنه يكرهك مع ذلك على الابتسام ، وربما أكرهك على الضحك والاغراق فيه . تبسم وأنت عابس وتضحك وأنت محزون .

ذلك لأن الممثل يعرض عليك من خصال الانسان مايضحكك مظهره أردت أم لم ترد ، وما يحزنك مخبره رضيت أم لم ترض .

لا يكاد يرفع الستار حتى ترى امرأة متقدمة فى السن أقرب إلى الشيخوخة منها إلى التوسط فى العمر ، لباسها ملائم لسنها وملائم لمصدرها ولطبقتها الاجتماعية ، فلا تكاد تسمع حديثها حتى تحس أنها ليست من باريس ، وإنما وفدت من الأقاليم ، وحتى تفهم أنها من هذه الطبقة الغامضة التى لا تبلغ أوساط الناس ولا تريد أن تنحط إلى سفلتهم . قد مات عنها زوجها وترك لها ابنة هى « ألين » وهى بارعة الجمال رشيقة القد ، عذبة الصوت ، وقد ضاقت الحياة بها وبابنتها ، فلجأتا إلى باريس ، وآواهما رجل موسيقى بارع فى فنه ، ولـكنه سىء الحظ بهذا الفن ، لا يكسب حياته إلا بمشقة ، أحب الفتاة فآواها وآوى أمها وأصبح أستاذها وعشيقها والقيم على حياتها .

وقد مهرت الفتاة فى الغناء كما مهرت فى الرقص وتقدمت إلى أحد الملاعب الباريسية ، فقبلت فيه مغنية راقصة ، وهى تبدأ عملها هذه الليلة وأمها تنتظرها متأثرة ، مضطربة فرحة ، مشفقة تقدّر الفوز

obeikandl.com

وتريد أن تحتفل به ، فهى تعد مائدة عليها من الطعام والشراب هذه الألوان التى لا يرضاها الموسرون ولا يظفر بها المعسرون إلا بعد الجهد والعناء ، وهى تتحدث بكل ما فى نفسها إلى خادم لها حديثة السن ، خفيفة الحركة ، مسرفة فى القول ، فلا تكاد تسمع حوارهما حتى يأخذك الضحك فتغرق فيه حين ترى هذه المرأة التى تكاد تكون شيخة تتحدث فى لهجة الجد إلى هذه الفتاة التى تكاد تكون طفلة !! وهما فى هذا الحديث الذى تريانه جداً ونضحك نحن منه ، إذ يدخل الموسيقى فرحاً ، قد ملأه الفرح اضطراباً . فهو يبكى ولكن بكاءه نفسه مضحك ، وهو يعلن إلى الأم فوز ابنتها ويحاول أن يمثل لها هذا الفوز ، فيجتهد فى تقليد الفتاة حين غنت بعض المقطوعات التى أعجب بها الجمهور ، والأم سعيدة مغتبطة ، ولكنها مع ذلك ليست راضية لأنها تكره الملاهى وكانت تود لو استطاعت أن تجد عنها منصرفاً لابنتها ، أما الموسيقى فسعيد بهذا الفوز ولكنه مشفق منه ، مشفق لأنه يخشى أن تنصرف الفتاة عنه إلى هؤلاء النظارة الأغنياء الذين سيرونها فى الملهى وسيتملقونها .

تحس منه ذلك ، وتحس أيضاً أنه يحاول كتمان هذا الخوف ، وقد أقبلت الفتاة فرحة ، مبتهجة ، متأثرة ، فهى تقبل أمها وتضم عاشقها وتشكره ، ولكن لن يتاح لهؤلاء الناس أن يحتفلوا بهذا الفوز فيما

بينهم فقد أقبل مدير الملهى وأعوانه ورجل غنى من زعماء الصناعة يهنئون الفتاة بهذا الفوز ويدعونها إلى أن تنفق معهم شطراً من الليل فى حانة من هذه الحانات التى يفد إليها الباريسيون إذا خرجوا من الملاعب فيأكلون ويشربون ويعبثون، ونحن نحس أنهم عرضوا ذلك على الفتاة فقبلته قبل أن تعود إلى أهلها ، ولكنها تظهر التردد الآن ، لأنها لا تريد أن تترك صاحبها . فما أسرع ما يدعو القوم صاحبها إلى الذهاب معهم فيعتذر ويلحون وتظهر هى الرغبة فيقبل كارهاً ، وينصرفون على أن يرسلوا إليهما السيارة بعد حين . فاذا خلا العاشقان رأينا هذه الأشياء التى تطير القلوب سروراً وتقطعها حزناً . رأينا هذا الموسيقى يريد أن يلبس زى السَّمَر ، فاذا ثيابه وأدواته من الرداءة والبلى بحيث يخجله ذلك ويؤذيه . ولكنه مبتسم يجتهد فى أن يكون حسن الزينة ، وإذا هو يفتقد أزراره ، فاذا وجد منها واحداً أخطأه الآخر ، وصاحبته تتزين ، وقد أعارها الملعب ثوب الرقص فهى فيه خلابة بارعة . ولكن كثيراً من أدوات الزينة ينقصها وهى تشكو ذلك مغتاظة ، فاذا أحست من صاحبها الألم ابتسمت وتكلفت تهوين الأمر عليه ، وصاحبها يعدها بمضاعفة العمل ليكسب لها ما تحتاج إليه ، وقد أقبلت السيارة فانظر إلى الأم مبتهجة ، مفتونة بجمال ابنتها ، وانظر إليها تتبع ابنتها وقد

أخذت بفضل ثوبها حتى لا يصيبه غبار السلم، وانظر إلى الخادم الطفلة تسبقهم جميعاً وفى يدها الشمعة تضىء السلم وانظر إلى العاشق محزوناً يتكلف الابتهاج، و بائساً يتكلف النعيم .

فاذا كان الفصل الثانى فقد تغير هذا كله ، وسترى قوما تنكرهم لأن النعمة أَلَمَّتْ بهم فأزالت كل ما رأيت فى الفصل الماضى من مظاهر البؤس . ذلك لأن « ألين » قد اشتهر أمرها وظهر نبوغها ، فابتسمت لها الثروة وأصبحت لا تشكو عسرا ولا ضيقا ، وظهرت آثار ذلك حولها فأما أمها فليست شيخة ولا كالشيخة ، و إنما هى امرأة وسط فيها قوة وشباب ، تلبس على آخر طراز ، وتزدان على آخر طراز ، وقد تغيرت لهجتها فهى باريسية ، وتغير صوتها فهو رخيم ، وتغيرت حركاتها فهى رشيقة ممتازة . وأما الموسيقى فقد أصبح شابا قويا بادى الظرف حسن الزينة رائع المنظر وقد اقترن بصاحبته ، وكذلك الخادم تغيرت وامتازت . والغريب أنها ليست وحدها فى البيت بل يشاركها غلام عليه العناية بغرف الاستقبال وما إليها . ولسنا فى باريس ولا فى ذلك البيت الذى يضاء بالشمع و يخشى غباره على فضل الثياب و إنما نحن فى بيت أنيق فخم فى مصطاف على ساحل البحر يجمع أرقى الطبقات وأغناها إذا أقبل الصيف من كل عام . ونحن نرى مدير الملعب وصاحبته وأعوانه وذلك الرجل

يترددون على « ألين » فيلعبون و يصفقون ، ونحن نرى زوج «ألين» سعيداً مغتبطا ينبىء صديقه بأن الله قد أذن له أن يكون غنيا ، وأنه يضع قصة موسيقية ستنال الجائزة من غير شك ، وأنه سيكون ناقداً موسيقيا لصحيفة كبرى ، وأن كل شىء فى الحياة يبسم له . ولكن انظر إلى القوم قد أقبلوا ، وانظر إلى الموسيقى قد خرج مع صديقه فى بعض شأنه ، وانظر إلى « ألين » قد خلت إلى الرجل الغنى بينما يجلس الآخرون أمام غرفة الاستقبال يرقبون عودة الزوج وكأنهم يلعبون ، واسمع إلى هذا الحديث يقع بين « ألين » و بين صاحبها الغنى . فاذا هما عاشقان و إذا هى تخون زوجها ، و إذا هذه الخيانة مصدر ما ترى من نعيم ، ولكن هذا الرجل ضيق الصدر بهذا الزوج الغنى .

ضيق الصدر لأنه يريد أن يستأثر بصاحبته وهذا الزوج الغنى يحول بينه و بين ذلك

وفى الحق أغَنِيٌّ هذا الزوج حقا أم هو متغابٍ ؟ أليس يتكلف الغفلة ليستمتع بنعيم الحياة ؟

ذلك شىء يفترضه الغنى وتأباه « ألين » وهما فى الحديث والعبث إذ يسمعان صياح أصحابهما الذين يلعبون « لقد أقبل فلان ! لقد أقبل فلان ! »

تنبها ، فانفصلا . ودخل الموسيقى وانصرف القوم ، وأخذ الزوجان يتحدثان ، فإذا الرجل محزون بائس ، وإذا امرأته اللعوب تسأله عن مصدر هذا الحزن فيتردد ثم يجيبها بأنه سمع الناس يذكرونه فيقولون «زوج ألين» ولا يسمونه باسمه ، وبأنه رآهم يشيرون إليه ويبتسمون ، فهو إذن يشك . وهى تدافعه عن هذا الشك بما أوتيت من حيلة ودَلٍّ ودعابة . وانظر إليه قد أخذ حقيبة امرأته ونظر فيها فإذا مقدار ضخم من المال فلا يزداد إلا شكا . وانظر إليه يذكر أن امرأته لعبت الميسر أمس وخسرت كثيراً ولم تنبئه بشىء وإنما سمع بذلك عفواً ، فهو لا يزداد إلا شكا . وانظر إليه قد استكشف عند امرأته عقداً من الجوهر لا علم له به فلا يزداد إلا شكا . ولكنها ماهرة وهو عاشق فتستطيع أن تخدعه عن أمرها وأن تستميله إليها وأن تخلبه بما تبذل من لذة ، وهو أغبى من غلامه الذى يفهم كل شىء ويتحدث إلى زميلته الخادم بكل شىء .

فإذا كان الفصل الثالث تحدث الموسيقى إلى صديقه وقد استيقن كل شىء ، وأصبح لا يشك فى خيانة امرأته .

ذلك أن القوم اعتزموا الخروج للنزهة وتخلف هو عنهم متكلفاً العمل ثم تبعهم وهم لا يعلمون فلم ير فيهم زوجه ، ولم ير فيهم ذلك الرجل الغنى ، وإذن فقد كذبت عليه امرأته حين زعمت أنها خارجة

للنزهة وأنفقت يومها مع صاحبها . ونحن نعلم ذلك لأننا سمعناه فى الفصل الثانى . وانظر إلى هذا الموسيقى متألماً محزوناً ولكنه متجلد صبور ، يعلن إلى صديقه أنه سيترك هذه الحياة كلها وسيعود إلى حياته الأولى : حياة البؤس والشرف والكرامة ، ولكنه يريد أن يلهو قبل هذه العودة ، وإنه للهو أليم .

أقبل القوم جميعاً من نزهتهم وفيهم « ألين » وفيهم الرجل الغنى ، وكلهم يقص ما رآه ويصف جمال النزهة والموسيقى مبتهج يتحدث إليهم جميعاً حديث من لا يشك فى شىء وأنت ترى من القوم جميعاً أنهم يسخرون منه ، ويرون فيه الغفلة ، وقد هموا بالانصراف ليلتقوا بعد حين إلى مائدة العشاء فى الحانة . وإذا الموسيقى يمسك الرجل الغنى ليبقى معه حيناً ، فاذا انصرف القوم وخلا الزوجان إلى هذا الرجل الغنى بدأت طائفة من المواقف المؤثرة التى تملؤك عطفاً على الزوج وسخطاً على امرأته وإعجابا بالكاتب والممثلين . انظر إلى هذا الزوج الموتور يريد أن ينتقم لنفسه ولكرامته ، ولكنه لا يريد أن يكون سخيفاً ، ولا ضحكة ، ولا مجرماً ، فهو لا يريد العنف ولا سفك الدم ، وإنما يريد أن يكون مترفقاً فى انتقامه . انظر إليه يعذب الخائنين عذاباً أليما لأن موضعه الضمير . يستثير غيرة الرجل الغنى بما يبدى من التلطف لامرأته ، وبما يتكلف من مداعبتها وقد ضمها إليه ، ثم أجلسها على حجره ، وأخذ يداعبها هذه المداعبة المشروعة

بين الزوجين ، والتى لاتكون إلا فى الخلوة ، والرجل ينظر و يتألم دون أن يستطيع اعتراضاً أو احتجاجاً ، والمرأة خجلة ذليلة بين هذين الرجلين الذين يتقسمانها وهى تتكلف الحياء لتتخلص من هذا الموقف الأليم ولكن الزوج لايحفل بحيائها ولا بألمها . وهو الآن ينتقل من المداعبة إلى الحديث ، فيقص على صاحبه أسرار الزوجية وماتمنحه امرأته من لذة إذا خلت إليه حتى إذا قضى وطره من تعذيب الخائنين و إذلالهما أطلق امرأته فذهبت لتصلح من شأنها قبل العشاء ، وخلا هو إلى الخائن ، وهنا موقف ليس أقل من الموقف الذى سبقه جمالا وتأثيراً . هذا الزوج يتحدث إلى عاشق امرأته ، فما هى إلا أن يعلن إليه أنه يعلم كل شىء ، فاذا وجم الرجل وسأله عما يريد وانتظر الكارثة ، أعلن الزوج إليه أنه لايريد شيئاً وأنه راض بهذه الحال و إذا الرجل الخائن شديد الازدراء لهذا الزوج الذى لايجرى الدم فى عروقه والذى يرضى أن تكون امرأته شركا بينه و بين غيره . يريد أن ينصرف فيمسكه الزوج ، إذ ليس بد من الاتفاق على أشياء وتدبير مصالح لابد من تدبيرها . هما شريكان فى المرأة وقد يمكن أن يكونا غداً شريكين فى طفل تلده هذه المرأة . وما يزال هذا الزوج يرقى فى تمثيل الضعة والمهانة والخيانة والاثم حتى يكشف عن أخس ما فى النفس الانسانية من عاطفة . إنه يلهو ، وهو يلهو بازدراء الانسان ، فاذا بلغ من ذلك ما يريد أطلق الرجل ، وقد اتفق معه على أن يأتى بعد حين ليحمل

هذه المرأة فى سيارته إلى حيث يريد . ثم تقبل المرأة فيلقاها زوجها مبتسما ، وتأخذ فى عتابه على ما أباح من أسرار الزوجية ، فما يزال بها حتى يعلن إليها أنه عالم بكل شىء ، وراض عن كل شىء ، وقابل لهذه الشركة التى تضمن لها الثروة والنعيم . وإذا المرأة تزدرى زوجها حقاً وتحتقره احتقاراً لا حد له ، وإذا هى تتألم حقاً لأنها كانت تريد أن يحبها زوجها ، وأن يكون شديد الغيرة عليها ، فاذا هى ترى نفسها متاعاً يتقسمه رجلان . ولكن الزوج قد أطال الصبر والتكلف وغلا فى كظم عواطفه ، فهو لا يستطيع الآن صبراً ، وانظر إليه وقد انفجر كما ينفجر البركان . فهو ثائر فائر لا يكاد يملك نفسه ، ولا يكاد يمسكها عن اغتيال هذه المرأة ، وقد ظهر حبه قوياً عنيفاً ، وظهرت غيرته ، وكلها روع وهول وهو يصيح بامرأته « أترين فىَّ ما يدلك على أنى قواد ؟ » والمرأة وجلة مضطربة ولكنها سعيدة مغتبطة لأنها تشهد الحب والغيرة ، ولأن زوجها لا ينظر إليها نظره إلى المتاع ، وهى تريد أن تستغفر ، وتريد أن تتوب ، ولكن الزوج يحاول طردها ، ثم يبدو له فيطرد نفسه ، وقد أنبأها أن صاحبها سيأتى بعد حين ليحملها فى سيارته ، وقد انصرف وتركها تعسة ، بائسة تنتحب وتصيح ، ولكن السيارة قد أقبلت ، وهى تدعو بالباب ، فانظر إلى هذه المرأة قد نهضت متثاقلة إلى المرآة فأصلحت من شعرها ووجهها وخرجت فى هدوء تجيب داعى اللهو والثروة والنعيم .

القسم الرابع

obeikandl.com

بين العلم والدين

١

الناس معنيون فى هذه الأيام عندنا بالخصومة بين العلم والدين . وقد بدأت عنايتهم بهذه الخصومة تشتد منذ السنة الماضية، حين ظهر كتاب « الاسلام وأصول الحكم » فنهض له رجال الدين ينكرونه ويكفرون صاحبه، ويستعدون عليه السلطان السياسى . وزادت هذه العناية شدة حين ظهر فى هذه السنة كتاب « فى الشعر الجاهلى » فنهض له رجال الدين أيضاً ينكرونه ، ويكفرون صاحبه ، ويستعدون عليه السلطان السياسى .

والحق أن هذه الخصومة بين العلم والدين — كما قلت فى غير هذا الموضع — قديمة يرجع عهدها إلى أول الحياة العقلية الفلسفية . والحق أيضاً أن هذه الخصومة بين العلم والدين ستظل قوية متصلة ما قام العلم وما قام الدين لأن الخلاف بينهما كما سترى أساسى جوهرى لا سبيل إلى إزالته ولا إلى تخفيفه إلا إذا استطاع كل واحد منهما أن ينسى صاحبه نسياناً تاماً ويعرض عنه إعراضاً مطلقاً . وقد نعرض بعد قليل لهذا الموضوع فى شيء من التفصيل والاسهاب . ولكن

الذى نحب أن نلاحظه منذ الآن هو أن التفكير فى هذه الخصومة بين العلم والدين قد حمل بعض المفكرين على أن يلتمسوا لها أسباباً قريبة أو بعيدة ، وعلى أن يسألوا أنفسهم أليس إلى إزالتها من سبيل ؟ وقد نشأ عن هذا التفكير نوع من الفلسفة قيم كثرت فيه الكتب والمباحث . ولسنا نريد أن نعرض له إلا من ناحية واحدة وهى الناحية التى تتصل بالسياسة وتحملها على أن تنتصر للعلم مرة وللدين مرة أخرى ، وعلى أن تعتز حيناً بهذا وحيناً بذاك . وإذا عرضنا لهذا الموضوع فلسنا نريد إلا شيئاً واحداً هو تحقيق التوازن بين هذه المؤثرات الثلاثة فى حياة الأفراد والجماعات وهى العلم والسياسة والدين

الحق أن الخصومة لم تكد تنشأ بين العلم والدين أو بين العقل والدين حتى دخلت فيها السياسة فأفسدتها وانصرفت بها عن وجهها المعقول إلى وجه آخر ، لم يخل من الاثم بل من الاجرام .

أول خصومة ظاهرة بين العقل والدين هى هذه التى نشأت فى آخر القرن الخامس قبل المسيح حين أخذ سقراط يطوف فى شوارع أثينا ومعه حواره وفلسفته يقف بهما حينا عند هذا الحذاء ، وحيناً آخر عند الحمام ، ومرة فى أحد الميادين العامة ، ومرة أخرى فى نادى الألعاب الرياضية ، ويدعو إليه الشبان والكهول والشيوخ أحياناً فيحاورهم فى الحق والعدل والواجب والقصد وما إلى ذلك من هذه

المسائل التى كانت تشغل الشعب الأثينى فى ذلك الوقت . لم يكن سقراط يتخذ عداوة الدين مذهباً ، ولا الخروج عليه غاية لفلسفته أو حواره ، بل نستطيع أن نقول إنه كان من أشد معاصريه محافظة واعتدالا ، فهو إنما كان يخاصم السوفسطائية ، ويريد أن يهدم مذاهبهم فى الشك ، وأن يرد إلى العقل سلطانه ، ويبين أن حقائق الأشياء ثابتة ، ولكنه كان يحاور على طريقة السوفسطائية ، وكان يتخذ الشك سبيلا إلى اليقين ولم يكن يكره أن يضع كل شىء موضع البحث ، وأن يعرض كل شىء للشك حيناً وللانكار حيناً آخر ، فلم يسلم الدين ولا غيره مما كانت تحتفظ به الجماعة الأثينية من خطر هذا الشك والانكار .

ولم يسلم الدين من خطر هذا الشك ، ولم يسلم منه النظام السياسى الأثينى أيضاً ، فقد كان سقراط يحاور فى كل شىء ويعرض — كما قلنا — كل شىء للشك والانكار . وكان الشعب الأثينى فى آخر القرن الخامس قبل المسيح حريصاً مسرفاً فى الحرص على نظامه الديموقراطى الذى ائتمر به الأرستقراطيون غير مرة فعرضوه للخطر وأزالوه حيناً ما . فلم يكن من الغريب أن يكره الشعب الأثينى كل فلسفة تمس هذا النظام الديموقراطى ، أو تعرضه للشك ، أو لتصرف عنه الشباب قليلا أو كثيراً . ولم تكن الديموقراطية الأثينية قد وصلت إلى ما وصلت إليه بعض الديموقراطيات الحديثة من الفصل بين

الدولة والدين، وإنما كانت تقيم السياسة على الدين وترى الدين أصلا من أصول وجودها، وأساساً من أسس حياتها، وفصلا من فصول نظامها السياسى . فكانت فلسفة سقراط أمام الديموقراطية الأتينية آثمة من وجهين : آثمة لأنها تعرض النظام نفسه للخطر ، وآثمة لأنها تعرض الدين للخطر . ومن هنا لم يكد خصوم سقراط يقفونه موقف القضاء من الشعب حتى ظهر تدخل السياسة فى الخصومة بين العقل والدين، وكان موقف سقراط من قضاته أثناء الدفاع وبعد الحكم محنقاً ، يثير السخط ويدعو إلى القسوة . فقسى القضاة وأثمت السياسة حين قضت بالموت على أبى الفلسفة .

ومن ذلك الوقت أصبحت الخصومة بين العقل والدين ، أو قل بين العلم والدين أمراً لا مندوحة عنه : يخاف الدين كل فلسفة وكل علم ، ويرتاب العلم بكل دين . ومن ذلك الوقت تحدد موقف السياسة بين هذين الخصمين ، وظهر أنه لن يكون موقف إصلاح بينهما ، وإنما هو موقف إفساد وإحراج وإثارة للحفيظة والحقد .

لم يقف سخط السياسة الأتينية على الفلسفة عند القضاء على سقراط وإنفاذها هذا القضاء فيه ، وإنما تجاوزه إلى اضطهاد تلاميذه والشك فيهم ، فتفرقوا فى الأرض واستَخْفَتْ الفلسفة من أتينا حينا فلما عادت إليها وسعتها ، ولكن مع شىء كثير جداً من التحفظ

والارتياب ، فما اطمأنت الديموقراطية الأثينية يوما إلى أفلاطون ولا رضيت عن ارسطاليس ، والناس جميعاً يعلمون أن المعلم الأول كاد يقف من القضاء موقف سقراط لولا أن هرب من أثينا .

٢

ليست الخصومة بين العلم والدين إذن مقصورة على ما نعرف من الخصومة بين الديانات السماوية والعلم والفلسفة أثناء القرون الوسطى وفى هذا العصر الحديث . وإنما هى كما رأيت قديمة ، قد ظهرت بين الديانة الوثنية اليونانية وبين فلسفة سقراط وتلاميذه . ومع ذلك فقد كانت الديانة الوثنية اليونانية من أيسر الديانات وأقربها إلى السذاجة وأقلها حظاً من التعصب . وحسبك أن هذه الديانة اليونانية كانت تخلو خلواً تاما من مؤثرين عنيفين : أحدهما الكلام ، والآخر الاكليروس . لم يكن للديانات اليونانية كلام أو لاهوت بل لم تكن للديانات اليونانية عقائد محددة وإنما كانت هذه الديانات عبادات وطقوسا — كما يقولون — لا أكثر ولا أقل . لم تكن للآلهة صفات معروفة معينة يكفر من ينكرها أو يشك فيها ، ولم يكن لليونان علم يشبه هذا العلم الذى يتقنه اليهود والنصارى والمسلمون وهو علم اللاهوت . وكذلك لم يكن لليونان قسيسون يحتكرون هذا

العلم و يقومون على حماية الدين وصيانته من عبث العابثين ، أو إلحاد الملحدين ، و إنما كان كل يونانى قادراً على أن يؤدى للآلهة ما يجب لهم من عبادة ، وكان زعيم الأسرة قسيسها ، وكان زعماء المدينة كهنتها . و إذا لم يكن للدين لاهوت يفرضه على الناس فرضاً ، و إذا لم يكن للدين هيئة قسيسين أو كهنة يحتكرون حمايته والقيام عليه . فخليق بهذا الدين أن يكون قليل الحظ من التعصب والجمود ، وخليق بهذا الدين أن يكون قليل الحظ من مصادرة العقل ومخاصمة حرية الرأى والوقوف فى سبيل التطور والرقى . ومع هذا كله فقد اختصم هذا الدين الساذج اليسير مع الفلسفة وانتهت الخصومة بموت سقراط . ذلك لأن الخلاف بين العلم والدين لا يستمد قوته وعنفه من الفرق بين جوهرى العلم والدين فحسب ، و إنما يستمد قوته وعنفه من مصدر آخر ، هو أن الدين حظ الكثرة والعلم حظ القلة ، فسواد الناس مؤمن ديان ، مهما يختلف العصر والطور والمكان ، والعلماء أو الفلسفون قلة دائماً . فليس غريباً أن تظهر الخصومة قوية عنيفة بين هذه القلة الشاذة التى نسميها العلماء أو الفلاسفة والتى تفكر على نحو خاص لم يألفه الناس ، وليس من اليسير عليهم أن يألفوه ، والتى لا تكتفى بالتفكير لنفسها ، و إنما تريد أن تفكر لنفسها وللناس أيضاً ، والتى إذا فكرت وانتهى تفكيرها إلى رأى لم تكتف باذاعته وترويجه ، و إنما

تذود عنه وتجادل، وتسرف فى الذود والجدال ، والتى لا تكتفى بهذا كله وإنما تحرص على التأثر بتفكيرها وما ينتهى إليه من رأى ، وتحرص على أن تلائم بين حياتها العملية وحياتها العقلية ، فتمتاز من الناس من ناحيتين مختلفتين : تمتاز منهم فى حياتهم اليومية ، وتمتاز منهم فى القول والتفكير . وأنت تعلم أن السواد أشد ما يكون كرهاً للتفوق وأعظم ما يكون بغضاً للامتياز ، فهو يريد دائماً أن يكون الناس سواسية فى كل شىء ، سواسية فى القول والعمل ، سواسية فى الأكل والشرب والنوم والمشى وغيرها من مظاهر الحياة . وأنت مهما تبحث عن أسباب التطور التى اضطربت لها المدن القديمة ودالت لها الدول الحديثة، فستجد فى مقدمة هذه الأسباب سبباً محققاً هو بغض السواد للتفوق والامتياز ، وطموحه إلى المساواة بين الناس فاذا كان هذا التفوق يمس أصلا من أصول الحياة العامة ، بل يمس أيسر هذه الأصول وأقربها تناولا وأشدها اتصالا بالضمائر والنفوس وتأثيراً فى الحياة اليومية ، نقول إذا كان التفوق يمس هذا الأصل الذى هو الدين فخليق بالسواد أن يبغضه ويثور به وينكل بالمتفوقين تنكيلا متى استطاع إلى ذلك سبيلا .

وكذلك كان ميل السواد فى أثينا . وكذلك كان موقفه من سقراط وتلاميذه

٣

على أن تقرير هذا الأصل ، وهو بغض السواد للجديد لا ينتهى بنا إلى هذه النتيجة وحدها ، وإنما يعيننا على فهم حقائق أخرى وقعت فى العصور القديمة والوسطى ولم يحاول الباحثون أن يردوها إلى أصولها الصحيحة . فالسواد لا يكره تفوق العلماء وحدهم ، وإنما يكره التفوق من حيث هو . قل إن شئت إنه يكره كل جديد ، وهو مضطر بحكم هذا الكره إلى أن يقاوم هذا الجديد ما استطاع ، فإما أن ينتصر فلا جديد ، وإما أن ينخذل فيتسلط الجديد شيئاً فشيئاً حتى يصبح قديماً ، ويستعير من خصمه الأول كل الأسلحة التى حاربه بها ، ليدافع بها عن نفسه ، ويناهض بها كل جديد . ومن هنا نستطيع أن نفهم أن السواد القديم اليونانى والرومانى لم يحارب الفلسفة وحدها ، وإنما حارب الدين أيضاً . فأما اليونان فقد وقفوا موقف الخصومة من ديانات شرقية حاولت أن تَنْبَثَّ فى بلادهم ، ووفقوا بعض التوفيق فى هذا الموقف ، فلم تستطع هذه الديانات الشرقية أن تنتشر فى البلاد اليونانية جهرة ، وإنما ارتدت عنها ارتداداً أو انتشرت فيها خلسة فكونت لنفسها جماعات سرية تؤدى واجباتها من وراء ستار .

وأما الرومان فكرهوا فى أول الأمر فلسفة اليونان أشد الكره ، لقوها بالازدراء ، ثم قاوموها مقاومة سياسية ، فحظروا درسها وبلغ بهم

ذلك أن زعيما من زعمائهم هو « كاتو القديم » توسل إلى مجلس الشيوخ فى أن يتعجل فى قضاء حاجة لبعض السفراء اليونانيين ليترك هؤلاء السفراء المدينة ، ويستريح منهم سواد الشعب . وكان بين هؤلاء السفراء فلاسفة انتهزوا سفارتهم فرصة لإلقاء محاضرات فلسفية فى روما . ولكن الرومان لم يكرهوا الفلسفة اليونانية وحدها ، وإنما كرهوا معها كل جديد أيضاً ، وليس أدل على ذلك من اللفظ الذى اصطلح الرومان عليه للتعبير عن الثورة وقلب النظام فهو « الشىء الجديد » فهم لا يقولون إن فلاناً يريد أن يثور ، أو إن فلاناً ثار وإنما يقولون : إن فلاناً يريد أن يحدث شيئاً جديداً . ذلك أن الرومان كانوا من أشد الشعوب القديمة فى الغرب محافظة وحرصاً على القديم . ومع أن دينهم لم يكن أشد من الدين اليونانى تعقيداً ، ومع أنه لم يكن كالديانات السماوية يعتمد على كلام أو لاهوت ، فقد كان يمتاز من الدين اليونانى امتيازاً قوياً من وجهين : الأول أنه كان أشد من الدين اليونانى تسلطاً على حياة الفرد والجماعة ، فقد كان الفرد الرومانى من أشد الناس طِيَرَةً وإشفاقاً ، يخاف من كل شىء ، ويرى تأثير الآلهة فى كل شىء ، ويحرص على أن يتملقهم ويترضاهم . وكان وجود الأسرة نفسها قائماً على أصول من الدين . وكانت الجماعة الرومانية كالفرد الرومانى حذرة متطيرة .

وكان وجودها السياسى كوجود الأسرة قائماً على أصول ثابتة من الدين . ونحن لا نعرف عند اليونان زجراً ولا عيافة ولا قيافة ، ولكننا نرى هذا كله عند الرومان ونراه مؤثراً أشد التأثير فى الحياة الخاصة والعامة جميعاً ؛ الثانى أن هذا الفرق بين الفرد اليونانى والرومانى من حيث التأثر بالدين قد استتبع نتيجته الطبيعية ، وهى أن تكون حماية السياسة بالدين ملائمة لشدة ما لهذا الدين من التأثير فى نفوس الأفراد والجماعات ، فنظمت حماية السياسة بالدين فى روما تنظيما قوياً ، وقام فى روما شىء يشبه (الا كليروس) له سلطته الدينية وله امتيازاته أيضاً . وإذ كان رئيس الدولة سواء أكان ملكا أو قنصلا إنما يستمد سلطته من الشعب بعد استشارة الآلهة ، أو قل من الآلهة بعد استشارة الشعب ، فقد كان الواجب الأول على الملك أو القنصلين حماية الدين . وكذلك قامت بحماية الدين فى روما جماعة (الا كليروس) وهيئة الحكومة ومجلس الشيوخ الذى كان واجبه الأول حماية ماترك الآباء . فلاتعجب إذا رأيت الرومانيين يقاومون الجديد مهما يكن ، ويشتدون فى مقاومته إذا مس الدين . ولا تعجب إذا رأيت الرومان فى عصورهم الأولى يبغضون أشد البغض ويناهضون أشد المناهضة هذه الديانات الأجنبية التى حاولت أن تنبث فى روما بعد أن انبسط سلطان روما على الأرض

٤

كل هذا يرجع إلى أصل واحد وهو أن الدين أقوى ما يمثل نفس السواد ، فالسواد به كلف ، وله محب ، وعليه حريص ، وعنه ذائد ، يبذل فى ذلك ما يستطيع من قوة وجهد . وقد قلت منذ حين إن حرص السواد على دينه لا يكلفه محاربة العلم والفلسفة وحدهما وإنما يكلفه محاربة كل جديد من شأنه أن يمس الدين . ومن غريب الأمر أنك إذا فكرت قليلا فيما تسميه خصومة بين العلم والدين رأيت أن بعض الديانات أو أن الديانات السماوية نفسها قد كان ينظر إليها كما ينظر إلى العلم ، أى أن الديانات القديمة كانت تكره دين اليهود والنصارى وتحاربهما كما كانت تكره فلسفة سقراط وتحاربها لا لشىء إلا أن ديني اليهود والنصارى كانا جديدين مخالفين لطبيعة هذه الديانات الوثنية القديمة . ولسنا فى حاجة إلى أن نقف بك عند هذه الحرب المنكرة التى أثارتها وثنية الرومان على دين اليهود أولا وعلى دين النصارى ثانياً ، فأنت تعرف من تفصيل هذه الحرب وعن اضطهاد الوثنية لليهودية والنصرانية ما يغنينا عن مثل هذا الاستطراد . ولكننا نلاحظ أن الأسباب التى حملت الوثنية الرومانية على أن تنكر توحيد اليهود والنصارى وتنصب له الحرب وتمزق أهله تمزيقاً ، هى بعينها الأسباب التى حملت وثنية

اليونان فى آخر القرن الخامس قبل المسيح على أن تقضى على سقراط وتذيقه الموت . هى بعينها الأسباب التى تتصل بعواطف السواد وميوله الدينية من ناحية ، وبالسياسية واستخدامها لهذه العواطف والميول من ناحية أخرى . ولعلك تقتنع بهذا اقتناعاً لا يقبل الشك إذا فكرت فى طبيعة الأمبراطورية الرومانية التى حاربت اليهودية والنصرانية قروناً متصلة · كانت هـذه الأمبراطورية الرومانية تقوم على الدين كما كانت الديمقراطية الأثينية والأرستقراطية الرومانية تقومان على الدين أيضاً . وكان الأمبراطور قد جمع إليه السلطان الدينى والسياسى ، وأخذ الناس بعبادته فى أقطار الأرض على أنه ممثل روما التى كانت تعبد إبَّانَ العصر الجمهورى ، وعلى أنه خليفة الله فى أرضه. وكانت الشعوب الوثنية الخاضعة للسلطان الرومانى لاترى بأساً بعبادة قيصر كما أنها لم تكن ترى بأساً بعبادة روما . وكانت عبادة قيصر يسيرة على الشعوب الشرقية ، وعلى المصريين منهم بنوع خاص ، وقد ألفت هذه الشعوب منذ أول الزمان عبادة السادة والملوك . وكانت هذه العبادة عسيرة أول الأمر على اليونانيين الذين لم يألفوا من قبل عبادة الأفراد ، والذين ضحكوا من الاسكندر حين تقدم إليهم أن يعبدوه . ولكن اليونان خالطوا الأمم الشرقية واتصلوا بها، وكان لهم فيها ملوك عبدوا كما عبد الفراعنة وعظماء الفرس،

فهان عليهم الأمر ومضوا فيه جادين حيناً ولاعبين حينا آخر كدأبهم في كل شيء ، إنما هذا الشعب السامي الذي بَعُدَ عهده بالوثنية منذ حين طويل ، والذي ألف التوحيد وأمعن فيه ، وهو شعب إسرائيل ، لم يستطع أن يفهم عبادة روما ولا عبادة قيصر ، كما أنه لم يستطع أن يفهم عبادة فرعون ولا أن يدين لآلهة بابل وآشور . ومن هنا كانت ديانة هذا الشعب السامي منكرة ثقيلة على الرومان لأنها تخالف ديانتهم الوثنية وتخالف سياستهم القائمة على هذه الديانة . وجاءت النصرانية فكانت أشد مخالفة لطبيعة الوثنية ولطبيعة السياسة القائمة عليها من اليهودية ، فلم يتردد قياصرة الرومان في محاربة هذه النصرانية إلا ريثما فهموا خطرها على السياسة والدين . ولدينا أقدم نص تاريخي يتصل باضطهاد النصارى ، وهو استفتاء من أحد حكام الأقاليم للامبراطور « تراجانوس » آخر القرن الأول للمسيح في أمر هذه المتنصرة وما ينبغي أن يتخذ نحوها من سياسة ، وقد اعتاد المؤرخون أن يثنوا على هذا الأمبراطور لأن رده على مستفتيه كان رفيقا لينا ، ومع ذلك فان هذا الأمبراطور لم يطلب إلى مستفتيه أن يقر حرية الدين ، ولا أن يدع المتنصرة ، وإنما طلب إليه ألا يحفل بما يرفع اليه الجواسيس ، فأما معاقبة النصراني الذي تثبت نصرانيته فلم يكن منهما بد ، لأن النصرانية كانت خروجاً على السياسة وعلى دين الدولة معاً .

وعلى هذا النحو من تعاون السواد وحكومة السواد . أو قل على هذا النحو من استغلال السياسة لعواطف السواد سفكت دماء النصارى فى الشرق والغرب .

وامض بعد ذلك فى تاريخ النصرانية ، فسترى أنها صبرت وصابرت وجاهدت حتى كان لها النصر ، وأصبحت فى القرن الرابع ديانة الدولة الرومانية . فلم تظفر بهذه المكانة السياسية حتى استغلتها فأسرفت فى استغلالها ، وسفكت دماء الاتينيين وهدّمت معابدهم وصادرت أموالهم كما سفك الوثنيون دماء النصارى وهدموا بيعهم وصادروا أموالهم . ومنذ ذلك الوقت كانت محالفة بين الوثنية والفلسفة لا لشىء إلا لأن هذه الفلسفة قديمة كالوثنية ، مخالفة لطبيعة المسيحية كما أن الوثنية مخالفة لهذه الطبيعة . فأنت ترى أن الفلسفة كانت عدو الوثنية ولقيت منها ألوان الاضطهاد . وأنت ترى أن الفلسفة هى التى أعانت على إعداد الشعوب القديمة للمسيحية وترقية العقل القديم والمباعدة بينه و بين الوثنية ، ولكنك ترى أن المسيحية لم تكد تظفر بالسلطان حتى أنكرت العدو والصديق ، ونصبت الحرب للوثنية والفلسفة معاً . وأنت تعلم أن الأمر انتهى بالفلسفة إلى أن التمست لها داراً لا يتسلط فيها المسيح ، فهاجرت إلى الفرس واستظلت بلوا الساسانيين . وعندنا أن المسيحية لو لم تظفر بسلطانها السياسى لما

خاصمت الفلسفة ولما تورطت فيه من الجحود وإنكار الجميل . فهى مدينة بكثير للأفلاطونية القديمة وهى مدينة بكثير للأفلاطونية الجديدة . ويخيل إلينا أن طبيعة المسيحية الخالصة، وطبيعة الأفلاطونية الخالصة، لم يكن بينهما من الخلاف ما ينتهى بهما إلى الخصومة والحرب، لولا أن السياسة قد دخلت بينهما فأفسدت الأمر عليهما جميعاً .

٥

بل فى الأمر ما هو أشد غرابة من هذا كله ، فقد وقعت نفس هذه الخصومة بين الديانات السماوية السامية نفسها وعلى النحو الذى وقعت به بين هذه الديانات وبين الديانات الوثنية القديمة . نريد أن الديانات اليهودية اعتبرت المسيح مجدداً مبتدعاً فأنكرته ، ونصبت له الحرب على نفس النحو الذى أنكر الأثينيون به سقراط ونصبوا له الحرب . ونريد أن نقول إن المسيحية بعد انتصارها قد اعتبرت النبى مجدداً فأنكرته ونصبت له ولدينه الحرب ، وكل ما بين الاسلام والمسيحية من الفرق من هذه الناحية ، هو أن المسيحية لبثت حيناً طويلا لا تعتز بالسلطان السياسى ، فطال اضطهادها ولقيت ما لقيت من بلاء ، وأن الاسلام لم يلبث بعيداً عن السلطان السياسى إلا أعواما ريثما تمت الهجرة ، فما كاد يظفر بهذا السلطان حتى دافع

عن نفسه فناهض الوثنية واليهودية والنصرانية وكان النصر له آخر الأمر.

فالخصومة فى حقيقة الأمر ليست بين العلم والدين، ولا بين الوثنية واليهودية والنصرانية والاسلام، ولا هى بين دين ودين، وإنما هى أعم من ذلك وأيسر، هى بين القديم والجديد، هى بين السكون والحركة، هى بين الجمود والتطور. وإلا فكيف تستطيع أن تفهم أن يلقى سقراط والمسيح ومحمد عليهما السلام اضطهاداً من نوع واحد؟ وكيف تستطيع أن تفهم أن يتشابه موقف الوثنية والمسيحية واليهودية على اختلاف الأمكنة والأزمنة وأجيال الناس وطبائع جنسياتهم؟ كيف تستطيع أن تفهم تشابه هذه المواقف جميعا، إذا لم تردها إلى أصل واحد، وهو الخصومة بين القديم والجديد، أو استغلال السياسة للخصومة بين القديم والجديد؟ وما الذى كان بعد أن تم النصر للاسلام فى ناحية من أنحاء الأرض وانقسم العالم القديم بينه وبين النصرانية، فاستأثر الاسلام بالشرق واستأثرت المسيحية بالغرب

نحب أن تفكر فى الأمر تفكيراً علميا مجرداً من الهوى مبرأ من الغرض، لا يتأثر بالعصبية الجنسية ولا الدينية فسترى أن الأمر قد سار فى الشرق والغرب على أسلوب واحد، فلم يكد الاسلام ينتصر ويستقر فى الأرض ويظفر بالسلطان السياسى ويفرغ من الحرب

والفتوح حتى كره ملوكه الجديدَ وأكثروا الحرص على القديم واستغلوا ميل العامة إلى القديم وحرصهم عليه، واتخذوا هذا الاستغلال وسيلة إلى الحكم والتسلط، فانكروا كل جديد وحاربوه. وعلى هذا النحو سارت المسيحية فى أوروبا، وكان لأصحاب الدينين صرعى فى الشرق والغرب. وكان العلم موضع الاضطهاد فى هذين القطرين من الأرض. ولكن هنا وقفة يجب أن نقفها لنكون منصفين، فالحق أن ليس فى طبيعة الاسلام ولا فى طبيعة المسيحية ما يدعو إلى الاضطهاد ولا إلى محاربة الجديد ولا إلى مناهضة حرية الرأى. ولك أن تقرأ القرآن والأناجيل وتمعن فى القراءة، ولك أن تبحث وتمعن فى البحث، فان تجد نصاً أو شبه نص ينكر التجديد ويدعو إلى مناهضته، أو يأخذ العقول بالجمود، أو يحظر عليها حرية الرأى قليلا أو كثيراً، ليس فى الاسلام ولا فى المسيحية إذن ما يدعو إلى مناهضة حرية الرأى، لم يكن فى الوثنية اليونانية أو الرومانية ما يدعو إلى مناهضة حرية الرأى أيضاً. ومع ذلك فقد أثم الوثنيون وأثم اليهود والنصارى والمسلمون واعتدوا جميعاً على حرية الرأى اعتداء يختلف قوة وضعفاً.

أليس مصدر هذا فى حقيقة الأمر إنما هو إستغلال السياسة لعواطف السواد؟ بلى، ولولا أن السياسة تريد أن تتخذ ما تستطيع

من الطرق والوسائل لتتسلط على نفوس الناس وتتملق عواطف السواد لما قتل الأتينيون سقراط ، ولما حاول اليهود صلب المسيح ، ولما سفك الرومان دماء اليهود والنصارى ، ولما أخرجت قريش محمداً وأصحابه من ديارهم ، ولما عذب ابن رشد و « جليلى » ولما حرّق من حرّق وشرّد من شرّد من العلماء والمفكرين .

وشيء آخر لا بد من إثباته لنكون منصفين ، وهو أن تبعات المسيحيين أثقل من تبعات المسلمين فى مناهضة العلم ومحاربة حرية الرأى ، فأنت تستطيع أن تعد العلماء والمفكرين الذين أوذوا فى البلاد الاسلامية ، وأنت تستطيع أن تلاحظ أنهم قليلون جداً ، وأن تلاحظ أيضاً أنهم لم يلقوا من الأذى إلا قليلا . ولكنك تستطيع أن تعد العلماء والمفكرين الذين أوذوا فى ظل المسيحية ، فستراهم كثيرين جداً ، وسترى أنهم لقوا من الأذى ألواناً منكرة أخفها السجن ، وأقساها الموت والعذاب بين هذين اللونين ومصدر هذا أن الاسلام حر طلق ليس له ما للمسيحية من (الاكليروس) والكنيسة المنظمة ، وأن الاسلام حر طلق أيضاً لا يأخذ العقل الانسانى بما لا يطيق ولا يكرهه على الايمان بما لا يفهم ولا يضع أمامه الأسرار التى يجب أن يقبلها دون روية أو تفكير . ومصدر ذلك أيضاً أن الاسلام حر طلق لم يجعل للحكومة على الناس سبيلا فيما يفكرون

ويرون وإنما اتخذ هذه القاعدة السمحة أساساً لسياسته بإزاء حرية الرأى : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » وهو إذن لم يمنح السلطة السياسية على الناس حق الموت والحياة ، وإنما بين حدود الله تبيينا وعرف الأفراد حقوقهم وواجباتهم ، ورسم للحكومة فى هذا الوجه طريقا لا تعدوه حتى تأثم . فليس للحكومة المسلمة أن تعذب مسلما أو تؤذيه وهو يعلن إيمانه بالله ورسوله ، وإنما موقف الحكومة المسلمة موقف الاسلام نفسه لا تتحرك إلا حين يتعرض الاسلام للخطر . هو موقف دفاع لا موقف هجوم . ومصدر ذلك أيضا أن الاسلام من أشد الديانات نصراً للتجديد ونعيا على الذين يسرفون فى نصر القديم . وكثيرة جدا فى القرآن هذه الآيات التى تسخر من المشركين الذين عاصروا النبى أو لم يعاصروه لأنهم أبوا الاجابة إلى دين الله حرصا على القديم وكراهة أن يعبدوا ما لم يكن يعبد آباؤهم ، كل هذا جعل الحكومة الاسلامية وعلماء الدين من المسلمين أقل ميلا إلى الاضطهاد وأشد احتراما لحرية الرأى من الحكومات المسيحية ورجال الدين من المسيحيين . وقد يكون من الخير أن نلاحظ أن المسلمين لم يعرفوا اضطهاداً لحرية الرأى فى عصورهم الأولى حين كانت الحكومة عربية خالصة منصرفة إلى الشئون السياسية وحدها غير متدخلة فى حياة الأفراد ولا فيما

يرون . فلسنا نعرف أيام الخلفاء الراشدين اضطهاداً لحرية الرأى . ولسنا نعرف شيئاً من ذلك أيام بنى أمية ؛ مع أن البدع ظهرت وكثرت فى هذه الأيام . ذلك لأن الحكومة فى تلك العصور كانت عربية خالصة والعربى حر بطبعه ، ولأن الحكومة فى تلك العصور كانت قريبة إلى الأصول الاسلامية الخالصة ، وأصول الاسلام حرة بطبعها . فلما كان عصر بنى العباس وتسلطت على المسلمين حكومة عربية فى ظاهر الأمر ، أعجمية فى حقيقته ؛ ظهرت الخصومة بين العلم والدين ، وظهر اضطهاد الحكومة لحرية الرأى ، فكان ما كان من تتبع الزنادقة أول أيام بنى العباس ، على أن الزنادقة كانو يتحدون الاسلام حقا ويحاولون الافساد فى الأرض أحيانا . ثم كان ما كان من تتبع الذين يخالفون رأى الخليفة فى الدين ، وفتنة الناس فى آرائهم أيام المأمون ، ثم كان ما كان من تسلط الترك وتسلط الجمود معهم على الحياة الدينية والعقلية ؛ فأنت ترى معى أن الاسلام والمسيحية بريئان من اضطهاد الرأى ومناهضة العلم وأن إثم ذلك واقع حقا على السياسة التى تدخلت بين الدين والعلم أو بين السواد والعلماء . ولما كان حظ رجال الدين المسيحى من سلطان السياسة أعظم من حظ رجال الدين الاسلامى ، كان اعتداء (الاكليروس) المسيحى على الحرية أشد خطراً وأبعد أثراً .

٦

ولك الآن أن تعكس الأمر ، فان الدين لم يعتد وحده على العلم ، بل اعتدى العلم على الدين أيضاً حين آل اليه السلطان . وقد رأيت أن المسيحية اعتدت على الوثنية وحاربتها بنفس الأسلحة التى حاربتها الوثنية بها . وقد رأيت أنا لا نرى الخصومة بين العلم والدين من حيث هما علم ودين ، وإنما نراها واقعة بين القديم والجديد من حيث هما قديم وجديد . ولو أن سواد الناس عنى بالمسائل اللغوية والأدبية عنايته بمسائل الدين ، لكان من المجددين فى اللغة والأدب صرعى وشهداء كما كان من المجددين فى العلم والدين والفلسفة . ونحن نرى فى أول هذا العصر الحديث حركة تدعو إلى حرية الرأى وإلى التجديد فى كل شىء فى العلم والأدب والفلسفة والدين . فأما المظهر الدينى لهذه الحركة فالبروتستانتية ، وأما المظهر العلمى فحياة « جليلى » و « كوبرنيك » ومن إليهما من العلماء ، وأما المظهر الفلسفى فحياة « ديكارت » و « باكون » و « ولبنيتز » و « سبينوزا » ومن إليهم ، وأما المظهر الأدبى والفنى فكل هذه الحركة القوية الخاصة التى نلحظها فى إيطاليا ثم فى فرنسا ثم فى انجلترا والتى أخرجت من أخرجت من الشعراء والكتاب والمصورين والمثالين . نرى هذا كله ولكننا لا نرى الحرب بين القديم والجديد عنيفة تنتهى إلى سفك الدماء إلا

فى المظهر الدينى الخالص ، أو فى مايكون من الخصومة بين المظهر الدينى والمظهر العلمى الفلسفى . فأنت تعلم ما سفك من الدماء بين الكاثوليك والبروتستنت . وأنت تعلم ما لقى العلماء والفلاسفة من أذى رجال الدين . وأنت تعلم أن ديكارت إنما آثر حياته فى هولندا — كما يقول رينان — لأن الناس كانوا عنه فى شغل بتجارتهم . وإذن فلا بد من أمرين لتكون الخصومة بين العلم والدين أو بين الحرية والدين عنيفة منكرة : أحدهما أن يعنى السواد بهذه الخصومة ، والثانى أن تستغل السياسة عناية هذا السواد . ولو لا أن السواد عنى بالخصومة بين الكاثوليكية والبروتستانتية وبالخصومة بين العلم والدين ، ولو لا أن السياسة اعتزت بهذا السواد لما سفك دم ولا حرّق عالم ولا أوذى فيلسوف . على أن البروتستانتية قاومت حتى كان لها النصر ، واستأثرت بجزء عظيم من أوروبا ، وعلى أن العلم والفلسفة قاوما حتى كان لهما النصر ، واستأثرا بالعقول فى أوروبا أثناء القرن الثامن عشر . وليس هنا موضع البحث عن الأسباب التى أتاحت للعلم والفلسفة الاستئثار بعقول كثير من سواد الناس أثناء هذا القرن الثامن عشر . ولكن هناك حقيقة واقعة لاتقبل الشك ، وهى أن العقل الأوروبي تطور فى هذا العصر تطوراً شديداً غريباً فنصب الحرب لهذين الحليفين اللذين

أذلاه حينا وهما السياسة الملكية والكنيسة الكاثوليكية ، نصب الحرب لهذين الحليفين واعتز فى حربه هذه بالعلم والفلسفة ، وظل يجاهد حتى كانت الثورة الفرنسية . وهنا انعكست الآية وأثم العلم والفلسفة أو قل أثم أصحاب العلم والفلسفة ، كما أثم أصحاب الدين من قبل ، فاضطهد الدين اضطهاداً شديداً ولقى رجال الدين ضروباً من المحن والفتن ، وكان الذين يفتنون رجال الدين ويمتحنونهم هم أولئك الذين كانوا متأثرين بفلسفة « فولتير » و « مونتسكيو » و « جان جاك روسو » و « ديدرو » وغيرهم . وكان قوام هذه الفلسفة من الوجهة العملية والنظرية إنما هو الدعوة إلى حرية الرأى وإلى التسامح . فما بال هذه الفلسفة التى كانت تدعو إلى الحرية والتسامح قد استحالت عدواً للحرية والتسامح . أما الفلسفة نفسها فلم تتغير ، ولم تنكر الحرية ، ولم تنصب لها الحرب ، وإنما ذنبها وإثمها أنها ظفرت بعد الثورة الفرنسية بالمكانة السياسية الرسمية فطغت أو طغى أصحابها وأسرفوا فى الطغيان ، أمرها من ذلك كأمر المسيحية ، كانت تعذب وتضطهد وتدعو أثناء ذلك إلى الحرية والتسامح حتى إذا أصبحت دين الدولة طغى أصحابها وأسرفوا فى الطغيان . فالإثم فى حقيقة الأمر ليس إثم الدين ولا إثم العلم ولا إثم الفلسفة وإنما هو إثم هذه الدخيلة التى تتوسط بين هذين العدوين فتسلح أحدهما على الآخر وتستغل هذا لمنفعتها الخاصة .

وفى الحق أنى أحاول أن أفهم كيف يستطيع الدين أو العلم أن يعتدى على الحرية العلمية أو الدينية إذا لم تمدده السياسة بالذخائر والسلاح فلا أجد إلى هذا الفهم سبيلا . تصور بلداً وقفت السياسة فيه موقف الحيدة المطلقة بين العلم والدين فكفت أيدى الناس عن الناس ، وأقرت الأمن فى نصابه ، وتركت للعلم حريته ، وللدين حريته فما الذى يمكن أن يقع من العنف بين العلماء ورجال الدين ؟ لا شىء إلا الخصومة الكلامية ، لا شىء إلا المناقشة والجدل ، ومن الذى يستطيع أن يرى شراً فى المناقشة أو الجدل ؟ !

٧

ستظن بعد أن تقرأ هذا كله أننا لا نرى الخصومة قوية بين العلم والدين فى نفسهما ، وإنما نرى أن السياسة تستغلهما لمنفعتها ولو تركتهما لتصافيا وائتلفا . . . كلا ! نحن لا نرى هذا الرأى وإنما نرى ما قلناه فى أول هذا البحث من أن الخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لا سبيل إلى اتقائها ولا إلى التخلص منها . هى أساسية جوهرية لأن العلم والدين لا يتصلان بملكة واحدة من ملكات الانسان ، وإنما يتصل أحدهما بالشعور ويتصل الآخر بالعقل ، يتأثر أحدهما بالخيال ويستأثر بالعواطف ، ولا يتأثر الآخر بالخيال إلا بمقدار ولا يعنى بالعاطفة إلا من حيث هى موضوع لدرسه وتحليله . والخصومة بين العلم والدين

أساسية جوهرية لأن الدين أسن من العلم ، ولأنه كان فى العصور القديمة كل شيء : كان ديناً وكان علماً ، ولأن العلم جاء بعد ذلك فغير هذا القسم العلمى من الدين ، وأبى الدين أن يذعن لهذا التغيير ، وأبى العلم أن ينزل عما ظفر به من الثمرات . فلن يتفقا إلا إذا جحد أحدهما شخصيته كما قلت فى غير هذا المكان .

والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن الدين يرى لنفسه الثبات والاستقرار ، ولأن العلم يرى لنفسه التغير والتجدد ، فلا يمكن أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما عن شخصيته .

والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن أحدهما عظيم جليل واسع المدى بعيد الأمد لا حد له ولا انتهاء لموضوعه ، ولأن الآخر متواضع ضئيل محدود المطامع بطيء الخطى يتقدم ثم لا يكره أن يحجم ، ويمضى ثم لا يكره أن يرتد ، ويبنى ثم لا يتحرج من الهدم ، فلا يمكن أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما عن شخصيته .

فالخصومة بينهما أمر لا بد منه . ولكن المسألة فى حقيقة الأمر ليست فى أن الخصومة واقعة أو غير واقعة ، وإنما هى فى أن الخصومة ضارة أو نافعة أو بعبارة أدق : المسألة هى أن نعرف هل كتب على الانسانية أن تشقى بالعلم والدين أم هل كتب على الانسانية أن تسعد بالعلم والدين ؟ أما نحن فنعتقد أن الانسانية تستطيع أن تسعد بالعلم

والدين جميعاً . وأنها ملزمة إذا لم تستطع أن تسعد بهما أن تجتهد في ألا تشقى بهما . وسبيل ذلك عندنا واضحة ، وهى أن ينزع السلاح كما يقولون من يد العلم والدين ، أو قل سبيل ذلك أن ترغم السياسة على أن تقف موقف الحيدة من هذين الخصمين . فالعلم فى نفسه لا يريد ولا يستطيع الأذى ، والدين في نفسه لا يريد ولا يستطيع الأذى ، ولكن السياسة تريد وتستطيع الأذى غالباً . وهى كما قلت تتخذ العلم حيناً وسيلة إلى هذا الأذى وتتخذ الدين حيناً آخر وسيلة إليه . وهب السياسة لم تطع رجال الدين ولم تشتر نفوسهم وضمائرهم ولم تهيء لهم من أسباب الرغد والنعيم ما يصرفهم عن الله ويجعل الدين فى أيديهم سلعاً تباع وتشترى ، أوهب السياسة لم تفسد نفوس العلماء وضمائرهم وأخلاقهم ولم تشترهم بالمناصب وأسباب السلطان ولم تمنحهم من أسباب الرغد والنعيم مايحولهم عن البحث العلمى الهادىء إلى هذه الخصومة العنيفة العقيمة ، هب السياسة لم تشغل أولئك ولا هؤلاء، ولم تمكن السواد من أن ينتصر لأولئك أو هؤلاء فماذا تكون النتيجة ؟ تكون أن يمضى رجال الدين فى حياتهم الدينية ورجال العلم فى حياتهم العلمية وأن ينصرف السواد إلى حياته العملية المنتجة منتفعاً بالدين فيما بينه و بين الله ، منتفعاً بالعلم فى تدبير شئونه اليومية ، وأن تزول هذه الخصومات المنكرة التى تقسم الناس شيعاً

وأحزابا ، وتغرى بعضهم ببعض ، وتجعل بعضهم لبعض عدوا ، وتبث فيهم ألوان الرذيلة وحب الكيد والوقيعة وما إليها من الرذائل الفاحشة .

وهل تظن أن وقف السياسة هذا الموقف شيء عسير حقاً ؟ كلا ! قد كان عسيراً قبل هذا العصر الحديث حين لم يكن بد للحكومة من أن تستغل الدين أو من أن تستغل العلم . فأما هذا العصر الذى نحن فيه فقد استطاعت السياسة أن تستقل وأن تمشى على قدميها دون أن تعتمد على عصا دينية أو علمية . ذلك لأن فكرة الوطنية وما يتصل بها من المنافع الاقتصادية والسياسية الخاصة قامت الآن في تكوين الدول وتدبير سياستها مقام فكرة الدين أو مقام هذه النظريات الفلسفية الميتافيزيقية التى كانت تقوم عليها الحكومة من قبل . وأين هى الحكومة التى تستطيع الآن أن تزعم أنها تقوم على الدين أو أنها تقوم لحماية الدين ، أو أنها تقوم على أساس ما من هذه الأسس الفلسفية المختلفة : حماية الواجب أو حماية الحق أو حماية العدل ؟ أين هى الحكومة التى تستطيع أن تجهر بشيء من ذلك دون أن يضحك منها الناس جميعاً وأن يكون رعاياها أول الضاحكين ؟ أتستطيع الحكومة المصرية مثلا أن تزعم أنها إنما تقوم على الاسلام وبالاسلام وللاسلام ؟ كلا . كما أن الحكومة الفرنسية لا تستطيع أن تزعم أنها إنما تقوم على المسيحية وبالمسيحية وللمسيحية . ومع

ذلك فقد كانت مصر موئل الاسلام فى جميع عصورها الاسلامية !
ومع ذلك فقد كان ملوك فرنسا يلقبون أنفسهم أصحاب الجلالة المسيحية!
ومع ذلك فقد كان ملوك مصر وسلاطينها يعاهدون ملوك أوروبا باسم المسلمين ويزعمون لأنفسهم حماية بيت المقدس والحرمين الشريفين !
ومع ذلك كان ملوك فرنسا يعاهدون دول الشرق الاسلامى باسم المسيحية ويزعمون لأنفسهم حماية المسيحية فى بلاد الاسلام !

كان هذا كله، ولكن هذا كله قد تغير، فمصر لا تستطيع أن تزعم أنها حامية بيت المقدس أو الحرمين الشريفين أو أنها الناطقة بلسان المسلمين الذائدة عن حوض الاسلام. بل لست أدرى أتستطيع مصر الآن أن تزعم أنها تحمى الاسلام فى أقطارها الخاصة ولا تتجاوز حدوده عمداً أو كرهاً. ولا تستطيع فرنسا أن تزعم لنفسها حماية المسيحية فى الأقطار الاسلامية، بل لا تستطيع أن تزعم لنفسها حماية المسيحية فى أقطارها الخاصة. لا تقوم الحكومة المصرية الحديثة ولا الحكومة الفرنسية الحديثة على أساس من دين ولا من علم ولا من فلسفة، وإنما تقوم الحكومة الحديثة فى أقطار الأرض المتحضرة الآن على أساس سياسى خالص من المنفعة الاقتصادية والمدنية لا أكثر ولا أقل. وقد فرغ الناس من هذا وأصبحوا لا يفكرون فى أن الحكومة تقوم على الدين أو لا تقوم عليه. فان فكروا فى

صلة بين الدين والحكومة وهذا قليل نادر ، فانما يفكرون فى طبيعة الموقف الذى يجب أن تقفه الحكومة الحرة الصالحة من دين الكثرة والقلة . أتعترف بهذه الديانات أم تنكرها أو تجهلها فى غير اعتراف ولا إنكار؟

٨

نعم أن دستورنا المصرى قد نص فى صراحة أن الاسلام دين الدولة . وكان هذا النص مصدر فرقة لانقول بين المسلمين وغير المسلمين من أهل مصر ، فقد رضيت القلة المسيحية وغير المسيحية هذا النص ولم تحاور فيه، ولم تر فيه على نفسها مضاضة أو خطراً . و إنما نقول إنه كان مصدر فرقة بين المسلمين أنفسهم ، فهم لم يفهموه على وجه واحد ولم يتفقوا فى تحقيق النتائج التى يجب أن تترتب عليه . فأما عامة الناس فلم تلتفت إلى هذا النص ولم تحفل به ، وأكبر ظننا أنها ما كانت لتشعر بشىء لو لم يوجد هذا النص فى الدستور . فعامة الناس فى مصر منصرفون بطبعهم إلى حياتهم العملية ، مستعدون أحسن الاستعداد وأقواه للاتصال بأزمنتهم وأمكنتهم وللملاءمة بين حياتهم و بين ضرورات التطور . وهم يعلمون أن الاسلام بخير ، وأن الصلوات ستقام، وأن رمضان سيصام ، وأن الحج سيؤدى ، وهم يذهبون فى القيام

بواجباتهم الدينية مذهب غيرهم من الناس المعتدلين ، لاهم بالمسرفين فى تدين ولاهم بالمسرفين فى العصيان والفسوق . فسواء عليهم أنص الدستور أم لم ينص أن الاسلام دين الدولة ، وسواء عليهم أسيطرت الحكومة أم لم تسيطر على شعائر الدين ، مادامت هذه الشعائر قائمة محترمة . إنما وقعت الفرقة حول هذا النص بين فريقين من المسلمين المصريين : أحدهما المستنيرون المدنيون ، والآخر شيوخ الأزهر ورجال الدين . فأما المستنيرون فقد فهموا أن الدستور حين ينص أن الاسلام دين الدولة لا يريد إلا أن يعلن احترامه لدين الكثرة وما توارثت من تقاليد ، ويكلف الحكومة مقداراً قليلا من الواجبات التى تتصل بهذه التقاليد . فلما أرادوا تحليل هذا كله فهموا أن هذا النص لا يزيد على تقرير الواقع من أن ملك مصر يجب أن يكون مسلماً ، ومن أن شعائر الاسلام يجب أن تقام بعد صدور الدستور ، كما كانت تقام قبل صدوره ، فلا تغلق المساجد ، ولا يعطل الحج ، ولا تعمل الحكومة فى أيام الأعياد الاسلامية ولا ينقطع إطلاق المدافع فى رمضان ، ولا يلغى الحفل بالمحمل ولا الحفل بالمولد النبوى ولا تنفق أموال الأوقاف الاسلاميه فى غير مارصدها له الواقفون . ولم يخطر لهؤلاء المستنيرين فى يوم من الأيام أن هذا النص سيكلف الحكومة واجبات جديدة دينية ، أو أنه سيحدث في الدولة نظماً لم يكن لها بها عهد من قبل .

ذلك لأنهم كانوا وما يزالون يقدرون أن مصر تمضى إلى الأمام وتسرع فى الاتصال بالمدنية الغربية وتريد أن تحقق ماقال إسماعيل من أنها جزء من أوروبا . ولأنهم كانوا وما يزالون يقدرون أن فى الاسلام من اللين والمرونة ما يمكنه من التطور مع الزمن وملاءمة الظروف المختلفة ويعصمه من الجمود والسكون ، ويحول بينه وبين أن يكون عقبة فى سبيل الرقى الاجتماعى والاقتصادى . ولأنهم كانوا وما يزالون يقدرون أن حكومة مصر قد اضطرت بحكم هذه الحياة الحديثة إلى أن تأتى من الأمر ما لم يكن يبيحه الاسلام من قبل ، فهى تعامل المصارف ، وتنظم الربا ، وتبيح ألوانا من المعصية ، بل تستغلها أحيانا فاذا كان نص الدستور أن الإسلام دين الدولة يدل على معناه حقا فلا أقل من تغيير كل هذه المحدثات ولا أقل من أن يغير نصوصاً تكفل حرية الرأى وتبيح للناس أن يلحدوا ، وتسوى بين المسلم وغير المسلم فى الحقوق والواجبات ، وما كان الاسلام ليبيح الالحاد ولا ليسمح للملحد أن يعلن إلحاده وخروجه على الدين ، وأحكام المرتد معروفة فى الاسلام وما كان الاسلام ليسوى بين المسلم وغير المسلم فى بلد يكون هو فيها الدين الرسمى

فهم المستنيرون هذا كله ، ولم يعارضوا فى هذا النص حين أعلنت لجنة الدستور أنها ستضعه فى الدستور ، بل هم فريق منهم أن يعارض

لأنه خشى أن يفهم هذا النص على غير وجهه فما زالوا به حتى كفوه عن المعارضة ، واضطروه إلى السكوت ، وقالوا : نص فيه إرضاء لعاطفة السواد وطمأنة للشيوخ فهو لا يضر ، وأكبر الظن أنه قد يفيد .

ولكن الشيوخ فهموا هذا النص فهماً آخر ، أو قل إنهم فهموه كما فهمه غيرهم ، ولكنهم تكلفوا أن يظهروا أنهم يفهمونه فهماً آخر ، واتخذوه تكأة وتعلة يعتمدون عليها فى تحقيق ضروب من المطامع والأغراض السياسية وغير السياسية . فهموا أن الاسلام دين الدولة أى أن الدولة يجب أن تكون دولة إسلامية بالمعنى القديم حقاً ، أى أن الدولة يجب أن تتكلف واجبات ما كانت لتتكلفها من قبل . وعلى ذلك أخذوا يطالبون بأمور ما كانوا يطالبون بها قبل الدستور . وذهب فريق منهم على رأسه نفر من هيئة كبار العلماء إلى أبعد حد ممكن ، فكتبوا يطالبون ألا يصدر الدستور لأن المسلمين ليسوا فى حاجة إلى دستور وضعى ومعهم كتاب الله وسنة رسول الله . وذهب بعضهم إلى أن طلب إلى لجنة الدستور أن تنص أن المسلم لا يكلف القيام بالواجبات الوطنية إذا كانت هذه الواجبات معارضة للاسلام ، وفسروا ذلك بأن المسلم يجب أن يكون فى حل من رفض الخدمة العسكرية حين يكلف الوقوف فى وجه أمة مسلمة كالأمة التركية مثلا . ولكن هذه المطالب كلها أهملت إهمالا

ومضت لجنة الدستور فى عملها حتى أتمته والشيوخ فيها ممثلون . وليس هنا موضع التعريض أو التصريح بما كان للشيوخ من سعى أثناء إعداد الدستور وقبل صدوره . ولكننا نكتفى بأن نلاحظ أنهم أو بأن كثرتهم لم تكن تبتسم للدستور حقا . وصدر الدستور وابتهج به الناس جميعاً واطمأن إليه الناس جميعاً إلا الشيوخ فإنهم لم يكتفوا بقبول الدستور والرضا بما فيه من المساواة والحريات المكفولة بل استغلوه استغلالا منكراً فى حوادث مختلفة أهمها حادثة «الاسلام وأصول الحكم» وحادثة كتاب «فى الشعر الجاهلى» . وإليك نظرية الشيوخ فى استغلال هذا النص الذى ما كان يفكر واحد من أعضاء لجنة الدستور فى أنه سيستغل وسيخلق فى مصر حزباً خطراً على الحرية، بل خطراً على الحياة السياسية المصرية كلها . يقول الشيوخ إن الدستور قد نص أن الاسلام دين الدولة ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة بحكم الدستور حماية الاسلام من كل ما يمسه أو يعرضه للخطر ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة أن تضرب على أيدى الملحدين وتحول بينهم و بين الالحاد أو تحول بينهم و بين إعلان الالحاد على أقل تقدير . ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة أن تمحو حرية الرأى محواً فى كل ما من شأنه أن يمس الاسلام من قريب أو بعيد سواء أصدر ذلك عن مسلم أو عن غير مسلم . ومعنى ذلك أن الدولة مكلفة بحكم

الدستور أن تسمع مايقوله الشيوخ فى هذا الباب . فاذا أعلن أحد رأياً أو ألف كتاباً ، أو نشر فصلا ، أو اتخذ زياً ، ورأى الشيوخ فى هذا كله مخالفة للدين ونبهوا الحكومة إلى ذلك ، فعلى الحكومة بحكم الدستور أن تسمع لهم وتعاقب من يخالف الدين أو يمسه بالطرد أولا إن كان موظفاً ، ثم بتقديمه إلى القضاء بعد ذلك ، ثم « باعدام جسم الجريمة » كما يقول رجال القانون على كل حال . ومما زاد الأمر تعقيدا والموقف حرجاً بين المستنيرين ورجال الدين بازاء هذا الوجه من وجوه الحرية الدستورية أمران : أحدهما ان النظام السياسى القديم كان قد أنشأ فى مصر شيئاً يسمى هيئة كبار العلماء وجعل لهذا الشىء حقوقاً وألواناً من السلطان على طائفة من الناس ، وجعل لهذا الشىء ضربا من السيطرة المعنوية على أمور الدين فى مصر . وكان المعقول أن صدور الدستور يجب أن يمحو من هذا النظام القديم كل مالا يتفق مع نصوص الدستور نفسه ؛ ولكن هيئة كبار العلماء ظلت قائمة مستمتعة بحقوقها محتفظة بسلطانها وسيطرتها لاتعتز بهما ولا تستغلهما لأنها لم تكن تلتفت من هذا كله إلا إلى ما يمنحها من المرتبات ومنازل الشرف حتى صدر كتاب « الاسلام وأصول الحكم » . فأحست هيئة كبار العلماء أو أريد منها أن تحس أن لها حقوقا وسلطانا ، واستغلت هيئة كبار العلماء أو أريد منها أن تستغل تلك

الحقوق وهذا السلطان . الثانى أن الدستور لم يكد يصدر حتى عطل أو كاد يعطل فقد صدر الدستور فى أوائل سنة ١٩٢٣ ولكن البرلمان لم يأتلف إلا فى أوائل سنة ١٩٢٤ ، وكانت الحكومة القائمة بين صدور الدستور وانعقاد البرلمان لأول مرة حكومة ضعف وتفريط فى كل شىء ، كانت حكومة لا تعتمد على نفسها ولا تستطيع أن تثبت على قدميها إلا أن يسندها مسند من اليمين إن مالت إلى اليمين ، أو مسند من الشمال إن مالت إلى الشمال ، ولم يكن يسندها مسند اليمين أو مسند الشمال عفواً ولا ابتغاء مرضاة الله ، وإنما كان يسندها هذا المسند أو ذاك لمنافع ومطامع . فقوى فى ظل هذه الحكومة الضعيفة أمر الرجعية وكثر الريش فى أجنحة الشيوخ ، وطلب الأزهر أموراً فما أسرع ما أجيب إليها وكان أظهر هذه الأمور إلغاء مدرسة القضاء أو مسخها و إنشاء أقسام التخصص فى الأزهر . ثم انعقد البرلمان فانصرف بطبيعة الحال إلى ما كان ينبغي أن ينصرف إليه من المسألة السياسية الخارجية ، وبينا هو منصرف إلى هذه المسألة السياسية الخارجية تحرك الشيوخ أو قل تحرك الأزهر كله أو قل حرك الأزهر تحريكا فظهرت له مطالب غريبة ضخمة فيها إعنات و إحراج وتعمل ، ورفعت هذه المطالب إلى الحكومة البرلمانية الشعبية يومئذ مع شىء من الالحاح ومع شىء من الضجيج والعجيج والمظاهرات الغريبة داخل

الأزهر وفى شوارع المدينة وميادينها وعند القصر . وهمت الحكومة البرلمانية أن تأخذ بالحزم أمام هذه الحركة الغريبة التى لم يكن يعرف أيهما أعظم فيها أثراً أحظ الدين أم حظ السياسة والمنفعة . ولكن الحوادث المنكرة التى حدثت آخر تلك السنة ذهبت بالبرلمان وبالحكومة البرلمانية . وقامت فى مصر يومئذ حكومة أخرى أشبه شيء بتلك الحكومة التى كانت قائمة بين صدور الدستور وائتلاف البرلمان ، حكومة ضعف وتردد واضطراب ، حكومة تميل إلى اليمين حينا فتكاد تهوى لولا أن يسندها مسند ويتقاضى على هذا ثمنا ، وتميل إلى الشمال حينا فتكاد تهوى لولا أن يسندها مسند ويتقاضى على هذا ثمناً أيضاً . وكان من الأثمان التي دفعتها هذه الحكومة الاستماع للازهريين والنزول عند ما كانوا يريدون واستغلال هذا فى الخصومة السياسية الحزبية ، فما أسرع ما ألفت لجنة وزارية درست مطالب الأزهريين وقبلتها وأخذت فى تنفيذها . وبهذا تقدم الأزهر خطوة أخرى فى سبيل السيطرة والسلطان وأحس الأزهريون أنهم يستطيعون أن يخيفوا الحكومات ويكرهوها على أن تذعن لهم وتنزل عند ما يريدون . وكانت نتيجة هذا كله أن ألغيت أو مسخت « دار العلوم » كما ألغيت أو مسخت مدرسة القضاء من قبل وأن احتكر الشيوخ أو كادوا يحتكرون التعليم الأولى وإن زادت مخصصات الأزهر

المالية ، وأن قوى فى وزارة المعارف الميل إلى نشر التعليم الدينى فى مدارس الحكومة كلها من طريق الازهريين وكانت الفكرة الأساسية الخفية أن يكلف الأزهر نشر هذا التعليم الدينى وأن يبث شيوخ الأزهر فى مدارس الحكومة كلها . وكانت النتيجة السياسية الخطرة لهذا كله أن تكوَّنَ فى مصر أو أخذ يتكون فيها حزب رجعى يناهض الحرية والرقى ، ويتخذ الدين ورجال الدين تكأة يعتمد عليها فى الوصول إلى هذه الغاية . وفى أثناء ذلك ظهر كتاب «الاسلام وأصول الحكم» فاستغل فى سبيله كل ما تقدم وظهر أن فى مصر حزباً سياسياً يتخذ الدين وسيلة لمناهضة حرية الرأى بنفس الوسائل التى كانت تناهض بها أثناء القرون الوسطى فى أوروبا . أنكر الكتاب وحوكم صاحبه وأخرج من صف العلماء وفصل من منصبه وانتهى هذا كله بأزمة سياسية حادة ظهر فى أول الأمر أن هذا الحزب السياسى الدينى هو الذى انتفع بها واستفاد منها فقد أُخرج وزير من الوزارة واستقال معه طائفة من أصحابه ، فقبلت استقالاتهم فى سرور وابتهاج ، واعتز رئيس الوزراء بالنيابة يومئذ بأنه نصير الدين وحاميه والذائد عن حوضه . وكان كل هذا يشد أزر الشيوخ ويقوى إيمانهم بأن النص الذى يشتمل عليه الدستور يكلف الحكومة واجبات ما كانت تتكلفها من قبل . فلم يعرف تاريخ مصر الحديث شيئاً من اضطهاد

حرية الرأى باسم السياسة والدين قبل صدور الدستور وحين كانت مصر خاضعة لسلطان الخلافة التركية يشبه ما كان من ذلك بعد صدور الدستور ، وبعد انقطاع الأسباب بين مصر وسلطان الخلافة بل بعد انهيار الخلافة نفسها .

ومهما يكن من شىء فقد استيقن رجال الدين أنهم مؤيدون وأن لهم عضداً يسندهم فطمعوا وأسرفوا فى الطمع . ومما يظهر هذا الطمع حادثتان : إحداهما حادثة الأزياء فى دار العلوم ؛ هذه الحادثة التى وقفت فيها الحكومة موقف الخادم المطيع لصاحب الفضيلة مولانا الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، والتى انتهت كما يعلم الناس جميعاً بشىء من الاذعان فيه إفساد للأخلاق وإكراه للشبان على النفاق . فقد أخذ طلاب دار العلوم يذهبون إلى مدرستهم فى زى الشيوخ ، وقد اتخذوا من تحت هذا الزى زياً آخر يظهرونه متى خرجوا من المدرسة . والحادثة الثانية أن بعض الممثلين همّ بالسفر إلى أوروبا ليلعب قصة تمثيلية فيه شخص النبى صلى الله عليه وسلم فغضب الشيوخ لذلك وطلبوا إلى وزارة الداخلية أن تمنع هذا الممثل مما كان يريد ، وأن تتخذ لذلك ما ترى من الوسائل حتى الوسيلة السياسية فتخاطب الحكومة الفرنسية فى أن تمنع تمثيل هذه القصة فى بلادها ،

وكان هذا الممثل طيعاً هيناً فأذعن لأمر الداخلية ومضى الشيوخ

واتخذت مشيخة الأزهر لنفسها منذ ذلك الوقت اسم الرياسة الدينية العليا، وهو اسم مبتدع لا يعرفه الاسلام، ولا يؤمن له مسلم يعرف واجباته الدينية حقا، وكثرت فتاوى «الرياسة الدينية العليا» ولم ينس أحد بعد فتواها فى تحريم القلانس على المسلمين وفى أثناء هذا كله ظهر كتاب «فى الشعر الجاهلى» وهنا اصطدمت السلطة الدينية بالحرية العلمية اصطداماً عنيفاً، فلم يكن صاحب هذا الكتاب من علماء الأزهر ولا خاضعاً لهيئة كبار العلماء، ولم يكن فرداً مطلقا من الناس، وإنما كان أستاذاً فى معهد علمى يرى لنفسه الحرية المطلقة كلها فى الرأى، ويرى لنفسه السيادة فيما يدرس، وما ينشر لا يحده فى ذلك إلا القانون، وهنا ظهر الفرق بين الأزهريين وغيرهم من المستنيرين فى فهم هذا النص الذى يثبت أن الاسلام دين الدولة. فأما الشيوخ فقد زعموا أن الحكومة مكلفة لا حماية الاسلام وحده بل حماية الدستور، لأن هذا الأستاذ قد خالف الاسلام وهو موظف يعلم أبناء المسلمين، ويتقاضى أجره من أموال المسلمين، وما كان لحكومة ينص دستورها أن الاسلام دينها الرسمى أن تسمح لأحد موظفيها بمخالفة الاسلام. وعلى ذلك طلبت الرياسة الدينية العليا إلى الحكومة أن تفصل هذا الموظف من منصبه وتقفه أمام القضاء وتصادر كتبه.

والناس جميعاً يعلمون ماذا كان من أمر الخلاف بين الجامعة والأزهر في هذا الموضوع .

وخلاصة هذا القصص الطويل أن هذا النص الذى أثبت فى الدستور قد فرق بين المسلمين المصريين وأنشأ فى مصر قوة سياسية دينية منظمة أو كالمنظمة تؤيد الرجعية وتجر مصر جراً عنيفاً إلى الوراء ، وأنشأ فى مصر خاصة وفى الشرق الاسلامى عامة هذه المسألة التى لم تكن معروفة فى الشرق الاسلامى من قبل ، أثناء العصر الحديث وهى مسألة الخصومة الدينية السياسية بين العلم والدين . ولسنا فى حاجة إلى أن نسأل أخير هذا أم شر ؟ ولسنا فى حاجة أيضاً إلى أن نسأل عن طبيعة هذه الخصومة وما ستنتهى إليه غداً أو بعد غد ، إنما يكفى أن نلاحظ أن هذه الخصومة حقيقة واقعة ، وأن فى مصر فريقاً من الناس يمضون مع الزمن ويسايرون التطور ويريدون أن يستمتعوا وأن يستمتع غيرهم بما كفل الدستور من حرية الرأى ، وأن فى مصر فريقاً آخر من الناس ينكر هذه الحرية أو لا يبيحها إلا بمقدار وإذن فلا بد من اتخاذ موقف منتج حاسم بازاء هذه الخصومة بين أولئك وهؤلاء فما هذا الموقف وما عسى أن تكون نتائجه ؟ أما إن كان المصريون يريدون أن ينتفعوا بتجارب الأمم من قبلهم وأن يختصروا الطريق إلى الرقى وأن يصلوا إلى حياتهم السياسية والاجتماعية

الصالحة فى غير عنف ولا مشقة ولا اضطراب فسبيلهم إلى ذلك يسيرة واضحة يمكن أن تختصر فى كلمة واحدة وهى أن تقف السياسة من رجال العلم ورجال الدين موقف الحيدة التامة ، وأما إن كان المصريون يريدون أن يجربوا كما جربت الأمم من قبلهم وأن يسلكوا إلى حياتهم السياسية والاجتماعية الصالحة تلك الطريق الطويلة المعوجة الملتوية التى تنبت فيها العقاب وتأخذها الأخطار من جوانبها فسبيلهم إلى ذلك واضحة يسيرة يمكن أن تختصر فى كلمة واحدة ، وهى أن تستغل السياسة هذه الخصومة بين العلم والدين فتعتز برجال العلم حيناً ، وحينئذ تضطهد رجال الدين ، وتعتز برجال الدين حيناً آخر ، ويومئذ تضطهد رجال العلم ، وتحتمل فى سبيل ذلك من التبعات مثل ما احتملته السياسة المسيحية حين كانت تحرق العلماء وتذيقهم ألوان العذاب لترضى رجال الدين وحين كانت تشرد القسيسين وتهدر دماءهم لترضى رجال العلم .

١٠

ولكن كل شىء فى مصر يدل على أننا لا نريد الطرق الطوال المعوجة ، ولا نحب إضاعة الوقت ، وإنما نكتفي بما جربت الأمم من قبل ، ونجنى ما ظفرت به من ثمرات الرقى . دستورنا المصرى أوضح دليل على ذلك فهو دستور حديث كأحدث النظم الدستورية المعروفة

وهو دستور برىء من الرجعية ومن هذا اللون من الاعتدال البطىء ، وحسبك أننا كنا نرى فى نظامنا السياسى الانتخاب ذا الدرجتين ، فما كادت الأمة تتمتع بسلطانها حتى أسرعت إلى الانتخاب ذى الدرجة الواحدة ، وحسبك أن وزارتنا مسئولة أمام برلمـاننا بنفس الطريقة التى تسأل بها الوزارات أمام البرلمان فى فرنسا وانجلترا وغيرهما من بلاد أوربا . كل هذا يدل على أننا معتزمون حقاً أن نختصر الطريق . وإذا كانت هذه خطتنا بازاء حياتنا السياسية والاجتماعية فيجب أن تكون، وما أشك فى أنها ستكون، خطتنا بازاء حياتنا العلمية والدينية . على أننا مضطرون إلى ذلك اضطراراً فنحن لانحيا لأنفسنا وحدنا ، وإنما نحيا لأنفسنا ولغيرنا من الأمم ، ونحن متصلون رضينا أم كرهنا بأمم الغرب المتحضرة ، ونحن حريصون على أن نظفر لا أقول بعطف هذه الأمم بل أقول باكبارها لنا واحترامها لمنزلتنا السياسية والاجتماعية ، وإذن فنحن مضطرون أن نساير هذه الأمم ونعيش كما تعيش ونحن لانستطيع أن نعيش فى القرن العشرين كما كانت تعيش فرنسا فى القرن الرابع والخامس عشر بحجة أننا حديثو عهد بهذه النظم الحديثة . نحن نريد أن نظفر من الاستقلال بما يقفنا من انجلترا وفرنسا موقف الند من الند فيجب أن نعيش كما تعيش انجلترا وفرنسا لتطمئن انجلترا وفرنسا إلى ما نطلب من الاستقلال ونحن مضطرون

إلى أن نحاول التخلص من الامتيازات الأجنبية ، فيجب أن نعيش في بلادنا كما يعيش الأجانب في بلادهم ، وأن نستمتع من الحرية بمثل ما يستمتعون به ليطمئن الأجانب إلى إلغاء الامتيازات ، ثم نحن مضطرون إلى أن نعيش ولن نستطيع أن نعيش إلا إذا اتخذنا أسباب الحياة الحديثة ، فنحن محتاجون أن ننتفع بالبخار والكهرباء ونستغل الطبيعة كلها لحياتنا ومنافعنا ، والعلم وحده سبيلنا إلى ذلك وهو سبيلنا إلى ذلك على أن ندرسه كما يدرسه الأوربيون لا كما كان يدرسه آباؤنا منذ قرون وويل لنا يوم نعدل عن طب باستور وكلودبرنار إلى طب ابن سينا وداود الانطاكى . وهذا العلم الحديث الذى لا نستطيع أن نستغنى عنه لا يمكنه أن يعيش ولا أن يثمر إلا فى جو كله حرية وتسامح فنحن بين اثنتين : إما أن نؤثر الحياة وإذاً فلا مندوحة عن الحرية وإما أن نؤثر الموت ، وإذاً فلنا أن نختار الجمود

القسم الخامس

obeikandl.com

بين الجد والهزل

١

الأدب والأدباء

لم أكن فى مصر حين سأل « أحد الأزهريين » كاتبا من كتاب السياسة اليومية عن الأدب والأدباء ، وحين تفضل هذا الكاتب الأديب من « كتاب السياسة » فأحال سائله على «أساتذة الأدب فى الجامعة والمدارس العاليه » ولو كنت فى مصر حين ألقى هذا السؤال وكانت هذه الاحالة لما أجبت ولا فكرت فى الاجابة ، لأنى أعرف هذا الكاتب الأديب من كتاب « السياسة » وأعرف مكره الظريف ، وأعرف أنه يحب دائما أن يلهو ويلهى الناس بالخصومة بين الكتاب ولا سيما أنصار القديم والجديد منهم . وأذكر أنه تكلف هذه الحيلة فى السنة الماضية فانخدعت له طائفة من الكتاب والأدباء ، واختصموا فى القديم والجديد ، وضحك منهم ماكرنا الظريف ، كما ضحك منهم ماكرون آخرون ليسوا أقل من صاحبنا مكراً وظرفاً . ومع أنى لا أكره لماكرنا الظريف هذا أن يلهو

obeikandi.com

ويضحك فقد أبيت فى السنة الماضية أن ألهيه وأضحكه . ولو كنت فى مصر حين سئل وأحال هذه السنة لتركت إلهاءه وإضحاكه للأستاذ الجليل الشيخ علام سلامه ومن إليه من هؤلاء الذين يرون الجد حيث لا يكون إلا الهزل والدعابة فيجدون ويتكلفون ويضحك من يريد أن يضحك ويلهو من يريد أن يلهو ، ويستريح كتاب « السياسة » من بعض الجهد لأنهم يجدون من يملأ لهم أنهاراً ، ويضيقون أحياناً لأنهم يضطرون إلى نشر ما يكرهون وإلى إرجاء ما يؤثرون نشره . ولكننى عدت إلى مصر وكان أول ما استقبلته من الحياة الأدبية هذا الفصل الممتع الذى نشرته « السياسة الأسبوعية » الماضية للأستاذ الجليل الشيخ علام سلامة المدرس بمدرسة دار العلوم. ولست أدرى لم أحسست ميلا شديداً جداً إلى الكتابة بعد أن فرغت من قراءة هذا الفصل . ولست أدرى لم رضيت أن ألهى ما كرنا الظريف وأضحكه هذه المرة وقد كنت أكره ذلك وآباه من قبل . . .

فقد قرأت كلاماً كثيراً ممتعاً يشبه هذا الكلام الممتع الذى نشره الأستاذ الشيخ علام ، وأنا أنفق حياتى فى قراءة كلام كثير يشبه هذا الكلام فلا أحس ميلا إلى الكتابة ولا أجد من نفسى رغبة فيها ولعل مصدر هذا الميل أن الأستاذ الشيخ علام قليل الكتابة

فى الصحف ، أو أنه قليل الكتابة الممضاة فى الصحف ، فلا أقل من نتلقى فصله الممتع بشىء من التحية ونتمنى أن يطلق الله قلمه فيسطر لنا فى كل أسبوع فصلا يذهب فيه هذا النحو من مذاهب البحث اللذيذة الممتعة .

ولعل مصدر هذا الميل أيضا أن الأستاذ الشيخ علام قد وعد فى آخر فصله الممتع بأن يتورط فيما تورط الكتاب فيه من أمر القديم والجديد وإن لم تكن هناك صلة بين فصله الممتع وبين القديم والجديد. مهما يكن من شىء فأنا أريد أن أكتب فى هذا الموضوع ، وأن أبدأ بتحية الأستاذ الشيخ علام وتهنئة الصحف بفصوله الأدبية القيمة التى بدأت بدءا حسناً وأنى ستتصل اتصالا حسناً إن شاء الله ولو أن لى أن آخذ الأستاذ الجليل بشىء فى هذا الفصل لوقفت معه وقفات قصيرة عند مسائل يسيرة يحسن أن نلم بها إلماماً ، لأن الأمانة العلمية تريد هذا الالمام .

فصل الأستاذ الشيخ علام يذكرنى بطائفة من الكتاب والعلماء مات بعضهم منذ قرون وتوفى بعضهم منذ سنين ولا يزال بعضهم حياً يتنفس من هواء مصر ويشرب من ماء النيل . وكنت أحب للأستاذ الشيخ علام أن يسمى هؤلاء العلماء والكتاب أو يومىء إليهم ليعرف الناس مالهم وماله ، ففى ذلك وفاء لهؤلاء العلماء

والكتاب ، وفى ذلك أنصاف للأستاذ الشيخ علام نفسه .

فمن يدرى لعل الأستاذ قد أضاف من عنده إلى ما قال أولئك الكتاب والعلماء أشياء قيمة عظيمة الخطر لا ينبغى أن تضاف إلى غيره ، و إذا أذن لى الأستاذ أن أنصفه وأنصف أصحابه فانى أسمى منهم ثلاثة أو أربعة من غير إطالة ولا إملال .

فأما أولهم فصاحب « لسان العرب » ، فقد يظهر أن الأستاذ عند ما أراد أن يبين المعنى اللغوى لكلمة الأدب نقل ما جاء فى فى اللسان نقلا فى غير تحفظ ولا فقه ولا نقد ولا احتياط . نقل ما جاء فى « اللسان » حتى الشواهد نظما ونثرا وحتى وصف البعير بأنه أديب . وربما كان هذا النقل مفيدا . وهو على كل حال حق للأستاذ . ولكن من حق صاحب اللسان أو من حق أصحاب المعاجم أن يشار إليهم إذا نقل عنهم . . . ومن حق القراء أن يعرفوا أن ما يكتبه الأستاذ قد نقل نقلا أو استنبط استنباطا .

وأما الثانى فالمرحوم اليازجى صاحب « مجلة الضياء » . فأنا أذكر أنى كنت أقرأ فى هذه المجلة أيام الصبا ، وكنت أحب هذه المباحث اللغوية التى كان يعرض لها صاحب هذه المجلة ، والتى كان يبين لنا فيها كيف تختلف الكلمات فى حرف واحد يقع أول الكلمة أو آخرها أو فى وسطها فلا يكون هذا الاختلاف دليلا على بعد

ما بينهما فى المعنى وإنما يكون دليلا على تقاربهما فى المعنى كما تقاربت فى اللفظ كوكز ولكز ونكز ووهز وهز . ونهز ، وغمز ولمز وهمز ، ولطم ولكم ولدم ولثم ، ولست أدرى لم نسى اللثم ، فرب لثمة أشبهت لطمة ! وأظن أن من حق اليازجى أن يذكر كصاحب « اللسان » ويخيل إلى أن للأستاذ الشيخ علام زميلا فى دار العلوم هو الأستاذ الشيخ عمر الأسكندرى يذهب هذا المذهب فيما يسميه فقه اللغة ويدرسه درساً مفصلا لتلاميذه ، وأحسب أنه قد أمعن فى هذا البحث إمعاناً قيما فكان من حقه أن يذكر أيضاً

ثم أذكر رجلا آخر كان من الحق أن يذكر ويثنى عليه وهو مصطفى صادق الرافعى ، فقد بحث مصطفى صادق الرافعى فى كتابه عن كلمة الأدب وأطوارها ومعانيها ، ومن الغريب أن الشبه شديد جداً بين بحث الأستاذ الشيخ علام وبحث الأستاذ الرافعى وكل ما بينهما أن الرافعى قرأ اللسان وفهمه ولم يأخذ منه إلا ما احتاج إليه ، وأن الشيخ علام نقل اللسان نقلا فى غير نقد ولا فقه كما قلت ، وأن الرافعى رأى نصوصا تضاف إلى القدماء شك فى صحتها فنفى بعضها وأعرض عن بعضها الآخر . وأن الشيخ علام أخذ هذه النصوص على علاتها فى غير نقد ولا فقه أيضاً ، وأن الرافعى رأى نصاً أضافه صاحب « العقد الفريد » إلى ابن عباس ، وأضافه

الجاحظ إلى حفيد ابن عباس فدرس وآثر رواية الجاحظ عن نقد وفقه ، وأن الشيخ علام لم ينقد ولم يحاول الفقه و إن ردد الرواية بين الرجلين ترديداً دون أن يشعر بالأثر العظيم الذى ينشأ عن صحة إحدى الروايتين لا أقول فى صفحة كلمة الأدب ، بل أقول فى تاريخ العلم نفسه ، فلو صحت رواية العقد الفريد لكان عبد الله بن عباس عالماً بأصول النحو ملما باصطلاحاته قبل أن تتم نشأة النحو .

فأنت ترى أن الأستاذ الشيخ علام ظلم نفسه وظلم طائفة من الذين سبقوه وعاهدوه حين أرسل فصله إرسالا دون أن يسمى من من أخذ عنهم أو سار سيرتهم فى البحث ، وقد علم الله ماأعطف على الرافعى ولا أميل إلى فنه ، ولكنى أحب أن أنصف الرجل وأشهد أن فصله أمتن وأقوم وأدل على الفقه من فصل الأستاذ الشيخ علام .

* * *

وأنا بعد أخالف الرجلين جميعاً فى أصل هذه الكلمة . أخالفهما لأن مذهبهما لا يقنعنى ، فأنا لا أفهم هذه الصلة التى يتكلفانها ويتكلفها من قبلهما أصحاب المعاجم بين لفظ الأدب وبين هذا الفعل المعروف « أدب الناسَ إذا دعاهم إلى الطعام » ولست أريد أن آخذ فى مناقشة لغوية تثقل على قراء « السياسة » وتمل هذا الماكر الذى اضطرنى واضطر الشيخ علام إلى الكتابة فى هذا

الموضوع ، وإنما أقول فى إيجاز إنى أذهب فى اصل هذه الكلمة مذهب الأستاذ نالينو وآخذها من الدأب بتقديم الدال على الهمزة المفتوحة ومعناه العادة والشأن والحال : ولست أرى شيئاً من الغرابة فى أن تكون كلمة الدأب قد استحالت إلى كلمة الأدب فقدمت العين فيها على الفاء نقلا ، ولا سيما إذا لوحظ أن هذا النقل مألوف فى الجمع فقد جمعت الكلمة على أدآب ثم وضعت عينها موضع الفاء فقيل آداب كما قيل آرام وآبار ثم خيل إلى الناس أن كلمة الآداب هذه جمع أدب لا جمع دأب فنشأ هذا المفرد واشتق منه التأديب وأصله فيما يظهر تعليم الناس ما ورث من العادات والسنن ، أى تعليمهم ما ورث من الآداب بتقديم الدال . وأكبر الظن أن كلمة الأدب وما اشتق منها محدثة . أريد أنها نشأت بعد الاسلام لا قبله . وقد لاحظ الرافعى أن هذه الكلمة على خفتها وظرفها لم تستعمل قافية فى الشعر القديم . وأراد الأستاذ الشيخ علام — فيما يظهر — أن يرد على الرافعى من طرف خفى فروى البيت الذى يضاف إلى أم ثواب والذى رواه صاحب الحماسة :

أَنْشَا يُخَرِّقُ أثوابى ويضربنى ‏ ‏ ‏ ‏ أَبعْدَ شَيْبِي يَبغى عندى الأدبا !

وفى البيت رواية أخرى . « أَنْشَأَ يُمَزِّقُ أثوابى يؤدبنى » ، وفيه رواية أخرى : « أبعد شين عندى يبتغى الأدبا » وحسبى أن

تختلف الروايات فى البيت إلى هـذا الحد لا شك فيه ولا أتخذه أساساً للغة

ولست أدرى أوفق الرافعى أم لم يوفق حين قال إن هذه الكلمة لم ترد قافية فى الشعر القديم . ولكن هذا لا يعنينى ، فرأيى فى الشعر الذى سبق الاسلام معروف ، فهو عندى لا يثبت شيئا ولا يصلح دليلا على شىء . فاذا ثبت استعمال الكلمة فى الشعر الذى نظم بعد الاسلام فذلك لا ينقض ما اذهب إليه من أن هذه الكلمة حديثة عرفت بعد القرآن . ومما يرجح هذا أن الأستاذ الشيخ علام نفسه يقول فى شىء من الحزن والرثاء ، إن هذه الكلمة قد أدركتها حرفة الأدب فلم تذكر فى القرآن والحق أنها لم تذكر فى القرآن ، وإنما ذكر فى القرآن الدأْب بسكون الهمزة ومعناه العادة كالدأَب بتحريكها . والأمر لا يقف عند هذا الحد ، بل إن هذه الكلمة لا توجد فى اللغات السامية المعروفة . وإذن فهى كلمة عربية خالصة للعرب دون غيرهم من الشعوب السامية . ونظن أنها من هذه الكلمات التى نشأت عندما تطورت لغة قريش واتسعت هذا الاتساع العظيم بعد ظهور الاسلام .

أنا إذن لا أوافق الرافعى ولا الشيخ علام فى اشتقاق الأَدَبِ من الأَدْبِ بمعنى الدعاء ، ولكنى لا أرى بأساً بما كتب الرافعى فى

كتابه عن معانى هذه الكلمة وأطوارها وأن كان قد أوجز هذا البحث إيجازاً شديدا .

وسواء أكانت كلمة الأدب مشتقة من الأدب أو من الدأب فان الخلاف بين الشيخ علام وبينى لايقف عند اللفظ و إنما يتجاوزه إلى المعنى أيضا . ولست أريد أن أناقش الأستاذ فى المعانى القديمة لهذه الكلمة ولا أن أقف عند هذا الكلام الذى يضيفه إلى النبى وعمر وعلى ومعاوية فى غير نقد ولااحتياط ، وانما أقف عند جملة واحدة أرى أنها تشخص الأستاذ الشيخ علام وأصحابه من أنصار القديم تشخيصا مضحكا . وهذه الجملة هى قول الأستاذ :

« وكل علم من العلوم له غاية ينتهى عندها فتكمل مباحثه إلا هذا العلم وعلم التاريخ فانهما يزيدان كل يوم ولن يزالا فى نمو مطرد » وما كنت أعرف قبل اليوم أن « لكل علم غاية ينتهى عندها فتكمل مباحثه إلا علم الأدب والتاريخ » حتى جاء الأستاذ فأنبأنى بهذا النبأ الغريب الذى هو فصل ما بين أنصار القديم وأنصار الجديد . فنحن نعلم أن الحركة العلمية لن تنتهى من فرع من فروع العلوم إلا يوم يفنى العقل الانسانى ويحال بينه و بين البحث والتفكير ، ولا أعرف علما من العلوم انتهى عند غايته وكملت مباحثه وقيلت فيه الكلمة الأخيرة ، و إنما أعرف أن كل علم قابل لأن يتغير و يتجدد

ويحذف جحودا . وقد كان أهل القرون الوسطى يعتقدون أن علم الفلك قد انتهى عند غايته ، وكملت مباحثه ، وقيلت فيه الكلمة الأخيرة ، ثم جاء من أنبأتم بأن العلم لم يبدأ وإنما هى كرة متنقلة متحركة ، وأن أفلاك السماء لم يستكشف منها إلا أقلها وأضألها . وكانوا يعتقدون أن فلسفة أرستطاليس هى خاتمة الفلسفة وخلاصتها، وكلمتها الأخيرة ، فجاء ديكارت وأنبأهم أن فلسفة أرستطاليس هى بدء الفلسفة لا آخرها ولا وسطها . وكان الناس منذ سنين يرون أنهم قد وصلوا فى الطبيعة والرياضة إلى نتائج علمية بعيد أن تنقض ، فجاء هنرى بوانكاريه ، وابنشتين ، وأظهرا أن نقض هذه النتائج ليس بالشيء العسير .

ولعل الأستاذ الشيخ علام يعتقد أن الأمر فى العلم كالأمر فى النحو عند صاحب الورقة الصفراء الذى كتبت له قواعد فحفظها ، وخيل إليه أنه قد حفظ النحو كله . نعم هذه الجملة تشخص الغلاة من أنصار القديم تشخيصا لذيذا ، فهم يرون أنه يكفى أن يحفظ أحدهم جملا من العلم ليكون قد ألم بالعلم كله . ولعلهم يمتازون بأنهم يؤمنون بأن كل شيء قد انتهى وأقفل بابه ، فلا يمكن أن يضاف إليه ولا أن يزاد فيه . ولقد جاء الأستاذ الشيخ علام بمعجزة حين

استطاع أن يعلن أن الأدب لاينتهى عند غايته ، ولا تكمل مباحثه كما تكمل مباحث العلوم الأخرى . وما رأى الأستاذ إذا قلت له إن النحو لم تكمل مباحثه بعد ، رغم ما كتبه سيبويه وابن خروف وابن عصفور وابن هشام وابن مالك ومن إليهم من أعلام الشرق والغرب الاسلاميين ؟ بل ما رأى الأستاذ إن قلت له إن كل علوم اللغة العربية لم تنته عند غايتها ولم تكمل مبا ، بل هى فى حاجة إلى التجريد واستئناف الدرس ، ولا سيما النحو والصرف وعلوم البلاغة ؟ وما رأى الأستاذ إن قلت له إن الأدب العربى كله محتاج إلى التجديد واستئناف الدرس ؟

هنا يظهر الفرق بين الأستاذ وبينى . ولاظهار هذا الفرق فى الفهم والفقه والمنهج كتبت هذا الفصل الطويل . يرى الأستاذ وأصحابه أن لكل علم غاية يقف عندها . وتكمل مباحثه إلا الأدب ، فهو لا ينتهى عند غايته ، وإنما يزداد فى كل يوم . ونرى نحن أن ليس لعلم من العلوم غاية ينتهى عندها ، وأن لا أمل فى أن تكمل مباحث علم من العلوم . وإنما كل شىء فى العلم قابل للتغير ، واستئناف البحث عنه ، والأدب أشد أنواع العلم قبولا للتغير والتجديد .

وهنا نقف عند تعريف الأستاذ الشيخ علام للأدب وقفة قصيرة ، فهو تعريف قديم يحتاج أيضا إلى التجديد . وأنا أنقل لك

هـذا التعريف الذى يقول عنه الأستاذ إنه موجز وإنه منطقى ، فسترى أنه ليس من الايجاز ولا المنطق فى شىء . قال الأستاذ :

« هو علم مأثور الـكلام منثوره ومنظومه قديمه وحديثه وما يتصل بذلك من أخبار بارعة ونوادر رائعة وملح مستعذبة وطرف مستغربة مع الالمام من كل علم بأمهات مباحثه »

ولست أحفل بهذه السجعات الرائعة البارعة ، فأنا أراها أقرب إلى اللغو منها إلى أى شىء آخر . ولـكنى أبحث عن الايجاز فى هذا التعريف فلا أظفر به . أما المنطق فلنبحث عنه معا . أيهما أديب : من حفظ مأثور الـكلام نظما ونثرا ولقنه الطلاب أم من أنشأ هذا الـكلام المأثور ؟ وأيهما الأدب : حفظ مأثور الـكلام أم إنشاؤه ؟ وإذن فما رأى الأستاذ الشيخ علام فى نفسه ، أأديب هو لأنه يحفظ مأثور الـكلام نثرا ونظما ، ويلقنه للطلاب ، ولـكنه ليس شاعراً ولا ناثرا ؟ وإذا لم يكن شاعرا ولا ناثرا وكان أديبا فما رأيه فى شوقى أأديب هو أم غير أديب ؟ وإذا لم يكن هو أديبا وكان الأديب هو الشاعر الناثر ليس غير ، فما رأيه فى نفسه وأمثاله من الذين يدرسون الأدب ويفرغون له ، وفى أى طبقة من طبقات العلماء يضعهم؟ وفى أى مكانة ينزلهم ؟ ؟ ألا يرى الأستاذ أن تعريفه ليس منطقيا لأنه لا يمنع ولا يجمع ؟ وما معنى قوله علم مأثور الـكلام ؟ وهنا أحب أن

أكون أزهريا ، أيريد العلم بمأثور الكلام فلا يكون هو أديبا لأنه ليس من الذين ينشئون هـذا المأثور ؟ ونحن نستطيع أن ندور مع الأستاذ فى هذه الدائرة إلى غير حد ، ولـكننا نقف و نلاحظ أن تعريف الأستاذ لم يغن شيئا.

* * *

وفى الحق أنى أميل أن أقسم الأدب إلى قسمين : أدب المنشئين وأدب الناقدين الدارسين ، أو قل أدب الكتاب والشعراء وأدب العلماء من المؤرخين والناقدين . فشوقى أديب ، وهو الأديب حقا ، لانه ينتج الأدب إنتاجا ، وهو أديب منشىء ، ولـكنه ليس عالما بالأدب لا يستطيع درسه ولا تصويره ولا تعليمه ولا تأريخه . والشيخ علام أديب ولـكنه ليس أديباً منشئا لانه ليس شاعراً ولا ناثرا ولا صاحب فن وإنما هو حافظ لآثار الكتاب والشعراء يرويها و يلقنها و ينقدها ، يوفق فى ذلك حيناً و يخطئه التوفيق حينا . والأدباء المنشئون يختلفون : فمنهم النابغة الفذ ، ومنهم المتوسط ، ومنهم المسف . والأدباء والعلماء يختلفون : فمنهم المجود ذو الرأى ، ومنهم الآلة الحاكية أو الببغاء .

وأولئك وهؤلاء تختلف مذاهبهم فى إنشاء الأدب ودرسه : فمنهم المقلد ، ومنهم المجتهد المبتـكر ، ومنهم من يذهب مذهب الحرية

ومنهم من يؤثر مذهب الرق ، ومنهم من ينحو نحو الفلسفة ، ومنهم من ينحو نحو النقل والرواية ، وأين هذا كله من التعريف الذي جاء به الشيخ علام من إيجاز ومنطق كما يقول ! ولكني قلت لك منذ حين إن الأستاذ الشيخ علام يمثل أنصار القديم حقاً ، فتعريفه قديم ألم يعتمد فيه على ابن خلدون ؟ وأسلوبه في هذا التعريف قديم ، ألم يسجع كأهل القرن الرابع ؟ ألم يصطنع فيه ألفاظ هؤلاء الناس ؟

الأستاذ وأمثاله ـ كما قلت في الشعر الجاهلي ـ كتب قديمة متحركة أو قطع من كتب وصل بعضها ببعض

ولنفرغ من مناقشة الأستاذ ، ولنجب ما كرنا الظريف وسائله الذي اضطرنا إلى هذا العناء كله . فالأدب عندنا أدبان : أدب إنشاء ، هو هذا الذي ينتجه الكتاب والشعراء من أصحاب الفن . وأدب علم ودرس ، هو هذا الذي ينتجه النقاد ومؤرخو الآداب . والأدب الأول فن كله ، والأدب الثاني مزاج من الفن والعلم . وقوام الأدبين شخصية الأديب التي يجب أن تظهر في كل ما يصدر عنه ظهوراً واضحاً .

وقوام الأدبين أيضاً اتصال الأديب بعصره اتصالا يمكن من تمثيل ذوقه الفني إن كان منشئاً ، وحياته العقلية إن كان ناقداً أو مؤرخا . ليس أديباً منشئاً هذا الذي ينظم الشعر فلا يتجاوز ما قال

القدماء فى اللفظ والمعنى والأسلوب . وليس أديباً ناقداً هذا الذى يدرس الأدب فلا يتجاوز ما قال المبرد والجاحظ وأبو الفرج وصاحب العقد الفريد ، وإنما الأديب المنشىء من يقرأ معاصروه أدبه فيرون فيه أنفسهم وإنما الأديب الناقد من يقرأ معاصروه نقده فلا يشعرون بأن بينهم وبينه بعد ما بينهم وبين القدماء .

وهنا تسألنى : ماذا تصنع بالقدماء ؟ والجواب يسير : أصنع بالقدماء ما صنعوا هم بأنفسهم ، فأنا ألتمس عصورهم فى هذه المرآة ، ولا ألتمس منهم العصر الذى أعيش فيه . ولقد كنت أضرب منذ أيام مثلا للأدباء من أهل مصر : ما رأى أنصار القديم لو طلبنا إليهم أن يهمل ما وصل إليه العلم الحديث فى الطبيعة والطب ، وأن يعتمد فى كليتى العلوم والطب على إشارات ابن سينا وقانونه . أيرضون أم يصيحون ويستغيثون ؟ لا أشك فى أن الأستاذ الشيخ علام يستغيث بالله والناس يوم يعرف أن طب « باستور » و « كلود برنار » قد أهمل ، وأن طبيبه سيعالجه منذ اليوم كما كان يعالج ابن سينا أو الحارث ابن كلدة أو داود الأنطاكى .

ومع ذلك فالأمر فى الأدب كالأمر فى الطبيعة والطب ، لا ينبغى أن يهمل طب ابن سينا وطبيعته لأنهما يمثلان عصراً من عصور الحياة العلمية ، فهما يدرسان على أنهما فصل من تاريخ الطب

والطبيعة ولا يهمل أدب المبرد والجاحظ ، لأنهما يمثلان مظهراً من مظاهر الحياة الأدبية ، فهما يدرسان على أنهما فصل من تاريخ الأدب ولكننا نجدد الأدب درساً و إنشاء كما يجدد الطبيعيون والأطباء طبيعتهم وطبهم عملا ونظراً .

فما رأى الأستاذ الشيخ علام وأصحابه فى هذا الكلام ؟ أما أنا فواثق أنهم ينكرونه الانكار كله ولا يطمئنون اليه . وهم مكرهون على هذا الانكار ، فلو قد قبلوا ما ندعو اليه لما استطاعوا أن يعيشوا . ذلك أنهم غير قادرين على التجديد ، هم يؤثرون القديم ، ومن القديم يعيشون . أما نحن فلا نؤثر القديم ، ولا نؤثر الجديد ، لأننا لسنا فى حاجة إلى أحدهما لنعيش ، و إنما نؤثرهما معاً وندرسهما معاً لأننا لا نبغى إلا العلم ، و إلا العلم خالصاً من كل شىء .

obeikandi.com

٢

خطرات نفس للدكتور منصور فهمى

كنت أتحدث منذ أشهر إلى عالم كبير من علماء الفرنسيين فى مصر ، وكان يشكو إلىّ أن أعماله الادارية تستغرق أكثر وقته وتصرفه عن الدرس ، بل عن متابعة الصحف والمجلات العلمية التى تعنيه ، لأنها تتصل بالمادة التى يدرسها . قال : فاذا كان الشتاء شغل العلماء فى مصر عن علمهم بهذه الحياة الاجتماعية العتيقة المفعمة بالزيارة والاستقبال ، والتى تلتهم آخر النهار وشطراً من الليل فى أكثر أيام الأسبوع . فالعالم فى مصر مضيع للوقت والجهد ، يصرف وجه النهار فى حياة يومية عادية هى قوام عيشه ، وينفق آخر النهار فى حياة اجتماعية خاملة هى قوام مركزه فى الدائرة الاجتماعية التى يدور فيها ، وهو إن فرط فى تلك الحياة الادارية مقصر يتعرض للوم واحتمال التبعات الثقيلة . وإن قصر فى هذه الحياة الاجتماعية أنكرته بيئته ، وأعرض عنه نظراؤه ، واتهم بالكبرياء والفتور والجفوة والاهمال . وكل هذه خصال لا يحب أن يتصف بها الرجل الذى يريد أن يعيش فى مصر هادئاً مطمئناً . فاذا فرغ العالم من حياته الادارية

والاجتماعية فقد انقضى النهار وتقدم الليل ، وينظر فاذا هو أمام حقوق لأهله لم يؤد منها شيئا ، وأمام حقوق لنفسه لم يفكر فيها ، ثم يقهره ضعف الجسم فيؤوى إلى مضجعه يقضى فيه بقية الليل بين أرق مضن ونوم ثقيل . ثم يستقبل غده بمثل ما أنفق فيه أمسه . وعلى هذا النحو تمر الأيام والأسابيع والشهور ، والعالم منصرف عن علمه منهمك فيما لا يجد فيه لذة ولا غناء

قال صاحبى ، وأستطيع أن أؤكد لك أنى إذا خلوت إلى نفسى — وقلما أخلو إليها — وفكرت فى ذلك ضاقت بى الحياة ، وضقت بها ، واستيقنت أن حياة العلماء فى مصر تضحية مؤلمة مستمرة . فالناس فى بلادنا لا يثقلون العلماء بأعباء الزيارة والاستقبال ، ولا يشقون عليهم بالدعوة إلى الشاى والعشاء ، والسيدات لا يتخذن زينة يظهرنها فى غرفات الاستقبال كلما خطر لهن أن يستقبلن أو فى الحفلات الساهرة كلما خطر لهن أن يحتفلن

ولو أن رجال السربون والكوليج دى فرنس اختلفوا إلى غرفات الاستقبال وشهدوا ما يقام فى باريس من حفلات فى الليل وأخرى فى النهار لما كانت السربون والكوليج دى فرنس عقل فرنسا المفكر وقلبها النابض الحساس .

قلت : ومع ذلك فقلما تخلو غرف الاستقبال الباريسية من

عالم أو أديب يلتف حوله السيدات . فيلقين عليه أسئلة حلوة مريحة ، ويسمعن منه أجوبة عذبة مرضية ؛ فيها فكاهة لا تخلو من مرارة ، وفيها جد لا يخلو من سخرية . وأحسب أن الفرق بين فرنسا ومصر إنما هو كثرة العلماء والأدباء فى الأولى وقلتهم فى الثانية . فعندكم من العلماء والأدباء من يفرغون للجامعة ، ويعكفون فى المعامل ودور الكتب . وعندكم من العلماء والأدباء من يشهدون المحافل ، ويزينون المجالس ، ويرضون حاجة السيدات إلى المفاخرة بمن يحضر يوم استقبالهم من رجال العلم والأدب والحرب والسياسة والقضاء . أما نحن فالمستنيرون عندنا قليل فضلا عن العلماء والأدباء المتميزين . فليس عجيبا أن تشق الحياة على الظاهرين من علمائنا وأدبائنا ، وأن تتخطفهم المجالس وتتنافس غرف الاستقبال أيها يزدان بأكبر عدد ممكن منهم.

قال صاحبى : ليكن مصدر ذلك ما تحب أن يكون ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أن نتيجة ذلك ثقيلة مؤلمة . فلو قد رأيت ما يجتمع فى مكتبى من الصحف والمجلات والرسائل والكتب التى تنتظر أن أقرأها لراعك الأمر . وجاءت سيدة ففرقت بين صاحبى وبينى بابتسامة عذبة ومزاح ظريف .

كنت أفكر فى هذا الحديث منذ أيام حين كنت أستعد للسفر وحين كان صاحبى يسألنى عما أريد أن أصطحب من كتب ،

فتأخذنى حيرة لا أ كاد أصفها ولا أصورها .

فقد انقضى العام ولم أقرأ شيئا . هذه كتب قديمة طبعت واستخرجت من دور الكتب فى الشرق والغرب ، ومن الحق على لنفسى أن أقرأها أو أنظر فيها ، وقد كنت أتحرق شوقا إليها قبل أن تقدمها إلىَّ المطبعة وتجعلها يسيرة قريبة المنال . وهذه مقالات نشرها العلماء المستشرقون فى مجلاتهم المختلفة ، ومن الحق على أن أقرأها أو ألم بها لأعرف ما يقول الزملاء فيما أفرغ لدرسه من العلم . وهذه مقالات نشرها الأدباء المعاصرون فى مصر ، وحفظها صاحبى لأقرأها متى أتيح لى الوقت ، فمن الحق على أن أعرف ما يقول المعاصرون من المصريين والشرقيين لأعيش على بصيرة وفهم للعصر الذى أحيا فيه . وهذه كتب ألفها فلان وفلان من الأصدقاء أو من الأدباء المتميزين ، ومن الحق على لنفسى ولهؤلاء الأدباء أن أقرأ ما يكتبون لأحيا على أقل تقدير حياة الرجل المثقف الذى يلم بما يظهر حوله من فكرة أو رأى أو مذهب . كل هذا مجتمع فى مكتبى وصاحبى يسألنى عما أحب أن أحمل منه إلى أوربا . ومهما تكن رغبتى فى القراءة شديدة أثناء هذه الرحلة فأنا أحب أن أقرأ ما سأجده فى أوربا من كتب وصحف . وأنا لا أذهب لأوربا للقراءة وحدها وإنما أريد أن أستريح وأن أرفه على النفس ، أطوف فى

الأرض وأشهد الملاعب وأسمع للموسيقى والغناء ، فالطاقة محدودة ، والوقت محدود ، وهذه زوجي تلفتنى إلى أن الحقائب محدودة أيضا ، وإلى أنها لم تصنع لتفعم بالكتب ، وإنما صنعت لتوضع فيها الثياب ، وما يحتاج إليه المسافر من أدوات ليس إلى الاستغناء عنها من سبيل. وهى تحدد ما أستطيع حمله من كتب على أن يوضع بعضه فى هذه وبعضه فى تلك ويحمل صاحبي بعضه الآخر فيضعه فى حقيبته . وأنا أضيق بهذا كله فأكره الاقامة والسفر وأمقت الجد والكسل ، ثم أخرج عن طورى فأفرض كتبا لابد من حملها مهما يكن من شيء ، وأترك لزوجى وصاحبى أن يتخيرا بعد ذلك ما يشاءان وما تتسع له حقائبهما من هذه الكتب المكدسة .

وقد وصلت الآن إلى فينا ، واستقر بى المقام فيها أنتظر مؤتمر المستشرقين ، وأنا أسأل صاحبي : ماذا حملت من كتب المعاصرين فيجيب مبتسما : لقد حملت ما تحب أن تقرأ : حملت كتاب التراجم لهيكل ، وحملت كتاب البهاء زهير لمصطفى عبد الرازق ، وحملت كتاب خطرات نفس لمنصور فهمي . لقد وفقت إلى حسن الاختيار ولكن ألم تحمل مصرع كليوباتره لشوقى ؟ قال صاحبى دهشا : وَلِمَ أحمله وقد قرأته فى الصيف الماضى ؟ وأنكرت من صاحبى إهمال هذا الكتاب ، فقد كنت أحب أن أعيد النظر فيه ، وأنكرت جوابه

فقد كنت أحب أن أتحدث عن هذا الكتاب إلى الناس ، ولكن لا بد مما ليس منه بد . فلأقرأ ما بين يدى ، ولأبدأ بآخر هذه الكتب ظهوراً وهو خطرات نفس . ولست حديث عهد بهذا الكتاب فقد تبعته منذ نشأته الأولى وسايرته نحو خمس عشرة سنة حين كانت فصوله المختلفة تنشر فى الصحف شيئا فشيئاً ؛ فأرى بعضها قبل أن يظهر ، وأرى بعضها مع غيرى من القراء . وكنت من الذين طلبوا إلى منصور أن يجمع هذه الفصول فى سفر مستقل كما نفعل جميعاً حين نؤلف من فصولنا التى تنشرها الصحف أسفاراً تجمع متفرقها ، وتسهل على الناس قراءتها والرجوع اليها . وإذا كان صديقنا منصور حريصاً على أن يجمع خطرات نفسه لأنها تمثل صباه وشبابه ، وهو يحب أن يرجع إلى ماضى حياته ليحب مافيه من ذكرى ، فان أصدقاءه يحرصون على مثل ما يحرص عليه لأنهم يحبون أن تجتمع لديهم حياة صديقهم فى صباه وشبابه وكهولته . فيقفوا عند هذه الحياة وقفات فيها حب ومودة ووفاء ، وربما كان فيها عتب وخصومة واختلاف فى الرأى فمهما يكن الكاتب مستقلا قوى النفس عظيم الشخصية ، فهو متصل ببيئته ، متصل بمعاصريه يلائمهم أحياناً فيرضون وينافرهم أحياناً أخرى فينكرون . وكذلك حياة الأديب فى كل بيئة وفى كل جيل : هو مخدوع ، يحسب أنه

يكتب لنفسه لأنه يحس من العواطف والأهواء ما لا يجد بداً من إعلانه ، فهو يرفه على نفسه حين يكتب أو ينظم الشعر ، ولكنه في حقيقة الأمر يكتب للناس ، ذلك بأنه كائن اجتماعي محتاج إلى أن يعطي الناس ، ويأخذ منهم فهو لا يستطيع أن يكتفي بما يحس في نفسه ، بل لا بد له من أن يشرك الناس فيما يحس .

وقد يوفق إلى ما يريد فيشاركه الناس فيما يحس ويرى ، وقد لا يوفق فلا يشاركه منهم أحد أو لا يشاركه منهم إلا القليل .

ويخدع الأديب نفسه من ناحية أخرى حين يألف الاذاعة والنشر ويحس من الناس ميلا إليه ، ورغبة في آثاره ، فيمضي في الاذاعة والنشر معتقداً أنه يكتب للناس ، وهو في حقيقة الأمر يكتب لنفسه لأنه أحب رضا الناس عنه ، وميلهم اليه وكلفهم به ، فهو يستزيد حين يكتب من هذا الرضا والميل والكلف . فاذا زعم الأديب أنه يكتب لنفسه وحدها فهو مخطىء . وإنما الحق أنه حين يكتب يؤدي عملا اجتماعياً فيه له وللناس لذة ومتعة . ومهما يكن إلحاح الملحين على أخذنا في جمع ما تفرق من آثارنا ، ومهما يكن ترددنا في الاستجابة لهذا الالحاح ، فان الأسباب التي دعتنا إلى نشر فصولنا في الصحف هي بنفسها التي تدعونا إلى أن نؤلف من هذه الفصول

أسفاراً تذاع مرة أخرى فى المكتبات بعد أن أذيعت فى الصحف اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية .

وبينما كنت أقرأ هذه المقدمة الظريفة التى قدمها منصور بين يدى هذه الخطرات فى طورها الجديد لفتتنى حاشية قرأتها مرة ومرة فأنكرتها بعض الشىء ، ذلك أن صديقنا يزعم فيها أنه لم يغير من فصوله شيئاً إلا ما كان من إعراب لفظ أو تصحيح آخر ، وأنه قد عهد فى ذلك إلى الأستاذ صادق عنبر فتولاه عنه ، وهو يشكر للأستاذ هذا الفضل شكراً جميلا .

واشتد إنكارى لهذه الحاشية حين أظهرنى صاحبى على فصل لصديقنا هيكل لم يكد يتجاوز فيه هذه الأسطر من كتاب منصور . فقد وقف عندها وقفة طويلة يسجل على نفسه وعلى منصور وعلى الكتاب المصريين ضعفاً ظاهرا فى اللغة العربية وقصورا عن إحسان الانتفاع بها واعترافاً بهذا القصور . وأنا أعترف بأنى لم أفهم هذه الحاشية . فلو قد كان صديقنا منصور معترفاً بضعفه فى العربية مكبرا لها لعرض فصوله على الأستاذ صادق عنبر أو على غيره ليعرب ألفاظها ، ويصححها قبل أن يدفعها إلى الصحف ولكنه لم يفعل ، فهل أحس هذا الضعف واعترف به حين أراد أن يجمع هذه الفصول فى كتاب ؟ وأغرب من هذا أن نقرأ الفصول مجموعة فلا نجد فرقا

لغويا بينها فى هذا السفر وبينها فى الأهرام والسفور : ففيها ما فيها من صواب لغوى كبير وخطأ لغوى قليل يغفر لمنصور لأنه لم يزعم لنفسه فى يوم من الأيام تفوقا فى اللغة أو عصمة من الخطأ فيها ، وإنما عرفته دائماً يأسف لأنه لم يظفر من اللغة بما كان يريد .

فى هذه الفصول مجموعة أغلاط لغوية كانت فيها متفرقة ، ولم يصححها الأستاذ صادق عنبر ولم يعربها لأنه لم يكلف تصحيح اللغة ولا إعرابها ، وإنما كلف تصحيح التجارب المطبعية طبقاً للأصل الذى دفعه إليه المؤلف ، فأحسن الأستاذ صادق عنبر هذا التصحيح ، وإلا فكيف ترك الأستاذ صادق عنبر الذراع مذكرة تذكيرا لا يحتمل الشك فى صفحة ٣٢ ؟ وكيف ترك الأستاذ صادق عنبر فى صفحة ٨٣ هذا الاستعمال العددى الذى لا يخلو من غرابة وهو « من نيف وعشر سنين » وأنا لا أذكر هذين المثلين إلا لأثبت أن الأستاذ صادق عنبر لم يعرب ألفاظاً ولم يصحح أخرى ولم يطلب إليه منصور ذلك ، وإنما صحح تجارب المطبعة ، فأراد منصور أن يشكره هذا الجهد ، فأسرف فى التعبير كما أسرف صديقنا هيكل فى استنباط ما استنبط من هذه الحاشية .

وبعد ، فمن الحمق أن نقف عند ما يمكن أن يوجد فى كتاب منصور من انحراف قليل عن طريق العرب فى التعبير ، فليس منصور

صاحب ألفاظ ولا هو يزعم لنفسه ذلك ، وإنما هو صاحب معان غزيرة غنية ، وخطرات قيمة خصبة . وأنا أريد فى هذا الفصل أن أقف عند هذه الخطوات وقفة قصيرة ، لأحقق إلى حد ما ، هذه الشخصية الأدبية التى تمثلها وهى شخصية صديقنا منصور .

ليست هذه الشخصية قوية إلى حد الطغيان ، وليست ضعيفة إلى حد الفتور ، وليست هادئة إلى حد الاطمئنان ، ولكنها شخصية ثائرة جامحة ، دون أن يكون فى ثورتها أو جموحها هذا العنف الذى لا يذر شيئاً أتى عليه إلا دمره تدميرا . فصديقنا منصور ثائر ولكنه لا يحطم شيئاً ، جامح ولكنه لا يلبث أن يعود ويطمئن إلى ما يطمئن إليه الناس . هو ثائر ماهر يستطيع أن يخترق الزجاج وينفذ منه إلى ما وراءه دون أن يحطم أو يحدث فيه صدعا . ذلك لأنه ينفذ منه ببصره لا بجسمه . وإذا شئت التعبير الدقيق فقل أنه يرى التجديد ويحبه دون أن يقدم عليه ، لأنه يؤثر العافية ويفضل الانتظار . وليس فى ذلك شىء من الغرابة : فصديقنا منصور شديد التأثر بفريقين من الفلاسفة : أحدهما فلاسفة القرن الثامن عشر فى فرنسا ، والآخر فلاسفة الاجتماع فى آخر القرن الماضى وأول هذا القرن الذى نحن فيه : فأما الفريق الأول فأنت تعلم أنهم أعدوا الثورة

obeikandi.com

الفرنسية ولم يشهدوها، ولو شهدوها لنفروا منها نفوراً شديداً . وأنت تعلم مقدار ما كان من الفرق بين الحياة العقلية والشعورية والحياة العملية لروسو وفولتير . وأما الفريق الثانى فأصحاب علم وملاحظة، لايعنون إلا بأن يلاحظوا ويستنبطوا ويتركوا للحوادث طريقها إلى إنشاء التاريخ .

والغريب من أمر صديقنا منصور أنه تأثر بفيلسوفين مختلفين اختلافاً شديداً : أحدهما روسو وهو صاحب الشعور الدقيق والعواطف الحادة والمزاج المضطرب والخيال الخصب ، والآخر دوركيم وهو صاحب العقل المستقيم والمنهج العلمى الدقيق وأبعد الناس عن التأثر بالعاطفة والخضوع للشعور ، فهو يدرس الجماعة كما يدرس صاحب الحيوان والنبات فى معمله .

وأثر روسو فى الخطرات أشد وأظهر من أثر دوركيم . فالخطرات حديث العواطف ، وهو حديث وجه إلى الكثرة من الناس . فلا ينبغى أن يكون حديثاً علمياً يخاطب العقل الخالص ، لان هذا العقل الخالص لا يوجد فى الشوارع ، وإنما يوجد فى المكاتب المغلقة ، ولم يتحدث منصور إلى أهل المكاتب المغلقة . وإنما يتحدث إلى الناس الذين يغدون ويروحون ويمشون فى الأسواق ويختلفون إلى الأندية والملاهى .

ولو أنى أردت أن أحدد تأثير روسو فى خطرات منصور لأشرت إلى هذا الطموح الظاهر إلى مثل أعلى من الخير يلتمسه منصور كما كان يلتمسه روسو فى الطبيعة الحرة الساذجة التى لم تفسدها الحضارة ، ولم يمسخها التكلف ، والتى يجدها فى الريف ، وفى بعض الطبقات من الناس . ثم لأشرت إلى العاطفة الدينية فى خطرات منصور ، فهى قوية جداً تبلغ التصوف أحيانا ، ولكنها غريبة جداً لا تكاد توفق إلى تحديدها : فيها من الاسلام وفيها من الروح اليونانى ، وفيها من الروح المصرى القديم ، وفيها من مذهب وحدة الوجود .

وأنت تستطيع أن تجد هذا كله فى الفصول التى كتبها منصور حين رحل إلى بلاد اليونان سنة ١٩٢٣ ووقف على الأكرو بوليس متأثراً بوقفة رينان [١]

على أن هنالك فرقا عظيما جداً بين رينان ومنصور حين وقف فى الأكرو بوليس ، فقد كان رينان أديباً وفيلسوفا ومؤرخا . أما منصور فكان أديباً وفيلسوفا ليس غير . وكم كنت أحب أن يقرأ شيئا من تاريخ اليونان قبل أن يذهب إلى أتينا . فهناك فصل أسفت له أشد الأسف ، ولو استشارنى منصور لأشرت عليه بحذفه ، لا لضعف فى معناه أو لفظه

---

(١) قبلته وصلاته الى الالهة اليونانية أثينا . والواقع أن العاطفة الدينية فى هذه الفصول متأثرة بهذا التدين الغريب الذى كان يظهره رينان . والذى لم يكن رينان نفسه يستطيع تحديده

فهو قوى المعنى جيد اللفظ [1] ، ولكن لبعده عن الحق ولأنه أراد أن ينصف آلهة المصريين القدماء فظلم آلهة اليونان ظلماً شديداً . عنوان هذا الفصل هو « وقفة بالحصن المقدس ـ العرق دساس » أراد منصور أن يتقرب إلى إلٰهة الحسن فى أتينا ، وما أشك فى أنه أراد الالٰهة أتينا نفسها ، وإن كانت عنايتها بالحسن أقل مما ظن منصور بكثير . إنما أفروديت هى التى كانت تعنى بالحسن ، ومع ذلك فالصورة التى تخيلها منصور من الحسن ليرضى الالٰهة اليونانية بعيدة كل البعد عما يرضى إلٰهة اليونان ، قريبة كل القرب إلى ما يرضى الغانيات فى القاهرة أو باريس . فقد أراد منصور أن يتجمل بأحسن ثيابه ، ويرجل شعره ويصلح من شاربيه ، ويتعطر بأحسن الطيب ، ويضع فى صدره زهرة غضة ، ويرسل عليه سلسلة ذهبية ، ويضع فى أصبعه خاتماً يتألق ، ثم ذهب يشترى عصا ، وبينما التاجر يعرض عليه أظرف ما عنده من العصى رأى عصا تمتاز بالمتانة والصلابة والشده فآثرها ، لأنه ذكر المصريين وآلهتهم وأنهم كانوا يمتازون بالقوة والمتانة فانصرف اليهم وانحرف عن الالٰهة اليونانية معتذراً إليها لأنه من قوم كانوا يؤثرون القوة ولم ينس منصور إلا شيئاً واحداً ولكنه عظيم الخطر جداً ،

---

(١) وقد اختاره الأستاذان كمفير وطه الخميرى نموذجا لكتابة منصور فى سفر يعدانه باللغة الانكليزية عن الكتاب المعاصرين

وهو أن إلٰهة أتينا كانت إلٰهة الحكمة من ناحية و إلٰهة الحرب من ناحية أخرى ، وأنها خرجت من رأس أبيها كأقوى ما تكون سلاحاً واستعداداً للحرب ، وأظن أن إلٰهة الحكمة والحرب لاتنقصها المتانة والقوة . ذلك إلى أن إلهة الحسن نفسها وهى أفروديت كانت عند اليونان قوية شديدة البأس ، دافعت عن طروادة فأحسنت الدفاع وكادت تنتصر . فأنت ترى أن جمال هذا الفصل قد ذهب لأن كاتبه لم يكن مؤرخا حين كتبه .

ولْأَعُدْ إلى ما كنت فيه من وصف العاطفة الدينية فى خطرات منصور ، فقد قلت إنها قوية حادة وإن فيها من الديانات المختلفة والمذاهب الفلسفية ما يذكر برينان . ويكفى أن تنظر إلى هذا الفصل الذى يشبه فيه الجمال بالله و بالقوة الخفية لأنه يعرف بآثاره دون أن تدرك حقيقته ، لتحس من قوة هذه العاطفة وسعتها ما يثبت صحة ما أقول .

ولروسو تأثير آخر فى خطرات منصور كاد يجعله كاتباً بارعا من الوجهة اللفظية لولا أنه لم يدرس اللغة العربية درساً عميقاً . ذلك أن روسو قد بث فى نفس منصور قوة غريبة تكرهه على أن يظهر ما يشعر به قويا كما يشعر به ، أى فى قوة وعنف ، فيحمله ذلك على أن يخترع صوراً من التعبير ليست مألوفة ، وكانت خليقة أن تبقى

وتؤرخ عصراً من عصور اللغة لو استقامت لصاحبها طرق التعبير ، ولو أنه تأنى وتمهل ولم يخرجها عجلان مسرعا . وأنت تجد صورة قوية من هذا فى الفصل الذى كتبه يودع به العام ، فأخذ يفكر و يستعرض الحوادث و ينتظر آخر لحظة فى السنة ، حتى إذا أخذت الساعة تدق خيل إليه أن كل دقة من دقاتها تحصى أثراً من آثار العام ، فأعلن بهذه الصورة الغريبة الطريفة التي كادت تكون بديعة لولا أنه تعجل ولم تستقم له اللغة فأصبحت صورة مضحكة ، أو داعية إلى الابتسام . وأنا أنقلها لك لترى صحة ما أقول : —

تن . . . سخرت من الغافلين حتى صحوا من الشدة والمحن . .

تن . . . أغريت الانسان بالذهب الوهاج فتهافت على ناره كما يتهافت على النور الفراش . . .

تن . . . جعلت فى الناس والأمم من يعملون لقتل الضعيف ولو كان بريئا . . .

تن . . . آويت اللص وسترت الخديعة ، وكثيرا ما أعليت الباطل على الحق . . .

تن . . . نفرت بين قلوب ، وأشعلت ضغائن ، وأثرت فتنا . . .

تن . . . صرفت الناس عن وجهك يا الله ليمدوا إلى الأثرة والشهوات . . .

تن . . . تمخضت بآراء وقدمت عظات وعبرا ، ولكن الناس لا يفقهون . .

تن . . . أحرقت أفئدة وأجريت دموعاً وشربت دماء . . .

تن . . . كم من صحيح أضعفت . . . وكم من عزيز أذللت . . وكم من عليل داويت . . .

تن . . . جردت أشجاراً من ورقها الأصفر الجاف . . وأبدلتها منه ورقا جديدا . . وجعلت عليها زهرا نضيرا . .

تن . . . صرفت العاشقين وهم في سكرات القبل عن مرارة العيش ، ثم أخذتهم أخذ الجبار فبدلت هناءهم تعساً . وبدلت سعادتهم شقوة وجحيما . . .

تن . . . لبيك اللهم لبيك . . »

هذه الآثار القوية المختلفة التي تركها روسو في نفس منصور جعلت منه كاتبا ، ليس كغيره من الكتاب المعاصرين ، نزعته الفلسفية فى جوهرها غريبة بعض الشيء لأنها لا تلائم العصر الذى نحن فيه ، ولكنها فى شكلها وظاهرها مألوفة يحبها الناس لأنها سهلة تدعو فى يسر ولين وقوة إلى الخير ، وإلى الفضائل التى أحبها الناس وألفوا حبها ، تدعو إلى الرحمة والاشفاق والبر والحنان والوفاء وما إلى ذلك من الفضائل الاجتماعيــة والفردية . ولا بد هنا من

الاشارة إلى ناحية أخرى لا تتم بدونها شخصية منصور وهى شرقيته ، فمنصور مؤمن بالرابطة الشرقية إيمانا قويا قديما ، لعله يعتمد على الوراثة والمزاج الفطرى أكثر مما يعتمد على الروية والتفكير العقلى . والذين يعرفون صديقنا منصوراً يشكون فى أن أشد الأوتار التى تتألف منها نفسه حسا واضطرابا وترديداً لأصداء الحياة إنما هو حبه للشرق وفناؤه فيه .

كان شرقيا حين كان طالبا للعلم فى باريس ، كان يألف الشرقيين أكثر مما يألف الغربيين ، كان يألف الشرقيين على اختلافهم ، كان يألف أبناء الشرق القريب من العرب والترك ، وكان يألف أبناء الشرق الأوسط من الفرس . وكان يحس من نفسه ميلا لايخلو من حنان إلى أبناء الشرق الأوروبى من الروسيين والبولونيين . ثم عاد إلى مصر ، فلما ضاقت به واضطر إلى الرحيل عنها نفى نفسه إلى الشرق ، فهاجر إلى قسطنطينية وأقام فيها حتى ردته الحرب إلى وطنه . فعاد إليه شرقياً كما تركه شرقياً . ولم يكد يشترك فى الحياة الاجتماعية الظاهرة حتى كان نشاطه قويا عنيفاً يكاد يبلغ التعصب فى إنشاء الرابطة الشرقية وتأييدها ، وهو الآن من أقطابها الظاهرين . وهو فى هذا كله يصدر عن العاطفة والوراثة أكثر مما يصدر عن الروية والتفكير . وقد أثرت شرقيته هذه فى خطرات نفسه كما

أثرت فى حياته العملية وصلاته الاجتماعية فهو فى الخطرات شرقى ، لولا الحياء وخشية أن يوصف بالرجعية لآثر القديم الشرقى على الجديد الغربى فى غير تحفظ ولا احتياط . وأحسب أنه سينتهى على مر الزمن إلى هذا الموقف فيصبح محافظا مسرفا فى المحافظة . وهو فى صلاته الاجتماعية قريب من بيئة المحافظين المعتدلين الذين لا يكرهون التجديد ، ولكنهم لا يقدمون عليه إلا فى استخياء . وهو يعد بين الأزهريين أصدقاء يحبهم ويحبونه ويميل اليهم ويكلفون به . وقد لاحظ الأستاذ حبيب هذه الخصلة فى صديقنا منصور ومصطفى عبد الرزاق . فأشار فى بحثه الأخير عن المعاصرين من أدباء مصر إلى أنهما يستمتعان برضى البيئات المحافظة .

أما أثر علماء الاجتماع المعاصرين فى منصور فلا يكاد يظهر فى الخطرات إلا حين يتحدث منصور عن الجماعة ، فنراه يفهمها ويصفها على نحو ما كان يفهمها ويصفها دوركيم . ولكنى قلت آنفا إن صديقنا لم يتحدث فى الخطرات إلى العلماء ، وإنما تحدث إلى الكثرة من الناس فلم يكن من اليسير أن تصور الخطرات حياته العلمية وهو بخيل إلى الآن باظهار هذه الحياة العلمية فى كتاب ينشره على الناس ، وهو يزعم فى تواضع فلسفى أنه لا يحب أن يظهر هذا الكتاب حتى يتم نضجه العقلى ، كأنه يريد أن يخيل إلى الناس

أن عقله لم ينضج بعد ، ولكن أصدقاءه وطلابه فى الجامعة لا يطمئنون إلى هذا التواضع ، ولا يسحرهم هذا الخيال ، فهم يتمنون على الأستاذ أن يفرغ لهم قليلا وأن يبيح لهم شيئاً من آثار عقله الذى تم نضجه منذ دهر طويل .

أثارت الخطرات فى نفسى هذه المعانى ، ولما أقرأ منها إلا نصفها أو ما دون النصف . ولست أدرى متى أقف لو انتظرت بكتابة هذا الفصل أن أقرأ الكتاب كله . وأنك ترى معى أني قد أطلت وأسرفت فى الاطالة . فلا تم وحدى قراءة هذا الكتاب القيم .

فينا (يونيو سنة ١٩٣٠)

obeikandi.com

٣

ديكارت

شيخان من أنصار القديم قرءا كتاب « الشعر الجاهلي » الذي أذعته منذ أسابيع . وكانا قد سمعا به قبل أن يظهر ، وكانا قد أزمعا الرد عليه بعد ظهوره . فلما ظهر الكتاب قرءاه كله أو بعضه ، فاعترضهما فيه اسم ديكارت ومنهجه الفلسفي . والله يصرف الكون كما يريد ، ويجري الأقدار فيه كما يحب ، وقد أراد الله أن يظهر اسم ديكارت وفلسفته منذ ثلاثة قرون وأن يطبع العصر الحديث كله بطابع ديكارت ، وأن يتغلغل تأثير ديكارت كاسم أرسططاليس عنواناً لطور من أطوار الحياة الانسانية العامة التي تلزم الأجيال مهما تختلف بها الأزمنة والأمكنة . أراد الله هذا كله ، وأراد معه شيئاً آخر هو أن يظل ديكارت مجهولا عند طائفة من شيوخ الأدب في مصر ، لا يعرفون اسمه ولا مذهبه ، ولا يدرون كيف يؤكل ، وإن دروا كيف تؤكل الكتف ، ولا يعرفون كيف يشرب ، وإن عرفوا كيف تشرب القهوة والشاي ، وكيف يشرب الخروب والعرقسوس . وإذا أراد الله أمراً فلا مرد له . وليس لنا أن نذعن للقضاء ونصبر لجهل شيوخ الأدب العربي اسم ديكارت وفلسفة ديكارت في العصر الذي

يحرص الانسان فيه على أن يعلم كلما استطاع أن يعلم .

ومن غريب الأمر أن شيوخ الأدب القديم يرون ويكتبون كما كان يرى الأدباء القدماء ويكتبون : أن الأديب « هو من يأخذ من كل شيء بطرف » كذلك قال شيخ الأدب فى دار العلوم ، وإنما أريد الأستاذ الشيخ علام ، قال ذلك فى « السياسة » منذ أسبوعين ، ولم يكن فى ذلك مجدداً ، وإنما كان يحكى القدماء ويرددهم . وقد كان المبرد حريصا كل الحرص على أن يأخذ الأديب من كل شيء بطرف ، وظهر ذلك فى كتاب الكامل ظهوراً واضحاً حتى أنك لترى فيه بابا قال المبرد فى عنوانه : « باب نذكر فيه من كل شيء شيئاً » وكتب الأدب العربى القديمة كلها قائمة على هـذا النحو من تصور الأدب والأديب ، والأستاذ الشيخ علام وأصحابه يرون رأى القدماء ، ويكتبون أن الاديب يجب أن يلم من كل شيء بطرف ، ولكنهم لا يلمون من كل شيء بطرف ، بل يجهلون ديكارت وفلسفته وأثره البعيد فى حياة العقل والشعور كما قلنا

وهم يجهلون ناساً آخرين غير ديكارت ، وأشياء أخرى غير فلسفة ديكارت ، ولكنهم مع ذلك يرون أنهم أدباء ، وأنهم قد ألموا من كل شيء بطرف . ومعذرتهم فى هذا قائمة : فديكارت ليس شيئا وفلسفته ليست شيئاً ، والحق عليهم أن يلموا من كل « شيء » بطرف . فأما

ما ليس « شيئا » فلاينبغى أن يلموا منه بقليل ولا كثير . فاذا أردت أن تعرف لم لا يكون ديكارت شيئا من الأشياء ، ففى جواب ذلك قولان : أحدهما أن الشىء الذى ينبغى أن يلم الأدباء بطرف منه هو الشىء الرسمى الذى اشتمل عليه برنامج التعليم الرسمى فى وزارة المعارف . فعلى الأديب أن يلم بعلوم العربية وأن يلم بالرياضيات والطبيعيات . وليس فى البرنامج الرسمى لوزارة المعارف ذكر ديكارت ولا فلسفة ديكارت . وإذن فهما ليسا فى الورقة الصفراء . . . . . وإذن فليس الأديب مكلفا أن يلم منهما بطرف لأنهما ليسا شيئا .

هذا أحد القولين : وهناك قول آخر وهو أن الشىء الذى ينبغى أن يلم الأديب منه بطرف هو الشرقى القديم . . . أستغفر الله العظيم وأتوب إليه ، بل هو العربى القديم . مصر الفراعنة ليست شيئا ، ومصر اليونان والرومان ليست شيئا . وليس الأديب مكلفا أن يلم منها بطرف ، وأقسم ما يعرف الأستاذ الشيخ علام وأصحابه لها طعما . . . أستغفر الله العظيم وأتوب إليه ، بل الشىء هو العربى القديم الذى لا يتجاوز بلاد العرب والشام والعراق فى العصور العربية الأولى والأندلس فى بعض عصورها الاسلامية . فأما مصر الفاطميين والمماليك ، فأما أفريقيا الشمالية فليست شيئا وللأدباء أن يجهلوها ، وهم يجهلونها باذن الله . وإذن فأوروبا ليست شيئا . وإذن فديكارت ليس شيئا

وفلسفته ليست شيئاً . وجهل أوروبا وديكارت وفلسفته ليس من الأمور التي تعاب على الأديب . ورحم الله شيخاً من شيوخنا في الأزهر أراد أن يرفع في يوم من الأيام ظلامة إلى المحافظة فلم يستطع أن يكتب ما كان يريد ؛ فاستعان عليه بأحد « أبناء المدارس » معتذراً أو مفاخراً بأنه لا يحسن مثل هذا السخف الجديد . فلشيوخ الأدب أن يعتذروا أو أن يفاخروا بأنهم يجهلون ديكارت وفلسفته لأنهما ليسا شيئاً ، ولأن من السخف أن يضيع الأديب وقته في درسهما ، وخير من ذلك وأجدى أن ينكب الأديب على فقرة من فقرات الحريري ، أو مقامة من مقامات البديع ، أو بيت من شعر امرىء القيس

ولكن حظ الأديب سيء أبداً ، وانت لم تنس بعد حرفة الأدب التي قتلت ابن المعتز ، ونتفت لحية الحريري ، وحالت بين لفظ الأدب وبين الورود في القرآن ، فالأدب لذيذ ولكنه شؤم على أهله . ومن شؤم الأدب على الأدباء أن كتاباً ظهر في هذه الأيام يقال له « الشعر الجاهلي » ويجب على الأدباء أن ينقدوه وينقضوه ويهدموه ويهدموا كاتبه ، ويتقربوا بهذا النقد والنقض والهدم الى الله أو . . إلى الشيطان . وقد أقسموا ليفعلن . وقد بدءوا يفعلون فما هي إلا أن اعترضهم هذا الشجي وهو اسم ديكارت وفلسفة ديكارت .

والحق نقول إن موقفهم بازاء هذا الاسم والفلسفة كان بديعاً

لا يخلو من فكاهة وظرف . فأما أحد هذين الشيخين اللذين ذكرتهما في أول هذا الفصل واللذين أهدى اليهما هذا البحث فقد كتب في تواضع يشبه الكبرياء أنه لا يعرف ديكارت ولا مذهبه ، وأنه يظن أو يرجح أن مذهب ديكارت قريب من المذاهب الاسلامية ، وأن صاحب « الشعر الجاهلي » قد حرف هذا المذهب لحاجة في نفسه أو كما قال الشيخ ، وأما الآخر فعزيز عليه أن يتكبر أو يتواضع على هذا النحو . وهو قد تعود أن يستغل الرافعي واليازجي والسكندري وابن مكرم دون أن يذكرهم أو يشير اليهم ، فلم لا يستغل في أمر ديكارت حياً أو ميتاً يشبه هؤلاء ؟ وقد بحث بين الأموات فلم يجد وبحث بين الأحياء فلم يجد من كتب عن ديكارت أو أشار اليه ، وهو لا يعرف لغة ديكارت ولا لغة أجنبية أخرى . واذن فليلجأ إلى أحد الذين يعرفون لغة من هذه اللغات ليقص عليه أمر ديكارت ، ويلخص له فلسفته ، حتى اذا استقام له ذلك في صفحات أو أسطر تكلم عن ديكارت وفلسفته كلام العالم المحقق ، وأثبت لصاحب « الشعر الجاهلي » أنه لا يفهم ديكارت ولا يحسن تخريج مذهبه الفلسفي . وكان قد تفوق على زميله الذي يكتب في « الأهرام » فعرف من أمر ديكارت وفلسفته مالم يعرف هذا الشيخ المسكين

وأنا أحد الذين يعرفون لغة أجنبية وأحد الذين يحسنون لغة

ديكارت ، وأحد الذين قرءوا كتب ديكارت ، وأحد الذين قرءوا ما كتب عن ديكارت . وأنا أريد أن أهدى إلى الشيخين بحثاً عن حياة ديكارت وفلسفته ليتما به أدبهما و يستعينا به على هدم كتاب الشعر الجاهلى، والتهام صاحب هذا الكتاب التهاما . وأنا مخلص فيما أكتب ، فأنا أحب أن يلتهمنى الشيخان لأنى أعرف أن حلقيهما إن استطاعا ازدرادى فستعجز معدتاهما عن هضمى

أنا أهدى إلى الشيخين بحثى عن حياة ديكادرت ، ولكنى أهديه إليهما على أن يقرءاه و يفقهاه فقها « حسنا » لا يشبه فقههما « للشعر الجاهلى » ولا للسان العرب ولا لما كتب الرافعى أو أملى السكندرى وأنا أهدى هذا البحث إلى الذين يعرفون ديكارت من المتفرنجة والمتعلمين على اختلافهم ذلك أنى أعلم من أمر ديكارت ما لايعلم الناس فى مصر ، فقد كنت أريد ان أضع فيه كتابا واضطرنى ذلك إلى كثير من البحث والتحقيق و إلى ألوان من الاستقصاء والاستقراء . ولكنى لا آسف على مالقيت من عناء ، فقد وصلت إلى نتائج غريبة قيمة لو أعلنتها فى فرنسا لاندكت لها السوربون ولاضطربت لها الكوليج دى فرانس ولأعلن لها المجمع العلمى الفرنسى إفلاسه . . لا تضحك ولا تعجب فلست أحدثك إلا بالحق الذى لا شك فيه ولا غبار عليه . ويكفى أن تعلم أنى استكشفت طائفة من الكتب

المخطوطة التى كتبت فى النصف الثانى للقرن السابع عشر بعد أن مات ديكارت بسنين قليلة ، والتى كانت محفوظة فى مكتبة الملك الخاصة ، حتى إذا كانت الثورة الفرنسية ، وتبدد مافى القصر ضاعت هذه الكتب، ولم يستطع أن يظفر بها الذين أنشئوا المكتبة الأهلية فى باريس بعد الثورة ، وأخذت أسرة من الأسر الشريفة تتوارث هذه الكتب ، حتى انتهت إلى صديق لى فرنسى ، كان يدرس معى ، وهو يقيم فى ريف بورجونيا ، فدعانى فى بعض فصول الصيف أن أقضى عنده أياما ففعلت ، وأظهرنى على مكتبة آبائه ، فاذا فيها هذه الكتب المخطوطة ، فدرسناها معاً ، ولم نستوف درسنا بعد ، وسنقدمه إلى السوربون يوم نستوفيه ، وسننشر هذه الكتب على الناس ، وسنودع أصولها المخطوطة المكتبة الأهلية بباريس ، وسيعلم الناس يومئذ أنهم لم يؤتوا من العلم عن ديكارت إلا قليلا ، وستعلم الحكومة الفرنسية يومئذ أن هذه الطبعة الرسمية التى نشرتها فى إثنى عشر مجلداً ضخما لا تشتمل إلا على ما كان يكتبه ديكارت ليلهو و يعبث و يلهى الناس عن فلسفته الصحيحة .

فديكارت كأرستطاليس يذهب فى الفلسفة مذهبين مختلفين أحدهما يعلنه إلى الناس ، فانهم يستطيعون أن يفهموه وأن يسيغوه ، والآخر يحتفظ به لنفسه ، وللأصفياء من تلاميذه ولا يذيعه فى الجماهير

لأنه أعسر وأدسم من أن تحتمله عقولهم . وقد ظفرت الحكومة الفرنسية بالقسم الأول من آثار ديكارت ، فعهدت إلى عالمين من أكبر علماء فرنسا بتحقيقه ونشره ففعلا ، ووقع هذا القسم في اثنى عشر مجلداً ضخماً كما قلت لك . ولكن من يقرأ هذه الطبعة الرسمية أو هذه المطبوعة الرسمية — على رأى وحيد — ويقارن بينها وبين ماسننشره قريباً سيرى أن ديكارت كان غريباً حقاً . فقد كان يأتلف من شخصين يختلفان فيما بينهما كل الاختلاف : أحدهما فيلسوف معتدل معقول يكتب بالفرنسية حينا ، وباللاتينية حيناً آخر ، ويتناول فيما يكتب كل ما تناوله الفلاسفة من قبله ، ويذهب فيما يكتب مذهب التجديد ، فيخيل إليك أنه سيؤسس فلسفة جديدة تهدم ما أقامه أرستطاليس وتلاميذه . ذلك لأنه يتخذ لفلسفته هذه قاعدة لم يألفها الناس ، هي نسيان القديم والبراءة منه كله ، وافتراض أنه لم يكن ، حتى إذا قرأت هذه الفلسفة وتعمقت فيها لم تجد جديداً ، ولا شيئاً يشبه الجديد ، وإنما هو كلام ككلام الفلاسفة فيه كثير من الحدود والقضايا والأقيسة ، ومع ذلك فقد فتن الناس بهذا الشخص واعتبروه أبا الفلسفة الحديثة ، ومؤسس العلم الجديد . ولكن الشخص الثانى هو الذى لفتنا وبهرنا ، لما فيه من غرابة كنا ننتظر كل شىء إلا إياها . ذلك أن ديكارت لم يكن مسيحياً ولا فيلسوفا ولا من أصحاب التجديد

ولا من أنصار هذه الحقائق الثابتة التي ألفها الناس ، وإنما كان مسلماً ديانا متصوفا مغرقاً في التصوف شطاحا مسرفا في الشطح . انتهى به هذا كله إلى شيء لا أستطيع أن أسميه إلا « إظهار الكرامات » . ولعل أحسن طريق لشرح هذه الناحية الخفية من حياة ديكارت أن ألخص لك في شيء من الايجاز بعض ما كتبه ديكارت عن نفسه ، وما وجدناه في هذه الكتب (المخطوطة) التي حدثتك عنها آنفا .

ولد ديكارت في القرن السادس عشر المسيح ، وكانت أسرته فقيرة ، شديدة المحافظة على العادات القديمة والسنن الموروثة ، فلما شب أرسلته أسرته إلى مدرسة اليسوعيين ، فتعلم فيها على نحو ما كان اليسوعيون يعلمون . أتقن اللاهوت وفلسفة العصور الوسطى واللغتين اللاتينية واليونانية . ولكنه كان ذكياً حاد الذهن مستعداً للنقد والشك ، فاضطربت نفسه اضطراباً شديداً حين أحس تناقضاً بين قواعد اللاهوت وفلسفة أرستطاليس . ولكنه لم يظهر من هذا الشك شيئاً لأنه كان محافظاً كأبويه وأساتذته اليسوعيين . على أنه لم يكد يدع المدرسة حتى سئم الحياة التي وجهه إليها أبواه ، وهي حياة الحرب ، فانصرف إلى السياحة ولقي في هولاندا رجلا شيخا من اليهود يقال له در وكلكسيس بن كرابك . قال ديكارت : كان لهذا

الشيخ تأثير غريب فى نفسى ، لا أدرى أكان مصدره ذكاءه وفطنته أم غرابة شكله ، واختلاف أطواره العجيبة . كان قصيراً ضخماً عريض ما بين الكتفين ، صغير العينين غائرهما ، ولكن عينيه كانتا شديدتى التوقد كأنهما شعلتان تضطربان ، عريض الأذنين ، دقيق الأنف ، غليظ الشفتين ، مرسل اللحية ، فأما صوته فلا أعرف أنى سمعت صوتاً يشبهه . أما فى حديثه العادى فكان غليظاً متهدجاً أشبه شىء بالرعد ، فاذا ناقش أو ناظر فى العلم كان نحيف الصوت حاده خلاب الحديث . ولا أعرف أنى رأيت عالماً يحيط بمثل ما كان يحيط به هذا الرجل مما كتب الأولون والآخرون ، كان يهودى الجنس والمولد ، ولكنه لم يكن يهودى الدين . وأحسب أنه قد ورث شيئاً من آبائه الذين خالطوا المسلمين مخالطة شديدة فى اسبانيا . كان غنياً ولكنه شديد الزهد فيما كان يملك من ثروة ، إلا أنه كان يحب الاستمتاع بالطيب من لذات الحياة ، وكان يعجبنى فى بيته شيئان : مائدته ومكتبته . تحدثت إليه فى الفلسفة وفى اللاهوت فسمع منى ، وتحدث إلىّ ، وما هى إلا أن فتنت به وشغف بى ، وأصبحت لا أستطيع عن لقائه صبراً . وقد كان فى حديثه إلىّ ماهراً لبقاً يلقى إلى أغرب الآراء ، وكأنه يحدثنى عن الجو والمطر ، حتى إذا آنس منى اطمئناناً إليه ، وثقة بكل ما يقول ، كشف لى عن دخيلة نفسه ، فاذا هو لا يؤمن

بالمسيحية ولا اليهودية، ولا يحب الالحاد ولا الملحدين، و إنما اتخذ لنفسه دينا كنت أسمع به، ولا أعرف من حقيقته شيئاً. فلما رغبت إليه فى أن يظهرنى على دقائق هذا الدين أطال الصمت، ثم قال فى هدوء: ما أحب أن أظهر لك هذا الدين، و إنما أحب أن يظهر لك الدين نفسه فاتبعنى، ثم مضى بى إلى مكتبته واستخرج سفراً ضخما دفعه إلىّ، وقال اقرأ هذا، فاذا فرغت منه فلنتحدث، ثم تركنى ومضى. ونظرت فى الكتاب فاذا هو باللاتينية و إذا هو ترجمة لكتاب كتبه أحد المسلمين فى القرن العاشر للمسيح يقال له الطواسين و يقال لصاحبه الحلاج [1] ولم أكد أمضى فى هذا الكتاب حتى أحسست كأن بينى و بين الحقائق ستراً صفيقاً، وكأن هذا الستر أخذ يرتفع شيئاً فشيئاً و يظهر لى من ورائه عالم بديع غريب خلاب، وأخذت نفسى تمتلىء شوقا إلى هذا العالم وهياما به. انفقت فى قراءة هذا الكتاب أياما ثلاثة، فلما فرغت منها أنكرت نفسى وأنكرت ما حولى من الأشياء ومن حولى من الناس. ولقينى دروكاكسيس فلم يظهر عجبا ولا إنكاراً . . .

---

(١) ألفت الأستاذ لويس ماسينيون إلى هذه الترجمة اللاتينية لكتاب الطواسين. فأنا أعلم أنه يعنى بهذا الكتاب وصاحبه وأنه قدم إلى السوربون فيهما رسالة كان لها خطر عظيم

وإذا كنت لا أزال حياً إلى الآن ، وإذا كنت قد استطعت أن أنشر فى الناس كتباً أعجبتهم ، وأكتب لنفسى كتباً ورأوها ، وإذا كان صوتى قد وصل إلى أقصى أطراف الأرض ، وتنافس الملوك فى عشرتى والاستئثار بي ، فأنا مدين بهذا كله لدوركلكسيس ابن كراباك . ذلك أني خرجت من قراءة ذلك الكتاب مفتونا ، أريد أن أعلن إلى الناس إيمانى بهذا الدين الجديد ، وأناضل عنه بما أملك من قوة ، ولكنه حال بينى و بين ذلك ، وكان يقول لى فى هدوء : أحذر أن يصيبك ما أصاب الحلاج فلا تنتفع بحياتك ، ولا تنفع بها الناس ، والحياة أغلى وأنفس من أن تبذل فى غير نفع ، فاكتم ما أنت فيه وأنفق حياتك فى التسبيح والتقديس ، وانفع الناس ما استطعت إلى نفعهم سبيلا .

من ذلك الوقت آثرت العزلة ، وعشت هذه المعيشة التى كان الناس يعجبون من أمرها .

وفى الحق أن حياة ديكارت كانت غريبة ، فقد كان ينفقها فى موقد له لا يخرج منه إلا مضطراً ، وكان يقسم وقته أربعة أقسام : أحدها لما يحتاج إليه جسمه من العناية المادية ، وكان يقتصد فى هذه العناية اقتصاداً شديداً ، لا يأخذ من الأكل والشرب والنوم إلا بما يمسك عليه الحياة ، والثاني ينفقه فى الكتابة والتأليف فيما ينفع الناس

فى هـذه الحياة العاجلة ، والثالث فى التفـكير الفلسفى الاشراقى ، والرابع فى التسبيح والتقديس وتلاوة صيغة معينة أخذها عن شيخه دروكلـكسيس بن كراباك . وكان لترديده إياها تأثير عظيم فى حياته العملية والعقلية . قال ديكارت :

« بينا أنا فى موقدى ذات يوم أردد ما تعودت ترديده من صيغ التسبيح والتقديس إذ أخذتنى غفوة ، فرأيت فيما يرى النائم كأن سقف البيت قد انشق وكأن طائراً قد هوى إلى الموقد ، له شكل الهدهد ، ولـكنه أكبر منه حجما وأعرض منه جناحاً ، وكأن هذا الطائر قد وقف قبالة الموقد محدقاً فىَّ منصتاً لما أقول ، وكأنه قد أنكر صمتى ونومى فقال فى لغة لاتينية تبينتها فى وضوح وجلاء : عجبا لهذا الصامت النائم والفلك يدور ، وشيخه فى خطر ، فاستيقظت لهذا الصوت فى شىء من الانزعاج ، ونظرت فلم أر شيئاً ، ولـكنى أشفقت على دروكلـكسيس وأردت أن أراه فسعيت إليه من فورى ولم أكد أسأل عنه حتى حدثت أنه مريض ، وأن الطبيب يخشى عليه . فأدخلت عليه ، فاذا هو فى سريره شاحب ضعيف يتردد نفسه قويا فى صدر فارغ ، فجثوت عند سريره ، وأخذت أدعوه فى رفق ، وكأنه كان نائماً فانتبه وقال : ها أنت ذا قد أقبلت ، لقد أرسلت أدعوك وكنت أخشى أن أفارق هذه الحياة قبل أن أراك ، فهل جاءك رسولى؟

قلت من رسولك؟ قال : بريبيش قلت : هذا اسم لم أسمعه من قبل ، قال : ولكنك رأيت مسماه منذ حين ، هو طائر يشبه الهدهد ويتكلم لاتينية سيسرون . فاحفظ اسمه فسينفعك ، وادعه كلما احتجت إلى شيء شاق ومره بما شئت فستجد منه طاعة وإخلاصاً ونصحاً ، وأعلم أنه موكل بزعماء المتصوفة منذ كانوا ، يخدمهم ويقضي حاجاتهم ، لا يجد فى ذلك مشقة ولا عسراً ، وهو فوق العلة ، وفوق الموت حتى تنقرض طائفة المتصوفة ويموت بعد آخرهم بقليل . خدم متصوفة الهند قبل المسيح بآلاف من السنين ، وأشرف على بناء الأهرام ، وأملى ما كتب فيها من طلاسم ، وأعان فيثاغورس ، ورافق أفلاطون فى سياحته ، ولزم الحلاج وابن الفارض ومحيي الدين بن العربى ، وسيلزمك منذ غد ، وسيعينك على سياحات لابد من أن تسيحها فى الأرض ، فأنت مضطر إلى زيارة البيئات الصوفية فى بغداد والقاهرة وتلمسان وفارس ، على أنى مؤد إليك أمانة يتناقلها زعماء الصوفية ويتوارثونها وهى لهم نافعة فخذها فأنت زعيم الصوفية بعدى .

ثم أخرج من تحت وسادته علبة صغيرة من الذهب أشبه شيء بعلب النشوق التى يصطنعها الشيوخ فى مصر وقال : احتفظ بها ولا تفتحها إلا حين يطلب ذلك إليك صديقنا بريبيش ، واحفظ على هاتين الصيغتين تستقبل بأولاهما النهار وبأخراهما المساء ما حييت .

ثم همس بالصيغتين فى أذنى على أنهما سر لا يباح إلا لزعيم . وماهى بعد ذلك إلا أن اضطرب جسمه اضطراباً شديداً ثم هدأ وقد فارقته الحياة ، وإذا بريبيش قد ظهر فى الغرفة ، وقال فى هدوء ، انصرف فقد مضى صاحبك ، ودع هذا الجسم لأهله فليس لك به شأن فخرجت

وهنا يصف ديكارت حزنه على صاحبه فى عبارات مؤثرة حقاً ، ولكن صحف « السياسة » محدودة ، فلأدع حزن ديكارت ولأتم ما أنا فيه من ذكر حياته الغريبة

أصبح ديكارت بعد انصرافه من عند صاحبه ، فاستقبل النهار بالصيغة التى أداها إليه دروكلكسيس . وما كاد يستقر فى موقده حتى جاءه بريبيش فقال : ما أنت وهذا الموقد ، وما أنت والكتابة والتفكير ؟ هلم إلى سياحتك . قال ديكارت لبريبيش : ولكنى لم أعدد لهذه السياحة شيئاً . فدعنى أدبر أمرى . قال بريبيش : ومتى دبر الصوفية لأنفسهم أمراً ! قم فانطلق معى ، ومضى فى الجو قريبا من الأرض يسايره فيلسوفنا حتى خرجا من المدينة ، وإذا جرة ضخمة من الفخار قد نقشت عليها نقوش وتصاوير لم ير مثلها ديكارت. قال بريبيش . امتط هذه الجرة وردد صيغة المساء مرات . ففعل ، وإذا الجرة تصعد به فى الجو حتى أشفق على نفسه ، ولكن الجرة ماضية ، ماضية فى الجو لا تلوى على شىء ، والطائر مواز لها يمضى فى

رفق ويتلو فى إعجاب خطبة من خطب سيسرون التى ألقاها فى مجلس الشيوخ الرومانى يعنف بها كاتيلينا . وهو يحلل هذه الخطبة ويظهر للفيلسوف ما فيها من آيات البلاغة . ومضيا على هذا النحو ساعات ، وإذا بريبيش يقول لصاحبه : انظر إلى الأرض ، فينظر فلا يرى إلا أمواجا تلتطم وتصطخب ، فيسأل صاحبه أين نحن ؟ فيجيبه : نحن نعبر البحر إلى الاسكندرية . وانتصف النهار ، أحس فيلسوفنا الجوع والظمأ ، فيسأل الطائر : من لنا بطعام وشراب ؟ قال بريبيش : والعلبة التى أهداها إليك أمس دروكلكسيس أين هى ؟ هى معى . إذن فأخرجها وافتحها . فيخرج العلبة ويفتحها فلا يروعه إلا فتاة ظريفة قد خرجت منها مبتسمة محيية مصفقة ، وإذا فتيان وفتيات قد أقبلوا إليها من الجو مسرعين ، وإذا هى تأمرهم بلغة لا يفهمها ديكارت فيسائل صاحبه ما هـذه اللغة ؟ فيجيبه : هى اللغة السريانية التى لابد لك من أن تتعلمها بعـد حين . وما هى إلا لحظـات حتى وقفت الجرة فى الجو لا تتقـدم ولا تتأخر ، ونصبت أمامها فى الجو مائدة فخمة صفت عليها الصحاف والأكواب من الذهب والفضة ، وقدمت عليهـا ألوان من الطعام لا عهد لديـكارت بلذتها وحسن مذاقها فى الفم وموقعها فى المعـدة ، فأكل الفيلسوف وشرب ، ومن حوله الطير تصـدح

obeikandi.com

بأنغام لذيذة حلوة ، حتى إذا تم له من ذلك ما اشتهى رفعت المائدة ، واستخفى كل شىء ، وأقبلت الفتاة السريانية مبتسمة قائلة فى ظرف وخفة : والآن فأدخلنى علبتى ، فيفتح لها الفيلسوف العلبة فتستخفى فيها ، وتستأنف الجرة سيرها فى الجو . ويأخذ بريبيش فى قراءة خطبة التاج التى ألقاها ديموستين على الأثينيين محللا مستنبطا أسرار البلاغة اليونانية . فاذا سأله ديكارت عن حبه اللاتينية واليونانية قال : أنا موكل بالأدب أحبه وأنفق فيه حياتى ، ولست أوثر أدباً على أدب ، وإنما أحيط بالآداب كلها . وأنت تعلم أن الأديب يجب أن يلم من كل شىء بطرف ، قال ذلك أدباء العرب وسيقوله فى آخر الزمان منهم رجل يقال له الشيخ علام . وإذا كنت قد تلوت عليك خطبة سيسرون وخطبة ديموستين ، فذلك لأنك تعرف اللغة اللاتينية واليونانية . وسأتلو عليك غداً قصيدة عربية وضعها رجل يقال له خلف الأحمر ، ونسبها إلى شاعر يقال له النابغة الذبيانى ، وهى قصيدة جيدة لايشك سامعها فى أنها قديمة ، وقد استشهد النحاة بشىء كثير منها على قواعد النحو العربى . قال ديكارت : وأى فائدة فى تلاوة هذه القصيدة أو غيرها من الشعر العربى ، وأنا أجهل لغة الحلاج ، ولا أستطيع أن أقرأ هذا الكتاب القيم كتاب الطواسين إلا فى هذه الترجمة اللاتينية التى نشرت فى القرن الثالث عشر والتى

أرجح أنها لاتخلو من خطأ . قال بريبيش : ستعرف اللغة العربية وتتقنها إذا أمسيت ، فليس يباح لك أن تدخل بلداً دون أن تعرف لغة أهله ، و إذا كنت ستزور أطراف الأرض كلها فستعرف لغات الناس جميعاً ، قال ديكارت : ومن لى بذلك ؟ قال بريبيش : أنا لك به ، انظر إلى هذه العلبة الصغيرة ، أنها تحتوى اللغات جميعاً ، فيها أقراص تشبه أقراص النعناع كل واحد منها يمثل لغة من اللغات ، فاذا أشرفنا على البلاد العربية فسأدفع إليك قرص اللغة العربية تزدرده ، فاذا أنت أقدر الناس على أن تنشد وتفهم وتنقد ماينسب إلى امرىء القيس من شعر ، وما يضاف إلى تأبط شراً من سخف ، وما يحكى عن قس بن ساعدة من وعظ و إرشاد ، و إذا أنت من أقدر الناس على مناقشة سيبويه والخليل والمبرد فيما تركوا من قواعد النحو والعروض والقافية والصرف ، فانتظر . وانتظر ديكارت حتى إذا مالت الشمس إلى الغروب نظر فاذا من تحته مدينة يموج الناس فيها موجاً : قال لصاحبه : ماهذه المدينة ؟ قال : هى مدينة طنطا يحتفل الناس فيها بمولد السيد احمد البدوى ، فازدرد هذا القرص ففعل . وقال بريبيش كلمات هوت لها الجرة إلى الأرض ، ونظر ديكارت فاذا هو واقف على قدميه . قال له بريبيش ضع هـذه القلنسوة على رأسك لتستخفى عن أعين الناس ، ففعل ، ومضى مع

صاحبه يزور المولد ويجلس فى كل خيمة لحظة ثم دخلا المسجد واختلطا بالشيوخ والطلاب والزائرين والذاكرين

وعلى هذا النحو الذى يفصله ديكارت تفصيلا ممتعاً قضى صاحبنا سنتين كاملتين مطوفاً فى أقطار الشرق الاسلامى كله متقناً لغاتها وعاداتها ، ذاكراً مع الذاكرين ، متيما مع المتيمين ، دائراً مع الدائرين ، يلتهم النار حيناً ويبتلع الزجاج آخر ، ويستطق بالحيات والأفاعى ، ويمشى على الماء ويطير فى السماء ويزور الجن فى الأرض السابعة ، والملائكة فى السماء الرابعة ، حتى إذا قضى من هذا كله وطراً وعلم من أسرار الكون ما يضمره الشرق وحده ، عاد إلى هولاندا فمكث فى موقده أشهراً يكتب ويفكر ويقدس ويأتيه بريبيش كل مساء فيقضى عنده ساعة ثم ينصرف . حتى جاءه ذات يوم فقال : أحسب أنك قد أحببت الراحة وكرهت مشقة السفر ، ومع ذلك فلا بد لك من رحلة أخرى ليست أقل مشقة ولا نفعاً من رحلتك الأولى فقم على اسم الله . قال ديكارت : ألا ننتظر إشراق النهار ؟ قال : كلا ، وما أنت والنهار والليل ؟ الجرة تنتظر وعلبتك كفيلة بحاجات السفر وعلبتى كفيلة بتعلم اللغات ، وسأتلو عليك فى هذه الرحلة آيات ألمانية وروسية لم تظهر بعد ، لأن أصحابها لم يخلقوا ولكنهم سيخلقون وسيحدثون هذه الآيات فيعجب بها الناس ، سأتلو عليك ماسيحدثه

جوت وهنرى هين وتلستوى وغيرهم من أعلام الشعر والنثر والفلسفة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين ، ثم سأتلو عليك كتاباً يكتبه بعد سنين يهودى يتأثر بمذهبك اسمه سبينوزا سيكتب فى الأخلاق والفلسفة متأثراً بهذا الكلام الفارغ الذى تكتبه للناس فى أوقات الفراغ . وسيظن أنه وصل إلى الحق وسيلقى من الناس إكباراً واحتقاراً . وقد استصحبت كتاباً شرقياً عربياً سيظهر فى الربع الأول من القرن العشرين فى مدينة القاهرة ، وهو كلام فارغ ككلامك هذا الذى تنشره على الناس ، واسمه يدل على أنه فارغ وهو كتاب « فى أوقات الفراغ » الذى سينشره على الناس كاتب ظريف مفكر يجد حينا و يعبث أحياناً ، أديب ولكنه يحب السياسة و يرشح نفسه للانتخاب فى مجلس النواب ، واسمه محمد حسين هيكل . فأنت ترى أن رحلتنا ستكون قيمة سهلة ، ولا سيما حين أتلو عليك كتاباً باللغة العربية سيضعه مصرى فى القرن التاسع عشر يقال له الشيخ محمد عبده و يترجمه فى القرن العشرين عالمان يقال لأحدهما مصطفى عبد الرازق وللآخر برنار ميشيل ، وسترى أن هذا الشيخ المصرى المسلم متأثر تأثراً تاما بفلسفتك هذه الفارغة التى تفسد بها عقول الناس ، وتنشىء لهم بها علما جديداً ، سيمكنهم من استعباد البخار والكهرباء والماء والهواء والصعود إلى السماء . قم بنا .

فقاما وامتطى فيلسوفنا جرته ومضيا نحو الشمال . واستمرا فى رحلتهما أياما وليالى متنقلين من أدب إلى أدب ، ومن فن إلى فن حتى استقبلها فى صباح يوم مشرق جبل شاهق لا يصل الطرف إلى قمته قال ديكارت : أين نحن ؟ قال بريبيش نحن فى أقصى الأرض من ناحيتها الشمالية ، وهذا الجبل الذى تراه هو سورها الذى يأخذها من جميع أطرافها . قال ديكارت مصفقا : هذا جبل قاف ؟ قال بر ببيش نعم هو جبل قاف . قال ذيكارت . ليس وراءه إلا الماء الذى لاحد له طولا ولا عرضا ولا عمقا ، والذى لا يحيا فيه شىء ، قال بريبيش أخطأت فسترى أن فى هذا الماء حياة وأحياء . قال ديكارت : ما ذا تقول ؟ سنقتحم هذا الجبل ؟ قال بريبيش : وما جئت بك إلا لنقتحمه . إن من ورائه قوما ينتظرونك لتنشر فيهم الدعوة إلى الحق ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور ، دع هذه الجرة فهى لا تغنى عنك شيئا . قال ديكارت . وكيف تصعد فى هذا الجبل ؟ قال بريبيش : أترى إلى هذا السحاب المتراكم ستهبط منه سحابة تحملنا إلى حيث نريد . وهبطت سحابة فاذا شىء أشبه بعربة من الذهب الخالص ، فيه وسائد من الحرير والاستبرق ، وأكواب ملىء بعضها من الشاى و بعضها من القهوة ، و بعضها من اللبن ، وعلبة نشوق وسجائر مختلفة منها الطويل والقصير ، والضخم والنحيف ، ولكنها كلها عطرة أرجة

يتضوع منها نشر يشبه العنبر ، وفيها شيشة وجوزة ، وفيها نرد وشطرنج ودمينو وما إلى ذلك من أدوات اللعب . جلس الفيلسوف ومعه بريبيش وأخذ فى تدخين الشيشة لأنه كان قد جرب ذلك فى دمشق فأحبه . أما بريبيش فأخذ يدخن الجوزة لأنه كان كثير الاختلاف إلى حى من أحياء القاهرة فى باب الشعرية ، وهناك تعلم هذا النحو من التدخين . وصعدت بهما السحابة فى السماء حتى انتهت بهما إلى قمة الجبل ، فهم ديكارت بالخروج فأمسكه بريبيش قائلا : لا تخرج حتى تشرب قدحا من اللبن وكأسا من القهوة وحتى تتنشق ، فكل هذه الأشياء من ثمرات الأرض التى نتركها ، ولا بد من أن نذوقها الآن لنضمن لأنفسنا العودة إلى هذه الأرض أحياء أو أمواتا ، فان نحن لم نفعل فسيقوم جبل قاف حائلا بيننا و بين الأرض آخر الدهر . شربا ودخنا وخرجا . فاذا طائر عظيم لا يستطيع الطرف أن يحيط به قد حلق كأنه ينتظر أمراً قال ديكارت : ما ذا أرى ؟ قال : هذا الطائر الذى تراه هو بلا جوست ، وهو السفينة التى يتخذها الأحياء فيما وراء جبل قاف لمواصلاتهم فامتط هذا الطائر فسأكون معك وسترى أنه يقطع فى لحظات ما تقطعه سفنكم فى أيام ، واستقر على جناح الطائر وما هى إلا لحظات قصار حتى هوى بهما إلى جزيرة عظيمة فيها غابات كثيفة ومروج خضر ، ولكن أهلها قصار لا يتجاوز ارتفاع أحدهم شبرا ، عراض يتجاوز

عرض أحدهم متراً ، وهم يضحكون أبداً ، ولهم فيما بينهم حديث كقصف الرعد ، وهم يدخنون ولكن بآذانهم ، يدخل الدخان فى إحدى الأذنين فيخرج من الأخرى ، وليس لكل واحد منهم إلا عين واحدة قد استقرت فى وسط جبهته ، ولكنها ضخمة متوقدة يتطاير منها شرر مخيف . قال ديكارت : ولكنى لا أفهم شيئاً مما يقولون . قال بريبيش : هذا قرصهم فازدرده تفهم لغتهم . وأخذ ديكارت يسمع لغتهم ويفهمها ، فقال لصاحبه : ألست ترى معى أن هذه اللغة تشبه اللغة البلغارية شبهاً شديداً ، قال بريبيش : هى أصل اللغة البلغارية وهؤلاء الناس هم آباء البلغار ، كانت فيهم ثورة منذ آلاف السنين انتصرت فيها الديموقراطية على الأشراف فأجلتهم عن بلادهم ، فعبروا جبل قاف ، وهناك فى أرضكم أثر فيهم الجو ، فأخذ من عرضهم ، وزاد فى طولهم ، فاستقامت لهم هيئات وقامات كهيئات الناس وقاماتهم ، ومضوا فى طريقهم حتى انتهوا إلى الأرض التى تسمى الآن بلغاريا . فاحتلوها واستعمروها . وهم الذين تحدثوا إلى فقهاء المسلمين عن أرض تشرق فيها الشمس ستة أشهر فليس فيها ليل ، وتغيب عنها ستة أشهر فليس فيها نهار . وقد وضع فقهاء المسلمين أحكاماً فقهية لأهل هذه البلاد تمس أوقات الصلاة بنوع خاص

وقد جئت لتنشر الاسلام فى هذه الأرض ، فعلم الناس كيف يؤقتون الصلاة حين تشرق الشمس ، وحين تغيب ، وامض بنا فان «قاطرينا» تنتظرك فى قصرها . قال ديكارت : من قاطرينا ؟ قال : بريبيش هى ملكة هذه الجزيرة حدثتها عنك وأنبأتها بنبئك ، فهى تنتظرك وقد زارها من قبلك دروكلكسيس وزارها الحلاج وزارها فيثاغورس قال ديكارت : هى إذن خالدة لا تموت قال بريبيش : إن الخلود لم يكتب لأحد ، كل شىء هالك إلا وجه الله ، ولكن ملوك هذه البلاد كتب لهم طول الأعمار . فأعمارهم لا تعد بالسنين ولا بالقرون وإنما تعد بالآلاف . وقد ولدت قاطرينا سنة ٣٥٠٠ قبل المسيح وملوك هذه البلاد إذا بلغوا من العمر ثلاثة آلاف سنة جاءهم النبأ بالعام الذى سيموتون فيه . وقاطرينا تعلم أنها ستموت سنة ١٩١٧ حين يقرب الألمان من مدينة باريس فى الحرب العالمية الكبرى التى ستكون في ذلك الزمان ، وهى مشوقة إلى أن تراك لتأخذ عنك العلم والحق والدين ، وتنفق ما بقى لها من الدهر فى عبادة وتقرب إلى الله تاركة أمر الملك لولى العهد الذى يبلغ من العمر الآن ألفى سنة ، واسمه ساباتيه بن ارابيشا . ومضيا حتى انتهيا إلى القصر ، فاذا فخامة وضخامة وترف لا عهد لفيلسوفنا بها ، وإذا الملكة القصيرة العريضة تنتظره مبتسمة ، وإذا هو لم يكد يجلس إليها حتى أخذت تتحدث إليه

وتسأله ، واتصل مجلسهما ساعات فتنت فيها الملكة بفلسفة ديكارت فتنة لا حد لها ، ولم تأذن له بالانصراف ليستريح إلا كارهة ، وأخذ فيلسوفنا يتردد على الملكة يعلمها و يفقهها فى الدين والتصوف،وهى به مشغوفة ، ولكن جو هذه الجزيرة لا يلائم طبيعة أهل هذه الأرض فقد أخذ ديكارت يلاحظ أن قامته تقصر وتعرض ، وشكا ذلك إلى بريبيش فقال له : ألم أنبئك أن أهل هذه البلاد حين هاجروا إلى أرضكم ضاقوا وطالوا حتى أصبحوا أمثالكم ؟ فأهل أرضكم إذا جاءوا إلى هذه البلاد قصروا وعرضوا حتى أصبحوا كغيرهم من سكانها ، ولكن السن كانت تقدمت بديكارت فلم يستطع أن يقاوم امتداد جسمه من ناحية وانكماشه من ناحية أخرى فتوفى عام ١٦٥٠

وقد وصف بريبيش فى كتاب أرسله إلى الحكومة الفرنسية مع جثة ديكارت مقدار ما أصاب الملكة من جزع وحزن لفقد هذا الفيلسوف قبل أن تنتشر مذاهبه القيمة فى رعيتها . قال بريبيش فى آخر كتابه : « والرأى عندى ألا يسافر الزعماء الذين سيخلفون ديكارت إلى ما وراء جبل قاف إلا فى منتصف الألف الثالث بعد المسيح ، ففى ذلك الوقت قد يتشابه و يتقارب ما دون الجبل وما وراءه بحيث يصبح طول الناس جميعاً أربعة أشبار وعرضهم أربعة أمتار ، وفى ذلك اليوم قد يكون فن الطيران قد تقدم و يستطيع الناس أن

يقتحموا جبل قاف ، ويعبروا بحر كاف ، ويصلوا إلى جزيرة نون فى مهولة ويسر . قال بريبيش على أني الموكل بهؤلاء الزعماء فلا أسمح لأحد منهم بزيارة قاطرينا أو ابنها ساباتيه بن ارابيشا إلا حين يئين الأوان لهذه الزيارات

* * *

هذا ما أحببت أن أهديه إلى الشيخين الجليلين من حياة ديكارت ، وأنا أعتمد على ذكائهما فى فهم فلسفته من هذا الفصل فللرجل نوعان من الفلسفة : أحدهما سخيف ضعيف هو الذى اعتمدت عليه فى كتاب الشعر الجاهلى ، لأنى لست من أهل التصوف ولا القادرين على الشطح والنطح ، والآخر قيم ممتع خصب لذيذ يلتمس فى كتب الحلاج ومحيي الدين بن العربى ، وفى كتاب الدياربى وشمس المعارف الكبرى وفى رسالة صغيرة توجد فى مكتبة الأستاذ الجليل أحمد زكى باشا بقسم المخطوطات يقال لها « دومة فى نومة »

* * *

أما بعد فانى أقسم لصاحب المعالى وزير المعارف ، ولوكيلها وسكرتيرها العام ، وأعضاء مكتبها الفنى ، ولناظر دار العلوم وأساتذتها وطلابها لو سئل تلميذ أوروبى عن ديكارت فى امتحان الشهادة الثانوية وجهله كما يجهله أساتذة هذه المدرسة العالية لحيل بينه وبين

الشهادة التى يطلبها ، و إذن فأنا أقترح عليهم أحد أمرين : إما أن يكلفوا أحد العلماء بإلقاء محاضرات فى تاريخ الفلسفة للأساتذة وللشيوخ منهم بنوع خاص ليستطيعوا أن يكونوا أدباء وأن يلموا « من كل شىء بطرف » وأما أن يأخذوا هذا الفصل الذى أكتبه ملخصاً فينشروه و يأخذوا الأساتذة والطلاب بقراءته وفهمه فليس ينبغى أن يكون فى مدارسنا العالية أستاذ أو طالب يجهل اسم ديكارت أو فلسفته أو أثره فى هذا العصر الحديث .

ebeikandi.com

فهرس

ص

مقدمة ٣

القسم الأول

من باريس : (١) فى السفينة ١٠
(٢) ساره برنار ٢٢
(٣) بينيلوب ٣٥
(٤) شك ويقين ٤٧
(٥) العلم والثروة ٥٣

القسم الثانى

أسبوع فى بلجيكا : (١) مؤتمر العلوم التاريخية ٦٢

القسم الثالث

خواطر سائح : (١) فى الطريق ١٤٠
(٢) مدينة لورد ١٥٤
(٣) الخيل ! الخيل ! ١٦٤
(٤) باريس ١٧٣
(٥) فى ملاهى باريس ١٨٢
(٦) زوج ألين ١٩٣

obeikandl.com

ص

القسم الرابع

بين العلم والدين ٢٠٤

القسم الخامس

بين الجد والهزل: (١) الأدب والأدباء ٢٤٨
(٢) خواطر سائح للدكتور منصور فهمى ٢٦٤
(٣) ديكارت ٢٨٣

obeikandl.com